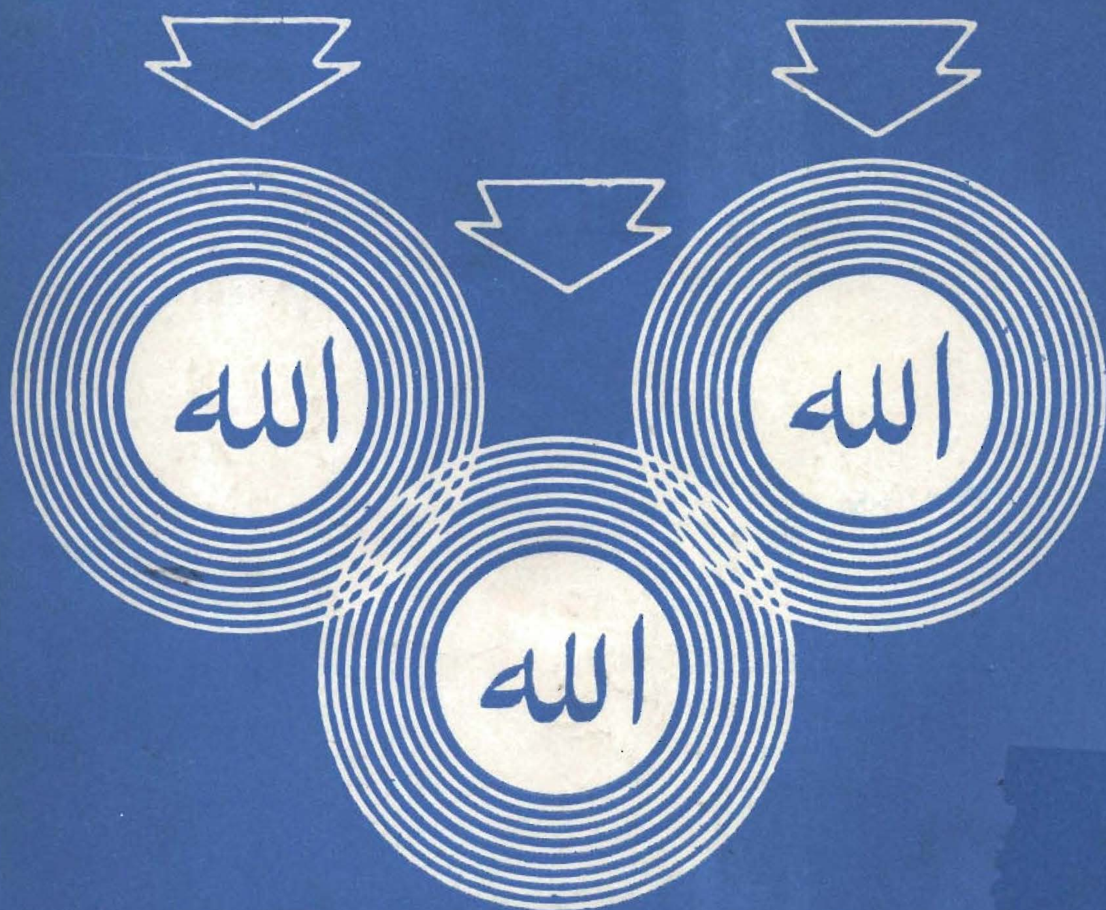
اليوجا

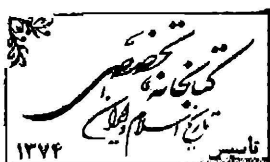
والتصوف و الرهبانيّة



عباس المسيري

اليوجا

والتصوف والرهبانية



عباس المسيري

١٩٨٣

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

رقم الايداع بدار الكتب ٢٤٥٧ لسنة ١٩٨٣
الرقم الدولى ٩ -- ٠٠٨٧ — ٠٥ — ٩٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

هذا الكتاب يبحث فى الفكر الصوفى اليوجى ، والهندى وفلسفة الراجايوجا والقانترك يوجا ، ويقارن بين هذه الفلسفات الشرقية القديمة وبين الرهبنة فى المسيحية ، والزهد ، وبين الفلسفة الصوفية فى الإسلام ، ثم يكشف عن واقع الحياة فى هذه الأرض ، والحكمة من تواجدنا . . .

هل جئنا للخدمة والعمل الكادح ، أم الزهد والاعتكاف ، أم الكسل والتواكل والهروب من المسئولية ؟

وهل لب التصوف ، هو سلوك الإنسان فى الحياة ، متحليا بمكارم الأخلاق ، وخدمة البشرية بالعمل الجاد الصالح للمجتمع وتقدم العلم ، أو هو اعتكاف سلبى ؟

وأختتم كلمتى بالحديث الشريف عن الرسول عليه الصلاة والسلام عندما سأله سائل بقوله « من أحب الناس إلى الله » فقال الرسول صلى الله عليه وسلم « أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس ، وأحب الأعمال إلى الله عز وجل ، سرور تدخله على مسلم ، تكشف عنه كربه أو تقضى عنه دينا ، أو تطرد عنه جوعا ، ثم قال ، ولأن أمشى مع أخ فى حاجة ، أحب إلى من أن اعتكف فى هذا المسجد (يعنى مسجد المدينة) شهراً .

ومن كظم غيظه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا ، ومن مشى مع أخيه فى حاجة حتى يقضيها له ثبت الله قدميه على الصراط يوم القيامة » .

والله سبحانه وتعالى خلق البشر أمماً مختلفة ليتعارفوا ويتحابوا .

فاللهم أرزقنا حسن التوكل عليك ، ودوام الإقبال إليك ، واكفنا شر وساوس الشيطان من الإنس والجان ، وشرور أنفسنا ، والهمنا الحكمة وحسن البيان ؟

عباس محمد السيرى

البَابُ الأوَّلُ

الفصل الأول

الله

منذ فجر الحياة ، والإنسان فى صراع فكرى مستمر ، يبحث بفطرته عن أسرار السكون ، وأسرار الوجود ، وأسرار الحياة ، وأسرار الغيب ، وأسرار نفسه ، وتكوينه المادى والعقلى والمعنوى . . .

وحتى الآن ، وقد مضت ملايين السنين ، وما زال الإنسان يبحث ويتعلم ، وما زالت المعرفة هى بيت القصيد ، وكلما تم للانسان كشف جديد عرف أنه كان جاهلا ، ومع كل هذا الجهد ، فما زال سر الحياة لغزاً من أعظم الألغاز وما زال السكون لغز الألغاز .

وكلما تعمق الإنسان فى بحثه ، عرف أن هناك قدرة قادرة خلاقة ، وراء هذا السكون . وقديما تصور الإنسان هذه القدرة فى صور شتى ، وحتى الآن وما زال الناس فى جهالة ، بالرغم من ظهور الأديان المختلفة ، وما زال الناس فى تساؤلهم « ما هذه الحياة » ؟ وما الغرض منها ؟ وما هذا الوجود العظيم ! ! ومن أين يأتى الإنسان وإلى أين المصير ؟ ومن هو الخالق ؟ وأين مكانه ؟ وما شكله وما كنهه ؟ ! !

ما زال الوهم والخيال يملأ العقول ، بالرغم من أن الأديان قطعت بأنه ليس كمثله شيء ، وأنه قوة عاقلة مدبرة ، سرمدية مبدعة ، قاهرة أزلية أبدية . . .

وقد عنون الإنسان هذه القدرات ، بكلمة جامعة هى كلمة (الله) .

فإذا ذكرت هذه الكلمة ، تقبلها بعض الناس بغير مهابة أو اكتراث ، وتقبلها البعض الآخر فى خوف وخشوع وخضوع ، ويسمعها البعض وكأنها كلمة عابرة ، ويتأمل فيها البعض ، فيرى فيها مجموع الأسماء الحسنى المعروفة ، والتى قيل أن عددها (٩٩) تسعة وتسعون إسما ، وهى صفات الله ، ويرى المتعمق أن هذه الصفات الحسنى جزء من صفات الله ، لأن صفات الله بغير حدود ، وهذه الصفات الحسنى لا تعبر عن كل قدرات الله ، فألوهية الله وذاته ، كينونة شاملة يعجز العقل البشرى المخلوق أن يحيط بها . ويرى بعض الصوفية ، أن الأسماء الحسنى يشترك فيها الإنسان ، فكثير من الناس تخلقوا ببعض هذه الصفات .

وذهب الناس منذ القدم ، مذاهب شتى فى وصف ذات الله ، ولكنهم عجزوا عن الإيضاح والسفور ، ولذلك نهى الإسلام عن البحث فى ذات الله ، وحث على التفكير ، فى آيات الله وقدراته .

وقد أنكر بعض الفلاسفة ، ومن فى حكمهم ، الوجود الإلهى ، زاعمين أن الطبيعة هى مصدر الحياة ، ولهم منطقهم ، ولهم جدالهم ، ولهم قلوب لايفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، فهم كالأنعام ، بل أضل سبيلا .

وإن قلنا الحق ، فأكثر الناس من الغافلين حقا ، فقد ران على قلوبهم صدأ حجب عنهم الرؤية ، وأضلهم الشيطان ، ومن يضلل الله فلن تجد له وليا مرشداً .

والذين يعترفون بوجود إله . نرى منهم العارفون ، وأهل الصفوة والنور ، والراسخون فى العلم ، ومنهم المجاهدون فى سبيل المعرفة .

ومن الناس ، الذاكرين لله ، ذكر اللسان ، وقلوبهم شتى ، وعقولهم شاردة ؛ يمسكون بالمسابح ، وقلوبهم غافلة مقفلة .

والذين يعتقدون أنهم على دين ، تراهم يؤدون الصلوات فى أوقاتها الموقوتة ،

ثم بعد ذلك هم فى غفلتهم غارقون . . . وآخرون يؤدون صلواتهم فى عجلة ، وفى شبه تكرار آلى ، وتسمعهم يقولون « تعالى نخطف صلاة الظهر ونخلص » وليس لهم من صلاتهم إلا قيامهم وقعودهم ، فإذا قضيت الصلاة ، أسرعوا إلى دنياهم غافلين متثاقلين .

وترى بعض الناس فى خشوعهم فى الصلاة ، تحسبهم على شىء من التقوى ، فإذا راقبتهم ، أو جالستهم ، رأيت من أمورهم عجبا ، وفى ذلك قال القرآن الكريم « قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا ولم يدخل الإيمان فى قلوبكم » (من سورة الحجرات الآية ١٣) .

إن ذات الله ليس كمثلها شىء — كقوله تعالى « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » (الآية ١٠ من سورة الشورى) .

وعلى هذا يجب أن يتجنب الإنسان تصور ذات الله ، أو يحاول تجسيمه ، أو تشبيهه ، حتى لا يقع فى الضلال ، « والعجز عن درك الإدراك إدراك » .

والأصوب أن يتفكر الإنسان فى عظمة الله ، وفى قدراته وصفاته وأن نتأمل فى أقوال الكتب السماوية .

فمثلا فى الآية (٨٣) من الزخرف جاء قوله « هو الذى فى السماء إله ، وفى الأرض إله وهو الحكيم العليم » .

والآية (١٠٢) من سورة الأنعام « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير » .

إذا فالله هو الجوهر الواحد الجامع لكل الصفات ، والذى إنبثقت منه كل الموجودات ، وفيه وبه لرتقت كل الحقائق ، وفيه وبه ظهرت كل المظاهر ، وفيه وبه تطورت كل الحيوات ، وهو وجه ظاهر كل شىء ، وهو القائل « أينما وليت وجهك فثم وجه الله » بمعنى عظمة الله وقدراته وصفاته .

إن هيئة الله أو ذاته ، أمر لا يمكن وصفه ولا يمكن للعقل البشرى مهما أوتى من الحكمة أن يحيط به ، أو يعبر عنه بالكلام ، فالكلمات محدودة ، وذات الله غير منظورة للعين البشرية المحدودة الرؤية ، وإن قال البعض جوازا أن الله نور ، فهذا تعبير عن صفة من صفاته النورانية ، كقوله تعالى « مثل نوره كمشكاة فيها مصباح . . » إلى آخر ما جاء فى الآية ، ويضرب الله الأمثال للناس ، لعلهم يتدبرون ويتأملون .

وإن قلنا أن (الله) كلمة ، فهذا تعبير شامل عن أصالته كأصل لكل وجود وتعبير شامل .

وإن قلنا أنه عقل كل الوجود ، فهذا تعبير عن حكمته ومعرفته وتدبيره .
وإن قلنا أنه طاقة وقوة ، فإننا نعبر عن عظمة إمكانياته التى لا حدود لها .

وإن قلنا أنه « العناية الإلهية ، فإننا نعبر عن إحاطته بكل شيء ورعايته لكل الوجود ، وما فيه من مخلوقات ، وما فيه من موجودات لا حصر لها ، من المنظورات والغيبيات .

وإن قلنا أنه « الملكوت » فإننا نعبر عن جلاله ومجده وملكه ،
وإذا قلنا أنه « الرب » فهذا تعبير عن سيادته وحكمته كمربى .
وإذا عبرنا عنه بالنار ، فإننا نعبر عن مقته وغضبه .

وإذا عجزنا وقلنا أنه « الله » فإننا نعبر بهذه الكلمة عن معنى شامل لكلية وجوده ، وأنه علة عامة لكل شيء ، وتعبير عن كماله وتعاليه عن الأشياء ، وعظمته وتساميه وسموه . .

فالله وإن كان غير مدرك كذات ، فهو مدرك كصفات ، ومع هذا فالقول المأثور « إن العجز عن درك الإدراك إدراك » قول حكيم فى الله ذو المعارج .

فإذا كان الله سبحانه وتعالى غير مدرك أو محسوس ، وهو غيب ، فكيف نتعامل معه ؟

ألا يجدر بنا أن نتأمل معيته معنا ، فمن عرف نفسه فقد عرف ربه . . .
وقيل إبدأ بنفسك .

وأن نحترم أنفسنا كآدميين ، ففي احترامنا لأنفسنا ، احترام لمعية الله معنا ، وأن نعرف أن فى تعاملنا مع الناس هو تعامل مع الله ، وفى محبتنا للناس هى محبة لله ، وفى خدمة الناس خدمة لله ، وفى الرأفة بالحيوان ، رحمة من الله ، وفى صيانة الثروة القومية ، صيانة لعطاء الله ، وفى عطاء الفقير ، عطاء من الله إلى الله ، لأن الله سبحانه وتعالى هو الرازق .

وفى تجميل بلادنا ، هو إذكاء للجمال الإلهى ، وفى اتقاننا للعمل هو عبادة ، لأننا نحقق عبوديتنا ؛ وفى نظافة أنفسنا إيمانا منا بأننا هياكل لقيام روح الله الطاهرة فينا ، وفى نظافة بلادنا طهارة لنفوسنا ، وراحـــة لأعيننا التى ترى بنور الله .

وإذا تعاملنا مع الناس فى تجارة أو بيع ، وجب علينا إلا نسرقهم أو نغشهم أو نستغلهم ، لكى نجمع من وراء الأرباح الطائلة ذهبا نكنزه ، أو عقارا نتملكه من حرام ، ثم نترك كل ما جمعناه آسفين يوم فناؤنا ، ونقول يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ، فالآن حصحص الحق ، والنار مثوى كل غافل عن حق الناس ، والله شديد العقاب ، أفلا تستيقظون .

لقد وضع الله سبحانه وتعالى القانون العام ، فقد وضع سبحانه وتعالى القانون (الميزان) فمن اتبع قوانين الله رجحت كفته ، ومن حاد عنها خفت موازينه ، فأمه هاوية ، وما أدراك ما هى ، نار حامية .

يستخفون من الناس ، ولا يستخفون من الله وهو معهم » .

ومن خلال هذا الكتاب ، ومن بين السطور ، سوف نرى ونتأمل الحكمة من وجودنا ، والله نأمل أن يبصرنا .

ختـــام فى الله

هو الجوهر الواحد الجامع ، الذى انبثقت منه كل الموجودات ، وفيه وبه ارتقت كل الحقائق ، وفيه وبه ظهرت كل المظاهر ، وفيه وبه تطورت كل الحيوات ، وهو باطن الأحياء ، يرى الباطن الظاهر ولا يرى الظاهر الباطن فهو لغز الحياة ، وعليك أن تغوص إلى الأعماق لتحل اللغز . . . لغز الألغاز .

الفصل الثانى

الإنسان

يولد الإنسان وفى كيانه نزعة للكمال ، إنها فطرته فالطفل يولد على الفطرة ثم يتشكل حسب البيئة التى ولد وفيها ، فإن صلحت صلح أمره لصلاحها، وإن فسدت فسد أمره بفسادها .

والحكمة من وجود الإنسان فوق هذه الأرض هو مشاهدة عظمة الله ، ومشاهدة آياته ، وعن طريق هذه المشاهدة ، يتعلم الإنسان ، يتفكر ثم يتفقه ، ويتوقد ذهنه فيدرك . وبما أودع فيه من فطنته يرى إبداع الخالق ، وبما أودعه فيه الخالق من ذكاء يحاول أن يبتكر ، حتى تأخذ الحياة زخرفها ، فالإنسان خليفة الله فى أرضه ، استخلفه فيها ليكون أداة صلاح ، وأداة عمل ، وعلى خلق قويم .

وقبل أن يولد الإنسان ، كان روحاً ، وفى طبيعة الروح المعرفة ، والرغبة فى الكمال ، وبعد الميلاد تظل هذه النزعة للمعرفة وللكمال قائمة فى الأعماق .

ومنذ بدء الخليقة والإنسان دائم التطور ، ومع دوام هذا التطور فهو دائما فى شدة وكبد ، وفى أزمات ، وقد حاول أئمة الأولين وفلاسفة المعاصرين ، إيجاد الحلول ، تلو الحلول ، وما زال الإنسان يعيش فى آلامه ، ويتطلع إلى ما هو أفضل

وقد نزلت الأديان ، لترشد الناس ، وتزرع الفضيلة ، فتنهض الأمة فى دفعة جديدة مع الدين الجديد ثم تمضى الأيام ، ويذهب لب الدين مع الرياح ، وتبقى بعض الشكليات ، والمظاهر ، والمناسك ، التى لا تشبع من جوع ، ولا تغنى عن الحق شيئا . ويعود الناس إلى تنافرهم وتناحرهم ، وتباغضهم ، وتباعدهم عن الحقيقة وتفككهم فى مجتمعهم ، وتعود الإنعزالية فى النفوس ، فينحرف الناس ، ويحاول كل فرد أن يأكل لحم أخيه .

وتنشأ بين الشعوب المنازعات ، نتيجة للانفعال الداخلي فى كل إقليم ، ونتيجة للشقاق الطبقى ، والكراهية ، والعنصرية ، فتقوم الحروب الطاحنة .

وبالتحليل نجد أن كل هذا التنافر ، نتيجة البعد عن حقيقة الحياة وحقيقة الإنسان وحقيقة النفس ، فكلما تباعدنا عن الله وقوانين الله ، كلما زادت متاعبنا ، وكلما دخلنا فى دوامة القلق النفسى ، والجهد العقلى ، والشقاء .

إن الإنسان يبحث عن سعادته فى دنيا الناس ودنيا الأشياء ، ولا يشبع ، ولا يهدأ ، ودائما يكون مثله الأعلا — هل من مزيد ؟

ووسائله إلى ذلك غالبا ، فى جانب الإنحراف والطمع ، أنه يكابد ، ويحارب منافسيه بقسوة وغلظة ، لعله يحصل على مراده ، معتقدا أنه سيصل إلى شاطىء النجاة . قد يشعر أحيانا أنه وصل إلى حافة السعادة ولكنه سرعان ما يجد نفسه مازال بعيدا عن السلام النفسى .

وإذا قلنا له ، لن تهدأ نفسك إلا إذا رجعت إلى الدين ، فانه يبحث فى قنوط ويأس عن الحقيقة ، كأنها ذات أو شىء ملموس أو محسوس ، فهو يتأمل ويتفكر ويجول بفكره ويصول كأنه يبحث عن شىء يفتقده .

فإذا عجز ، توجه إلى الناس ، يبحث بينهم عن صاحب عقيدة يحسب أنه عالم ، فيناقشه ويجادله ويحاوره ، فى شكليات الأشياء ، ثم يتخذه معلماً ، .

وفى كل هذا المطاف ينسى أن اللغز الذى يبحث عنه ، هو أقرب إليه من حبل الوريد ، وأن الأزمات التى يجتازها ، والشدة التى يعانيها فى خضم بحر الحياة هى مسألة فى أعماقه ، هى نفسه التى بين جنبيه ، ولكن الحقيقة محجوبة عنه بسبب صدأ ران على قلبه ، فتتنافر مع طبيعة روحه فيصبح خصيما لذاته الحقيقية .

إن لب الدين الحقيقى ، هو فى توجيه الناس إلى هذه الحقيقة المتناهية فى الدقة ، ولكنها لقمة دسمة لا تعطى إلى كل إنسان ، وإنما هى للمخلصين ، المتابعين ،

الصاحبين . وهذا ما يرمى إليه التصوف فى أعلا مقاماته ، أنه يهدف إلى هذه الحقائق الحيوية ، التى تربط الإنسان بحقيقة ذاته العليا .

ولا يظهر صاحب مذهب فلسفى أصيل ، إلا وامتدت جـــذور معرفته إلى هذه الحقيقة .

ولا يعتد بأى فيلسوف فى العالم ، إلا إذا كان على علم بالحقيقة ، والفيلسوف الناضج هو الإنسان الذى يتكلم بمفهوم الحقيقة ، ويعيش أيضا متخلقا بخلق الصوفى الأصيل ، والصوفى الأصيل هو الذى يؤمن بوجود الله ، أقرب إليه من حبل الوريد ويتخلق بخلقه .

والصوفى لا يكون سفسطائيا ، يضيع وقته فى أحاديث عقلانية ولا يجلس كسولا فى جلسة تأمل بلهاء ، أو عقيما دون عمل مفيد ، أو قعيدا غير منتج ، ولكنه إنسان واسع الإدراك والمفهوم ، يمارس حياته فى خدمة أسرته ، وخدمة المجتمع ، يعمل فى تجارة أو صناعة ، أو يمارس عملا حكوميا . وفى كل هذه النوعيات من العمل ، يقوم بعمله على المستوى الرفيع ، وذلك نبعا من المعرفة التى تقوم فيه ، ومن سعة إدراكه وتجاربه .

والمتصوف لا يتعصب لملته سواء كان على دين الإسلام أو المسيحية ، أواليهودية أو البوذية ، أو ذو عقيدة ما ، لأنه يعيش نبعا من ذاته ، ويعيش فى حقيقة المعرفة ، بنظرة صحوة ويقظة ، إنسان كامل فى الحقيقة الكاملة .

فحياته امتزاج مع الكائنات ، وترابط مع البيئة ، وتنغم مع الوجود .

إن العقائد والأديان المختلفة كلها تحاول أن تخلق فى الإنسان الكمال ، وهى طريق إلى ذلك الهـــدف السامى فى المعاملات ، وطريق فى الله ، ووحدانية النفس الواحدة .

إننا فى هذا العصر ، تباعدنا عن الدين ، وانحرفنا عن الحقيقة ، ودخلنا فى دوامة الحياة المادية ، وصخب الماكينات والمصانع والإنتاج المخيف ، وأصبحت هذه

الأشياء تكاد تدمرنا ، فآلات الحرب المخيفة ، والأسلحة الذرية ، والمخترعات المتقدمة ، كلها تدفع الإنسان إلى الهاوية ، إننا سنحطم أنفسنا بما أوجدناه وبما اخترعناه من عناصر مهلكة ، وسوف يذوب الناس فى هذا الأتون .

وقد رأينا بوادر هذا فى أمريكا ، وفى البلاد المتقدمة ، لقد ساءت أحوال الناس العصبية ، وانتشرت أمراض خطيرة تعرف بأمراض المدنية ، أو أمراض العصر .

لقد ازدادت الأمراض النفسية ، والعقلية ، وأمراض القلب ، والأمراض العصبية ، والقلق ، والإنتحار .

وكثير من الناس فى حالة ضياع ، يواجهون أخطبوط من ذوى السلطان الصناعى ؛ وأصحاب البترول ، والحاكم الجبار ، أو الدكتاتور الأوحد ، ومراكز القوى الشرعية والخفية ، والتجمعات التعاونية الجبارة ، والصحافة المكبلة . .

ويعيش الناس فى الدول النامية ، فى خوف دائم من المجهول ، وكل همهم الحصول على لقمة فى سبيل البقاء .

والناس عطشى للعيش فى سلام ، وعطشى لمعرفة الحقيقة التى تتفاعل فى أغوارها ، وتطوف بها .

وبين الفينة والفينة ؛ تظهر « أيديولوجيات » ـ عقائد وأفكار ـ متباينة متنازعة ، ويحدث صدام أيديولوجى ؛ بين الشرق والغرب ، ومعارك فكرية وعقلانية بين الشعوب ، تحدث شد وجذب وصدام ، وبات الناس فى خوف وعدم طمأنينة .

والسبب فى ذلك ، أن الإنسان العصرى المتنور أصبح بعيد الصلة عن الله ، بل تحول عن معتقده القديم ، بما فيه من متاع فكرى وجمال ، وأصبحت أفكار العصور الوسطى لا تناسبه ، واختفت العقائد الدينية من دول كثيرة ، وأصبحت مطمورة ؛ ودخل الشك فى عقول كثيرة ، وتنكر كثير من الناس للافكار الموحاة ، بل هم فى شك من الوحى وما به أوحى . وأصبحت كلمة (الله) تلاك

على كل لسان فى غير اكتراث ، واليهودية لا تعترف بالمسيحية ، والمسيحية لا تعترف بالاسلام ، والاسلام لا يعترف بالبوذية ، والبوذية انفصلت عن الهندوكية وهكذا ضعفت العقيدة ، وكادت أن تتلاشى ، حتى بين المجتمعات المتعصبة فى الدين ، والمتشددة له .

وبدأت تظهر فلسفات جديدة ، ولكنها أيضاً لا تجد الكثير من المنصتين ، كالوجودية فى الغرب ، والراجايوجا فى الشرق .

ويقول فلاسفة اليوجا فى بلاد الهند وآسيا ، أن علوم الراجا يوجا ، والبها كتى والجنانا ، تشير إلى الحقائق العليا ، دون التعلق بالشكليات الدينية ، فهى تبحث رأساً فى حقائق الروح ، والحقيقة ، وقضايا الإنسانية ككل ، والنظرة العقـــلانية ، والمشاهدة لواقع الحياة . وهى لا تتدخل فى آلهة الهنود ، أو فى الأديان المختلفة سواء فى داخل القارة الهندية أو خارجها .

أنها تبحث فى حقيقة النفس بغية الاستنارة ، لتضىء ومضة من النور ، لتخرج السالك من الجهالة إلى المعرفة ، ومن الظلام إلى النور ، ومن صدام الأيدلوجيات المختلفة .

فاليوجا والتصوف صنوان فى طريق الحقيقة ، وقمة متعددة المواهب فى التعبير عن النفس الحقيقية ، أو النفس العليا ، والنفس المطمئنة .

وإذا أردنا أن نتخذ أساسا متزنا للاتحاد والاتصال بالحقيقة العليا ، كان لزاما علينا أن نهدف إلى إعادة تقويم الحياة ، وإعادة بناء النفس ، وبناء المجتمع ، لخلق حالة من التعاطف والإنسجام مع القوة الكونية الخالقة ، بحب وفهم سليم .

ومما يؤسف له ، أن بعض الناس ، قد أساؤا فهم قانون الحياة ، وإرادة الخالق منها .

والذين ترجموا عن فلسفة اليوجا لم يعبروا تعبيراً صادقا عن أفكارها الجليلة ،

ذات المستوى الرفيع ، وتمسكوا بتدريباب هزيلة ، أو تطلموا إلى ما يقوم به فقراء ، الهنود من قراءة الأفكار ، والتنبؤ بالمستقبل ، أو التركيز فى الكرة البلورية لمعرفة حدث ما ، أو قيام بعض اليوجيون بالخوارق ، كالسير فوق النيران ، أو الارتفاع فى الهواء ، أو الجلوس على ملاءة . ثم الارتفاع بها ، او رؤية مايحدث فى مكان بعيد ، أو قراءة أفكار الغير ، والاتصال الفكرى ، وإرسال الرسائل الفكرية ، إلى غير دلك من الخوارق .

والحقيقة أن كل هذه الأعمال ، هى قدرات خاصة ، اكتسبها (الفقراء Fakir) ، بعد ممارسة تدريبات شاقة لبضع سنين ، وهذه الأعمال ليست من علوم اليوجا ذات المستوى الرفيع ، والفكر العميق الفلسفى ، وإن كانت تجذب إليها بعض الناس .

ذلك أن علوم اليوجا الأصيلة ، نوع من الفلسفة التصوفية ، فى طريق المعرفة عن الانسان ، وعلاقته بالخالق وبالوجود .

الفصل الثالث

التصوف وفلسفة الراجا يوجا

إن جوهر التصوف هو المعرفة عن الله ، والنفس البشرية والحياة ، بالفناء فى الله ثم البقاء بالله .

وأساس الراجا يوجا ، هو التفكر والمعرفة عن الحقيقة ، بالتنسيق بين الإنسان كجسم وعقل ، وبين الروح ، فإذا عرف الإنسان نفسه كمخلوق ، عرف خالقه ، وتناغم معه ، حتى يحدث التوافق مع الوجود الكلى للحياة ، التكامل بين الإنسان كوحدة وجود ، والحياة ككل ، وكنفس واحدة .

ولكى يصل اليوجى إلى هذا المستوى ، عليه أن يلتزم بطريق لا يحيد عنه ، فعليه أن يقوى جسمه أولا ثم ينظفه داخلياً وخارجيا ، ثم يقوى عقله بالتركيز ، ثم التأمل ، حتى يتضح له أنه روح قبل أن يكون جسد ، وعليه أن يحدث التوافق والإتحاد بين الجسم والعقل والروح حتى لا يحدث أدنى تنافر . وللفناء فى اللانهائى يصل الإنسان على تهذيب النفس والسيطرة عليها ، ثم إنعاش منابع الذات ، بالولوج إلى الأعماق ، لتحريك الجوهر النورانى فى القلب .

وللوصول إلى ذلك ، يسلك اليوجى نظاماً فنياً لرفع معنوياته ، بتدريبات سيكولوجية وتدريبات روحية خاصة ، وسلوك حازم ، وذكر دائم ، بتراتيل دينه ، أو ذكر قلبي لكلمة الله وما تنطوى عليه من معنى وفهم .

ثم الصعود من النفس الأمارة إلى اللوامة ، ثم إلى النفس المطمئنة ، ثم إلى الفناء

فى الله . فهى تسير مع التصوف الإسلامى فى القول الحق « يا أيتها النفس المطمئنة إرجعى إلى ربك راضية مرضية ، وادخلى فى عبادى ، وادخلى جنتى » .

والقاعدة الأساسية فى اليوجا هى تحرير النفس ، عن طريق مصاحبة الروح ، وحضورها الدائم،واليوجا لا تتبع دين خاص ، أو طريق محدد أو تعليمات صارمة صلبة ، فلا كزازة فيها ولا تعنت وهى لا تمنح صكوك ، أو امتيازات ، لخلاص الإنسان ونجاته ، بل هى طريق تصوفى .

وهى تؤكد وحدة الحقيقة ، وتعترف بالأحدية ، وأن هذه الأحدية ، صمد لم يلد ولم يولد . . وهى ترفض الشكل الواحد للحياة ، فالإنسان يختلف فى نوعيته . والإنسانية درجات ، ومن الأسس الجوهرية فيها أن الإنسان من الناحية النفسية والسيكلوجية والسلوكية مختلف النوعية ، فهناك الإنسان المتباطن الذى يوجه فكره نحو ذاته ، والإنسان المستظهر الذى يحب الأشياء والمادة ويهتم بها ، وهناك المتأمل والمتفكر ، ثم الرجل العملى الذى لا يؤمن إلا بالفعل والكد والنشاط والإنتاج ، وهناك المنطوى على نفسه ، والذى يحلل كل فعل من حيث الخطأ والصواب ، والمتأنى الماطق ، والمتسرع المندفع ، والذى يستخدم البديهة والحدس ، وهكذا ، لكل سبيله ، ولكل طويته ، ومن هنا تعددت أسباب السلوك ، وتعددت طرق المعرفة ، وتعددت طرق تحقيق الذات ، أو معرفة النفس ولهذا يقول المتصوف ، لله طرائق بقدر عدد الخلائق .

والأمر ، ذو الأهمية القصوى ، للرقى ، هو الرغبة الأكيدة فى أعماق الإنسان للترقى فى معارج المعرفة عن الله ، فهذه الرغبة الصادقة العميقة ، هى التى تدفع بالفرد من مركز ذاته إلى الإتحاد بالقدرة العظمى الخلاقة ، فى صلاة دائمة .

علاقة اليوجا بالدين

ليس لليوجا أدنى علاقة بالأديان ، وهى كذلك ليست فرع من أفرع أى دين في العالم ، وهى تنظر إلى الأديان كطريق إلى المعرفة عن الله ، ولكن اليوجا نظام فلسفى ، وطريق تصوفى ، يوصل إلى التوحيد ، وإلى الفناء فى الله والتكامل مع الوجود ، مع النفس الواحدة . وهى تنادى الإنسان لكى يرتفع عن كل ما يجب من أمور دنياه ، وأن يرتفع عن الأفكار النظرية ، والعقائد التحكمية ، والمذاهب المختلفة والطائفية والشيمية فى الأديان،والتزمت فى الطقوس. وأن ينظر إلى الأديان نظرة صفاء ومحبة وتآخى ، فلا عنصرية فى الدين ، ولا تفرقة بين إنسان وإنسان فى اللون أو الجنس أو النوع ، أو المكان ، فهى تحارب الشقاق والفتنة فى الدين ، وتحارب التقسيم الجنسى للبشرية وتحض على الاتحاد والحب بين البشر ، فهى تعرف أن البشرية من نفس واحدة ، وهى تحض على التقارب بين الأديان ، والتآخى بين أصحاب المذاهب بالفهم والحب .

وقد يتبع الطريق الفلسفى لليوجا من لا دين له ، أو من كان من أصحاب المذهب الطبيعى الذين لا يعترفون بالله ، ويعتقدون أن الطبيعة الكونية هى أصل هذا الوجود ، وحتى الإنسان المرتاب والمتشكك ؛ والملحد والمنكر ، إذا اعتنق أفكار اليوجا ، واتبع قواعد التفكير والتأمل اليوجى، فإنه سيكون من الرابحين ، وإذا زادت رغبته فى معرفة الحقيقة ، وعاش حياته فى هذه الرغبة المتأججة فى صدره ، فإنه لا محالة واصل إلى المعرفة . فأساس بلوغ المعرفة ، هو صدق العزم والتصميم ، والرغبة الأكيدة ، التى تدفع بالإنسان إلى التفتح ، لكى ينقب فى عالم الروح ومملكة الحقيقة .

وفى غير مواربة أقول ، أن الإنسان الذى يتبع دين ما ، وهو سطحى المعرفة

فى هذا الدين ، فإن ولوجه فى المعرفة عن الطريق اليوجى ، سوف يحول معرفته السطحية إلى معرفة أصيلة لتحقيق ذاتيته . ومعرفة نفسه الحقيقية .

واليوجا كالتصوف ، ليست فلسفة واجبة التصديق ، وإنما هى من عوامل النمو الروحى ، وبحر زاخر من المعرفة فى عمق الحقيقة ، وفى قول آخر هى الولوج إلى القلب .

وإذا فحصنا أفكار اليوجا ، وجدناها شىء آخر عن الكتب الدينية ، فهى ليست كالتوراة والإنجيل ، أو غيرها من الكتب الدينية ، وهى ليست وصايا ، ولا يوجد فيها أفكار محددة ، أو تخويف أو ترتيل ، أو شرع مرسوم ، ولكنها معرفة حرة ، قائمة بذاتها فى الطريق الروحى .

إنها ثقافة عميقة ، قادرة على أن تحول الشك إلى اليقين ، وتسعى إلى تحقيق انسجام الروحانيات مع واقع الحياة ، من خلال المراقبة نفس ، والتجربة الحرة ، إنها دراسة وثقافة عالمية ، ترمى إلى تفتح العقول وإحياء القلوب ، مهما اختلفت الأديان ومهما تباعدت البلاد ، وتباينت اللغات ، شأنها فى ذلك شأن التصوف .

واليوجا تعترف بكل الأديان وتؤكدها وتحترمها ، غير أنها لا تتمسك بالسطحيات بل تغوص في الأعماق بحثا عن الدرر والجواهر ، وبذلك تخدم الأفراد مهما اختلفت الأديان ، وتخدم المجتمعات وإن تباينت عقائدها ، وتصحح المسار إلى المفهوم الذاتى ، وتعطى بيانا سليما يصل الفرد عن طريقه إلى المعرفة وإلى الكمال النفسى ، فوق أرض صلبة ، وأسس ثابتة لا مواربة فيها ، وبذلك انتشرت تعاليم اليوجا فى العالم الشرقى والغربى ، وفى الأمريكتين ، وأصبحت أفكارها محببة ، لأنها تؤكد التوحيد ، وتسلك السبيل عن طريق المعرفة الروحية إلى الحقيقة القصوى ، وإلى النهائية ، وإلى المطلق .

إنها ترفع الإنسان من دنياه السفلى ، إلى حقيقته العليا ، من أسفل سافلين

إلى أعلا علين ، إلى الكمال . . إنها تعاليم روحية ، لا شرقية ولا غربية ، تنير العقول ، وتضىء القلوب الغافلة .

إن فلسفة اليوجا كفلسفة التصوف ، ذات طابع عالمي ، إذا تابعها الهندى ، أو اليابانى ، أو الغربى ، أو الأمريكى ، أو العربى ، أصبح صاحب فكر وعقيدة عالمية ، وعرف أنه لا فرق بين أعجمى أو عربى إلا بالتقوى والصلاح ، ومكارم الأخلاق .

فالإنسان الكامل ، صفة وراء حدود الأديان ، والأشكال ، والعناصر ، والألوان ، والزمان والمكان ، هو إنسان الروح ، إنسان الله وعين معناه .

وكما يقول جهابزة التصوف ، يقول معلموا اليوجا الروحية ، أنها قارب النجاة ، يركبها المسلم ، والمسيحى ، واليهودى ، والبوذى ، والهندوكى ، والمجوسى ، فيصبح الكل فى قارب واحد ، هو قارب المعرفة ، يعبرون به من الجهالة إلى النور ، نور المعرفة .

فإذا ما وصل القارب إلى شاطىء النجاة سجد الجميع حمداً لله وشكراً ، فإذا هم مبصرون . . مبصرون لحقيقة أنفسهم ، أحاد متماثلة ، وأفراد متطابقة فى فلك الله ، لا فرق بين عربى وأعجمى ، روح واحدة تغمرهم ؟ وأرض واحدة تجمعهم ، وسماء واحدة تظلهم ، وهواء واحد يملأ صدورهم ، وغيب واحد ينتظرهم ، وهذه مثالية سفينة نوح من ركبها نجا .

الفصل الرابع

الكارما يوجا وعلم الأخلاق

إن علم الأخلاق هو أساسى فى تعاليم اليوجا ، كما هو أساس فى التصوف ، فالمعلم اليوجى يبدأ من حيث تبد الأخلاق فهو يعرف تلاميذه ما هو الصواب وما هو الخطأ ، ما هو الخير وما هو الشر . فتعاليم الكارما تبنى الإنسان الكامل ، ولبناء هذا الإنسان ، تضع الأساس السليم للاخلاقيات ، حتى يتخلق الإنسان بخلق الله ورسله .

فهى تزرع فى المريد ، الإنتباء والأينية ، وعلم الأخلاق ، والتزاوج مع الروح ، وتدفعه إلى البعد عن عمل الشر فى جميع صفاته ، والتمسك بالفضيلة فى جميع مراميها وهى تحرم تدريبات التنفس العميق والتأمل قبل الإلتزام بأخلاقيات الإنسان المحترمة ، لأن هذه التدريبات نوع من الإلتزام كالصلاة ، وهى ترفض القسوة والعنف فى المعاملات ، وتحرم السرقة فى جميع صفاتها ، والرشوة والإختلاس والنصب ، والتحايل، وإخفاء الأشياء المسروقة ، والحسد والتباغض وسرعة الغضب والحنق ، والاستغلال فى شتى صوره والتلاعب فى الكيل والميزان ، والغش التجارى فى شتى صـــوره والتغالى فى الأرباح ، وهى تعلم الزهد فى ملذات النفس ، ورغباتها الملحة ، وأطماعها ، إلى ما تجمعه قوانين الأخلاقيات ، شأنها فى ذلك شأن التصوف .

وبالرغم من أن الأخلاقيات هى الأساس فى فلسفة اليوجا إلا أنها تشرح الروحانيات ، وتتميز بإزكاء الروح ورقيها ، وذلك من خلال استنارة العقل ، وشفافية الجسد (حجاب الروح) وإذكاء الشعلة النورانية فى قلب الانسان ،

فيفطن إلى حقيقة نفسه ، ويعرف أنه قبضة من النور ، فيقف على ركيزة ثابتة فوق أرض الحقيقة ، أو فى عين معناها .

وفى كل هذا المطاف ، تكون الأخلاقيات ، هى القارب الذى يحمل المريد ليعبر من الظلمات إلى النور ، ومن الجهالة إلى المعرفة .

فإذا ما تخلى الانسان عن أنانيته وغروره ، ونفض عن روحه سترها ، وجهلها وحجابها ، وأصبح من العارفين ، فقد تمت حجته ، إلى بيت الله فى أرض حقيقته المقدسة ، إلى عرفات ، وسماؤها الملا . وهنا تكون نهاية الآلام ، ونهاية الشقاء ، ويبدأ الحب الحقيقى ، والانسجام بين الكائن والمكون والمكونات ، ويكمل الانسان،وبكماله يصبح حراً،وهذا ما يعبر عنه الصوفى بعتق الرقبة،أو كسب الحرية.

إن طريق خلاص الانسان هو فى رقى الروح ، ورقى الروح يحتاج إلى الفهم السليم ، وإلى المحبة .

والأساس الذى يقوم فيه الانسان لكسب هذا النجاح ، هو ارتفاع روح الانسان المعنوية . واليوجا طريق من الطرق الصوفية ، والقصد أو الفرض من إتباع هذه الطرق هو التحرر ، أى تحرير الجسد من عبودية الماده وتحرير الروح من عبوديتها لمطالب الجسد ، ومطالب الحياة التى لا تنتهى ، حتى يعيش الانسان فى هدوء وسلام نفسى، فى حالة اتزان بين الخير والشر، أى فى وعاء خير الأمور أوسطها ، وهذا لا يحدث إلا فى بحيرة المعرفة ، وأرض عرفات .

وعلى سبيل المثال جاء فى قصص القرآن ، فى قضية النبي موسى مع الخضر ، أن الله سبحانه وتعالى رأى أن نبيه موسى يحتاج الى المعرفة عن الخير والشر ، فأرسله إلى عبد من عباده العارفين بالكتاب — عبد من عبادنا علمناه علما — فصاحب موسى الخضر فى ثلاث تجارب غابت فيها الحقيقة عن النبى موسى ، ولكنها كانت واضحة فى علم الخضر ، فأعاب السفينة ، وقتل الغلام ، وأقام بناء

السور ، وانتقده موسى فى هذه التصرفات التى ظهرت بمظهر الشر وكان وراءها الخير ، وصدق من قال « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم . والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

بعض صفات الإنسان الكامل

إذا أردنا أن نعرف الإنسان الكامل ، فإننا لن نقيمه بقيم المجتمع الحاضر ، فهو بعيد كل البعد عن هذه الصفات . .

هل هو الإنسان الحر الأبى ؟ ومن منا الحر الأبى ! ! وهل هو الذى تحررت روحه من عبودية المادة ؟ ونحن فى عصر يعظم فيه الإنسان بقدر ما له من مال وجاه وسلطان ! ! إنما الإنسان الكامل هو الموصوف بأنه على خلق عظيم ، المؤدب الذى أحسن الله تأديبه ، ذو الأخلاق ، الذى لا ينهمك فى الملذات ، وهو بعيد كل البعد عن الفجـــور والخلاعة ، وكل ما هو مناف للشرف ولشريعة الله ، وهو لا يخدش شريعة المجتمع ، ولا يتطاول على الناس ، لأنهم قوم لا يعلمون .

وهو لا يخشى فى الحق لومة لائم ، ولا يهاب القصاص فى الحق ، ولا يرضى عن الحق بديلا ، ولا يهرب مهما كانت النتائج ، وهو الذى يرى الأمور من زواياها المختلفة ، ويراها من مركز العمق ، ومن مركز الحق . وهو يعيش فى الحق بالحق ، فهو زاده فى الدنيا ، طبيعته الإستقامة ، لا يؤذى مخلوق ، ولا يضر البشرية .

وهو لا يتأثر بأصحاب الجاه والسلطان ولا يخضع لضغوطهم إذا كان هو على الحق وفى طريق الحق ، وهو خادم القوم ، خادم المجتمع ، خادم البشرية ، دون أن يطلب لنفسه مكافأة ، أو حق ، ولا يريد جزاءا ولا شكورا ، بل هو فى خدمة الحياة أينما كانت ، فى عالم الانسان أو عالم الحيوان ، أو مملكة النبات ، دون أن يلتفت إلى شهرة ، أو ثناء ، أو إعلان عن نفسه ، بعيدا عن التركازية .

وهو فى هذا المجال من الخدمة كتوم ، حتى أن يده اليسرى لا تعرف ماتفعله اليداليمنى .

وهو يعرض الخدمات ، دون إجبار من أحد ، أو تعهد لأحد أو خدمة لأحد ، أو إلزام نفسى ، أو شوق لأداء معين ، أو رغبة فى إثابة ، أو عطاء ، أو طلبا لمثوبة .

فهو فى واقع الحال ، يفعل الخير للخير ومن أجل الخير ، دون سبق بحث أو فحص ، ولكنه يفعل الخير بطابع من نفسه الكريمة ، الأبية الحرة ، كلما وجده فى طريقه ، وفى متناوله ، فالخير قوته ، وتقواه فعل الخير محبة فى الله .

وهو يقدم الخير للاخرين ، ويساعد الكل دون إلزام من أحد ، أو رجاء . لا يهدأ له عيش ، إلا إذا شارك الناس وقدم المعونة ، بالنفس والمال ، والجهد والعرق .

يحنو على الحيوان الضعيف والمريض ، كما يحنوا على الانسان ، شفقة من قلبه دون إلزام ، أو وجوب ، ولكنه فعال للخير حبا فى فعل الخير وهذه الفضائل هى نبع دافق من نفسه ، هى العطاء الذاتى ، وبذل النفس فى سبل الغير ، فهو واضح كالشمس الساطعة تعطى الدفء والنور والحياة للعالم أجمع ، دون تميز بين جنس أو لون ، وهو بائع عطر كالوردة يفوح عبيرها فيعبق المكان .

وهذا الانسان الكامل لا يتقيد بالقوانين الوضعية لأنه هو قانون قائم بذاته ، أما القوانين الوضعية فهى شرعت للناس ذوى الميول الغادرة والطبائع الهدامة ، والأنفس المشاكسه ، حتى تصلح من أحوالها بالتخويف والترهيب والزجر لصلاح المجتمع ، فى طريقه إلى التطور الخلاق ، فى طريق الكمال .

وتختلف القوانين ، باختلاف البيئة ، والمكان ، والزمان ، ومقدار الرقى ،

فالحاكم الحصيف لا يضع القوانين دون الرجوع إلى حالة الناس والمجتمع ، ودوافعه، ورغباته ، ومقتضيات الظروف والأحوال فى الزمان والمكان .

والانسان الكامل ، يحترم القانون ، لا خوفا من العقاب ، ولكن عن رؤية صحيحة ، فهو بعيد عن الخطأ الذى يدخله تحت طائلة القانون ، ولكنه يتبع الأصول نبعاً من كماله ونبعاً من ذاته ، فهو إنسان متحاب يعيش بالحب مع الناس وللناس ، ويذوب فى المجتمع ، كما تذوب قطعة السكر فى كوب من اللبن ومع هذا فهو لا يتقيد بنظام خاص ، ولا يسلك سلوكا رسميا فى معاملاته مع الناس ، أو فى نظام حياته .

وهو لا يحفل بذوى المناصب الكبيرة ، وذوى النفوذ ، بل قد يثور أمامهم دفاعاً عن الحق .

وقد يتهمه المجتمع ، أو ينقده الناقدون لخروجه عن حالة المجتمع ، وفى الحقيقة ، يكون حال المجتمع من الفساد بحيث تختلط الرؤيا الصحيحة على النقاد .

والأمثلة على ذلك كثيرة فى الحياة ، وقد جاء فى قصص القرآن ما يؤكد ذلك فى قصة نوح وقومه ، ولوط وقومه ، والمسيح واليهود ، والرسول صلى الله عليه وسلم ، وما عاناه من أكابر قريش وأغنياء مكة الخ .

وفى النهاية ، يتضح للناس صدق ما جاء به هؤلاء الكمل من البشر ، وما كانوا عليه من علم وفهم ومعرفة وكمال . .

وبعد انتقال أمثال هؤلاء العظماء من حياتهم الدنيوية ، يزداد إقبال الناس على ما تركوه من ذخيرة علمية . ويزداد تقديس الناس لهم . أما فى البدء فغالبا ما يكون هذا الانسان ، فى موضع النقد من المجتمع ، وفى النهاية يتضح أمره ، ويصبح مصلحا إجتماعياً ويحترمه النقاد الذين كانوا يهاجمونه ، بعد أن تتضح الصورة أمامهم .

عندما يخالف إنسان عادى ، عادة من عادات المجتمع فالمجتمع يحاسبه حسابا عسيرا ، وعندما يخرج إنسان على سياسة بلده ، فإن الدولة تحاسبه وتتهمه ، وتقدمه للمحاكمة أو تعتقله ، وبالرغم من أن المجتمع فى مكان آخر وعلى نفس هذه الأرض ، يعيش فى ظل تلك العوائد ، أو النظم السياسية المخالفة .

ولكن إذا خالف إنسان شهير مثل غاندى ، عادة من عادات المجتمع الهندى ، وتناول الغذاء مع واحد من طبقة المنبوذين ، أو تصدى لقانون الملح الذى وضعه الاحتلال البريطانى ، فإن المجتمع ينظر إلى هذا العمل بأسلوب آخر ، ويحتاج إلى وقفة تأمل قبل أن يصدر حكمه ، ولكى نصدر حكما صحيحاً على إنسان ، يجب أن نكون على معرفة أعمق منه ، وعلى علم سليم .

وإذا عدنا إلى عصر سقراط ولوط وبوذا لرأينا كيف كان المجتمع يسخر منهم بغير علم ، وإذا تأملنا فيما صادفه الأنبياء العظام ، مثل ابراهيم وعيسى ومحمد عليهم أفضل السلام ، لراعنا ما صادفهم من عذاب وعتاب ونقد وتكذيب حتى أن المجتمع وصفهم بالجنون والهوس .

ثم تمضى الأيام فيظهر للناس نبوغهم وصدق حدثهم وعظمتهم ، فتمجدهم الأجيال على مر الزمن ، وتبقى أعمالهم العظيمة خالدة خلود الحياة . .

وفى الحقيقة أن الانسان الكامل ، غالبا ما يكون فوق مستوى المسئولية ، لأنه بعيد عما تسميه بالخير والشر ، فالخير والشر نظرة إجتماعية موضوعية ، فالخير فى مكان قد يكون شرا فى مكان آخر ، والشر فى موضع قد يكون خيرا فى موضع آخر ، وقد يبدو الخير فى وجه من وجوه الحياة ، وهو يخفى الشر فى الوجه الآخر ، والانسان الكامل فوق شكليات الخير والشر ، لأنه تسامى فوق الخصام والنزاع والجذب والشد ، وأصبحت طبيعته بيضاء صافية .

وطالما أن الانسان يتنازع فى نفسه بين الانفعال والعقل ، فهو أحيانا يحكم

العقل ويتبع طريق الاستدلال والاستنتاج ، ثم ينفعل بالأحداث ثم يعود إلى الاستقراء والاستنباط ، ويتأرجح بين حاجات الجسم وطبيعة الروح ، ثم يباين بين أحكام القانون ، ودوافع العقل ، وثورات الفكر ويتدانى من النفس العليا إلى النفس السفلى ، فهو فى ثورة أخلاقية ، وهو حائر فى دائرة المعرفة .

فاذا ما تمكن من الخروج من هذه الدائرة ، ونجح فى تقيم نفسه ، ومعرفة ذاته ، والتحكم فى شخصيته ، والاقلال من طموح النفس وثورتها ، وتكاملت فرديته مع كلية الوجود ، فانه يخرج من دائرة الشك إلى دائرة اليقين ، ويرتفع على مستوى النزاع بين عوامل الخير والشر فى نفسه وفى أعماله ، ويصبح ذاتا متكاملة ويعيش ويعمل فى حرية تامة ، بما تمليه عليه دخيلة نفسه ، فهو يعمل من ذاته العليا ومن باطنه المستنير .

إن الفضيلة متأصلة فى أعماق الانسان ، فالطفل يولد فى أدب ونزاهة ،ولكن عوامل الاغواء والاغراء والخداع فيما حوله يغير من طبيعته الوديعة إلى الوان من الإثم والخداع فيتشرب بالايحاء الذى ينشأ فيه فيكمن فى أعماق الوعى، ثم يظهر عندما تدفعه الظروف إلى ذلك ، وتصبح الفضيلة مطلباً بعد أن كانت أساساً . إن فى طبيعة الروح الكمال،ولكن خداع النفس، وخواطرها ورغباتها، تغير القانون وتحوله إلى مطالب مضادة ، وتصبح الفضيلة التى كانت صفة أصيلة ، صفة نادرة .

وبالمثل كانت الروح والنفس متحابتان متكاملتان ، وتدخلت الإنية ففصلت بينهما ، وظهر حب التسلط فى الانسانية ، فتفجرت منابع الحقد والعنصرية ، والتقاتل فى سبيل أهواء النفس وأصبح مطلب الدين هو الدعوى إلى الأخلاق الحميدة ، وأصبحت الأخلاق الطيبة تابعاً للسلوك الروحى .

وأصبح من ألزم الأمور للسالك فى الطريق الروحى ، أن يتخلى عن أنانيته ، وأن يكون خادماً للمجتمع ، وهذه الخدمة هى أساس إلزامى للسالك الروحى ،

يكون فيها حازماً إلى حد الصرامة ، دون شرط ، أو مطلب بديل ، فهو خادم لجاره محب له ، بل هو خادم للانسانية ككل ، ويعتبر ذلك أمراً إلهياً واجب التنفيذ . وكلما تعمق فى سلوكه فى طريق الكمال ، أصبح خادماً لله ، وخادم الله هو خادم عباد الله ، فهو خادم لله فى خلق الله ، فسعادته فى الدنيا هو أداء الخدمة للناس ، وهو يسعد كلما أطعم حيوان أو أدى خدمة للمجتمع فى أى شكل من أشكال العمل ، وتصبح الخدمة صفة من صفاته ، فى أى مكان ، أو زمان ، وكلما زادت محبته لله ، كلما زاد حبه للمجتمع ، وخدمة المجتمع ، ومحبته هى تعبير عن الحب الإلاهى ، فكيف يحب الله وهو لا يعرفه ولا يراه إلا فى آياته ، وفى كلماته . . وكلما تكاملت شخصيته كلما زادت تضحياته فى سبيل الخير ، حتى يصبح الرحمة المهداة ، فى عين معناه ، والمركز النورانى . . .

وإذا نظرنا إلى الفلسفات القديمة التى ظهرت على مر التاريخ ، وجدناها الآن فى حالة ركود ، وذلك بسبب طغيان الحياة المادية على الناس ، ففقد المجتمع كنوزا زاخرة أصبحت دفينة فى عالم الهجر والنسيان .

إلا أن بعض الكتاب النابهين يقومون من وقت إلى آخر ، لإبراز بعض تلك المناهج القويمة للحياة .

وقد ظهرت فى العصر الحديث فلسفة اليوجا من جديد والتى كانت قد أندثرت لتعرف الناس عن هذه الفلسفة العميقة الجذور منذ القدم ، والتى تبرز الكثير من صفات الإنسان المثالى .

وفلسفة اليوجا فلسفة تصوفية ، تبرز الأخلاقيات والمثل العليا ، دون أن تتدخل فى شكليات الدين ، أو فى صفات المطلق ، وبالرغم من ذلك فهى تحترم كل تنظيم دينى وتشريعه ، وتحترم المفهوم السليم عن المطلق ، وهى تدعوا إلى الأخلاقيات التى ترمى إلى إصلاح الإنسان والمجتمع فى طريق الوصول إلى الكمال .

واليوجا تسعى لإصلاح الانسان بشقيه الجسدى والمعنوى فلها نظامها الحكيم فى تدريب الجسم ، تدريبات محكمة ، من شأنها إصلاح الصحة العامة ، ورفع مستوى الفكر بالتركيز والتأمل ، وإطلاق الروح بتهذيب النفس فى شتى صورها . حتى تعيش النفس فى ظل قوانين الحياة السليمة .

ومن المبادىء الأولية لحسن سير المجتمع ، إن ينشأ فى ظل قانون عادل ، وحاكم محبوب ومرغوب من الشعب . وأن الضبط ، والربط ، والنظام ، والجذاء ، والعقاب مور لازمة فى حياة البشر ، للسير إلى الكمال .

وأن الحكومات الراقية ، هى التى تحافظ على مصالح أفرادها . وتعطى كل ذى حق حقه ، وهى التى تعمل على حماية الانسان من معوقات النمو .

وأن النمو الحقيقى للمجتمع ينبع من نضج أخلاقيات أفراده ، وليس من القهر والتخويف ، وفرض القوانين الصارمة .

الفصل الخامس

إرتباط اليوجا بالفلسفة والفكر

اليوجا كمنهج تصوفى ، قائمة على نظم خاصة وأخلاقيات . فهى تنظر إلى الأديان نظرة احترام وتبجيل ، وترتفع فى منهاجها إلى مفهوم صوفى .

فاليوجا التى ترعى الجسم ، قائمة على تدريبات منظمة ، دقيقة وهادئة وهادفة ، وذات استمرارية ، وكأنها منهج صلاة ونسك .

واليوجا التى ترعى العقل ، تحكمه بالفضائل ، ومكارم الأخلاق ، وهى ترعى النفس البشرية وتشرح مكوناتها وصفاتها ونوازعها ، حتى يتعرف الانسان على نفسه ، من خلال مراقبتها ، وتشرح مستويات النفس فى كل إنسان ، فلكل إنسان مستواه فى المعرفه ، ومستواه فى السلوك ، ومستواه فى الفكر ، ولكل إنسان فرديته ، وصفاته ، ونوازعه ، وسيكلوجيته التى تنبع من أعماقه .

واليوجا تبحث فى الغيبيات ، بعيدة عن التصورات العقلية ، وإنما تدخل عن طريق القلب واللب ، والفكر المتسامى ، وتغوص فى أعماق الذات بحثا عن الحقيقة .

وفلسفة اليوجا ، بعيدة عن الفلسفة السفسطائية ، التى تضيع الوقت ، وإنما هى تشرح منهاجا عمليا وتضع أفكارا وتدريبات مختلفة لينتقى منها كل فرد ما يناسبه ، لنمو شخصيته وتكوين ذاتيته

واليوجا لا تعتبر نفسها الهدف الوحيد والنهائى ، فى فلسفة الحياة ، بالرغم من

أنها تحتوى على تدريبات منوعة ، فهى لا تجبر مريديها على أن يتمسكوا بها وحدها كطريق فى الحياة .

والحقيقة أن الحياة أمر واقع ، وفعل وعمل وجهد ، فهى ليست عابرة وتصورية ، فالدنيا مدرسة ، ومزرعة لما بعدها من تطور ، وليست الفلسفة أساس فى الحياة . إلا أن الحياة فى عراكها ونضالها وتطاحنها ، تحتاج إلى مذاهب عقائدية تشدها من وجوديتها . أما أن يعيش الناس فى ظل نظام عقائدى أو دينى مطلق فهو أمر غير ضرورى فى فلسفة اليوجا .

والأمر الحيوى لنمو البشر ، هو الاعتدال بين الحقيقة الغيبية ، والوجودية المادية ، وأن يكون الانسان صادقاً مع نفسه وصادقاً مع المجتمع .

والفلسفة الجادة ، هى التى ينبع منها نظام ، يؤدى إلى نمو البشرية ، وثقل الذات الانسانية ، عن طريق المعرفة الجادة .

ولما كانت ذوات الناس مختلفة ، وصفاتهم متباينة ، ومجتمعاتهم متباعدة ، ظهرت الأديان بمظهر مختلف شكلا ، متفق فى العمق ، وظهرت تبعاً لذلك فلسفات مختلفة ، تبلور الحياة ، وتشرح المعاملات ، وتؤكد ذات الانسان .

ومن بين هذه الفلسفات ظهرت اليوجا ، وفى الحقيقة هى ليست نوع خاص من الفلسفة ، بل تحتوى على شىء من الفلسفة ، وهى تسمو بها إلى علم بنـــاء الانسان ورقيه .

وإذا ما تغلغلت فلسفة اليوجا ، ونظامها ، فى قلب إنسان لعبت دورا ممتازا فى إظهار خفايا قدراته . وإذا ما عرف نهاية المطاف تجاوز الحدود الفلسفية ، وأصبح مدعما طوال حياته ، ومستقرا مع نفسه ومتجاوباً مع الغير ، وبذلك تكون اليوجا نوع من السلوك المناسب الذى يوافق أغلبية من الناس ، وهذا بخلاف

أى فلسفة أخرى متزمتة ، تحدد السلوك الانسانى فى طريق تزمتى صلب . وقد تظهر فلسفة اليوجا لمن لا يعرفها شيء من الغموض أو العبث ، أو التعبير المقلى المجهول والمشروط ، وهذا ما يبدو فى سلوك بعض اليوجيين فى المجتمعات المختلفة ، أو فى سرد سيرهم القديمة .

والحقيقة غير هذا ، فمظهر الطعام قد يوحى لنا بفكرة ما ، ولكن تذوقه يعطى الحقيقة .

إن النتائج السريعة التى تعطيها فلسفة اليوجا ، وتدريباتها مطلقة بغير حدود ، ولها صدارتها وسيادتها على مختلف المناهج التهذيبية ، فترى روادها سريعى التأقلم مع المجتمع والبيئة ، فى كياسة وظرف وهدوء ، ومشاركة فعالة نابعة من أعماقهم الروحية النقية دون حقد أو حسد أو غيرة أو ضغينة .

وهى فلسفة واسعة الانتشار فى العالم ، بفضل ما تقدمه من مساعدات ، وملاحظات ، ومقارنات ، وهى توثق العلاقات بين محبيها ، وبين مختلف الفلسفات الأخرى ، والديانات المختلفة ، والروحانيات ، ولها دور بناء فى خلق إنسان متوازن ، ومتوائم مع كافة الدراسات العلمية ، واللاهوتية ، والشعور بالجمال أينما ولى الانسان وجهه ، لأنها تخلق فى الانسان التأمل والصفاء ، والوجودية القائمة على نقاء السريرة .

وفى ختام هذا الفصل أود أن أضيف كلمة حق ، أن اليوجا هى فلسفة أخلاق ، كما أنها تفسر غوامض الأمور الروحية ، وتعرفنا ما هو الباطن وراء الانسان ، فإذا ما عرفناه تحررنا ، أو بمعنى آخر تحررت أرواحنا ، ذلك أن اليوجا جمعت فى إطارها الفلسفة ، والأخلاق ، والمعرفة الغيبية ، والعمل الدنيوى كواجب ، وتحرير الروح القائم فى الانسان لاستكمال السيرة .

إنه من الصعوبة بمكان ، أن نرى حقيقة اتحاد الغيب بالكائنات ، وذهبت الأخلاقيات ، ومذاهب التصوف مذاهب شتى ، ولاحظنا أن الإنسان الذى بلغ درجات من المعرفة ، وأصبح متحررا ، يتصرف تصرفات يعتبرها المجتمع خروجا عن الدين وعن العرف السائد ، بالرغم من الحب الظاهر للانسان وللخالق ، وهذا هو الحال كلما ظهر معلم أو عارف بالله ، إنه لا يلتزم بما هو سائد فى المجتمع ، ويختلف مع بعض رجال الدين من المتمسكين بالشكليات والحرفيات ، ولكنه يتصرف بوحى من أنوار معرفته وكشفه .

إن البحث عن الحقيقة ، يفوق كل بحث عن العلوم المادية ، والعقلانيات ، والعلوم السياسيه ، والعلوم الإنسانية ، والسلوكيات ، والمذهب الواقعى ، والاستعلائى الذى يدلل على أن للعالم علة خارجة عنه .

والإنسان المتحرر ، يرى أن كل هذه الفلسفات ، تعبر عن الحقيقة فى حجمها الكلى ، والمتعدد الرؤية ، وكل منها هام من وجهة النظر الخاصة به ولكنها وحدها لا تكفى للتعبير عن كل الحقيقة ، لأنه ليس للمعرفة حدود ، وعلى ذلك يمكننا القول بأنه لا مبرر للحيرة ، ولا مسوغ للتضارب .

ويرى بعض الناس أن فلسفة اليوجا ، نوع من مراقبة النفس فى أسلوب أسطورى قديم لا يناسب الحياة فى العصر الحديث . إلا أن اليوجى يختار من أنواع اليوجا ، ما يراه متفقا مع ميوله ، وما يجدد به أفكاره ، ويملأ فراغ الحياة ، ويعتبرها نوع من الهوايات ، التى تعيد إليه شبابه ، وتعيد إليه نشاطه الفكرى ، وتبعث فيه المعرفة الروحية .

فاليوجا إذاً فلسفة متكاملة وطريق فى الحياة له جماله ، وقيمته ، وفوائده ، الكثيرة فى خلق إنسان قوى الإرادة ، متكامل الشخصية ، متجاوب مع الناس ومع البيئة ، لا تجند له الأنواء ، ولا تهزه منغصات الحياة ، لأنها تصحح المسار

النسق وتجعل الإنسان حاضر البديهة ، لماح الذهن ، ذو معرفة عن الغيبيات والباطن ، وبذلك يمضى فى الحياة قدما بنظرة فلسفية متسامية ، وبذلك يراقب أمور الحياة ، ويراقب نفسه ، بالرغم من انهماكه فى معترك الحياة ، كإنسان كادح ونشيط .

وبذلك نرى أنها فلسفة معاصرة للفكر فى كل زمان ، وذات مبادىء قويمة ، ونعتبر قمة فى الأخلاقيات والصحة النفسية .

الفصل السادس

اليوجا وعلم النفس

إن علم النفس من العلوم التجريبية الحديثة ، التى تبحث فى العقل والنفس ، وقد كشف الكثير من خبايا العقل وقدراته ونوازعه ، بالمراقبة ، والتحليل والتجربة .

واليوجا سبقت علم النفس منذ القدم ، فهى تبحث خفايا النفس ، والروح والعقل ، تم نبنى الإنسان كوحدة كاملة ، وشخصية متماسكة ، بالتركيز على تحسين صحة الجسم ، والغدد ، والبحث فى العقل ودوافعه ، وما وراء العقل من نظريات واليوجا كعلم ، فهى تشرح النفس ككل أما من الناحية الفنية فهى طريق معرفة وتدريب لإنماء الشخصية وتكاملها . والنفس فى مفهوم اليوجا تشتمل على عدة أبعاد وحقائق ومن بين هذه الحقائق الوعى الفكرى بشقيه — العقل الباطن والعقل الواعى — كوحدة واحدة ، وهو ما يسمى بالجسم العقلى ، أو الذات العاقلة وكما سماها الدكتور بيتورين Pitirine A, sorakin الأنا العليا » .

وهذه الأنا العليا فى الإنسان غير قابلة للتعريف ، وغير مدركة ومنيعة لايمكن وضعها تحت الملاحظة أو تحليلها ، ولكن يمكن مراقبتها فى صدق من متابعة الحياة . واليوجا كالتصوف تركز على متابعة الحياة ، ومراقبة السلوك الإنسانى ، حتى يحوز الإنسان المعرفة ، لنقل نفسه من خلال المتابعة والتواؤم مع الطبيعة ، وديناميكية الأنا العليا الفاعلة فى الكون ، والتوحيد عن طريق الفناء فى الله والبقاء بالله .

إن أسلوب اليوجا فى البحث العلمى ، يشمل الاستبطان وهو فحص وتمحيص بواطن الأشياء ، ومنها مراقبة النفس ، وفوق ذلك تشتمل على فن الاستملاء ، وهى تدريبات خاصة لبلوغ الشفافية والسمو الروحى ، ومن ناحية أخرى ، تستهدف تدريبات فسيولوجية وسيكولوجية ، ولزيادة طاقة الانسان لملاقاة المفاجآت والتغلب على شدة حاسيات النفس ، وشدة الغيرة فى الحب ، وضبط الأفعال الغير إرادية أو التخلص منها ، ويتوج هذه المعارف السلام النفسى ، والاسترخاء التام وكل هذه الصفات تعتبر قمة لا يصل إليها العلاج السيكولوجى (إرجع إلى كتابنا اليوجا ينبوع للسعادة) وقد نظهر اليوجا وكأنها دراسات فى الغيبيات أو المجهول ، بالنسبة لدراسات علم النفس ، وذلك لأنها تتكلم عن الأنا العليا ، أو ما فوق العقل ، وتبحث فى صفات النفس النقية (Atman) ، والاتحاد مع الله (الترفانا والسمادى) وما أشبه بذلك .

أليست هذه الدراسات الفلسفية تعلو فوق علم النفس التجريبى ؟

إن بعض الحقائق والآراء اليوجية ، تفوق ، دون شك ، علم النفس لأنها تبحث فى المدركات الخارجية ، كما أنها توغل البحث فى ملاحظة الأحاسيس ، والاستبطان وليس معنى هذا أن هذه العلوم ليست تجريبية واختبارية ، إنها علوم تعريفية ، ووصفية ناتجة عن مراقبة النفس بالتغلغل فى أعماق الشخصية ، وهذا المستوى أعمق من المعرفة السيكلوجية ، وهذا ما توصل إليه كل من تمرس وتأهل وتدرب فى فلسفة اليوجا ، وليست الوجودية أو غيرها من الفلسفات الحديثة إلا نبع من تلك الدراسات العظيمة من اليوجا .

وأنه من المحزن حقا أن يعتقد البعض أن حقائق اليوجا وهم وخيال ، أو يفسرها البعض بأنها من المذاهب الغامضة التى يجلس فيها اليوجى متضرعاً ومتأملا ، أو متخذا وضعاً شاذا ، وإنى أقول لهؤلاء السادة ، أن عليكم الاطلاع بدقة ، والبحث فى

أفكار اليوجا ، وممارستها وتذوقها قبل إبداء الرأى من فراغ ، واليوجا فى مجموعها هى فن الحياة والمعرفة ، ومقاومة الوساوس التسلطية (وإرجع إلى كتابنا اليوجا علاج وشفاء) .

إن العقل البشرى عطاء عظيم ، لا يسهل تقسيمه وتحليله إلى حقائق ثابتة ، كما أنه لا يمكن تجسيمه أو إلزامه بصورة مثالية ، أو معاملته كروح ، وهو لا يتبع نظام أخلاقى محدد ، ولا تعطينا الاتجاهات العقلية مفتاح حقيقته .

إنه فى الواقع طاقة خفية غزيرة المعرفة ، طموحه ، متطلعة ، قادرة على الايجاد والخلق ، فى حرية تامة ، ويوحى إليها من أمر غير منظور .

وتقول علوم اليوجا أن الطريق إلى المعرفة الروحية ومعرفة النفس البشرية لا يكتسب بمجرد تطبيق النظريات العلمية ، ولكن هذه للمعرفة تتطلب فحص كامل للحياة اليومية ، لزيادة نمو العقل ، وظهور الوعى والبصيرة . فالمعرفة مصاحبة للحياة ، وللوجود الانسانى ، والوجود لا يفترق عن المعرفة ، فهما توأمان متلازمان.

ويقول الدكتور إندراوس Dr.indra.sen إن فلسفة اليوجا ، تحتوى ، على علوم سيكلوجية تعرف واقع الحياة من خلال الفحص العقلى ، وهى أيضاً تدرس الغيبيات كمفهوم له علاقة بالوجود ، وبالقياس إلى المشاهدات العقلية ، وفى جملة القول هى علم الحياة والواقع والممكن .

أما العلوم السيكولوجية الغربية ، فهى علوم تجريبية عن النفس فى حالة الانتباه وفى حالة فقد الوعى أو الهروب ، ويدخل فى علاجها التنويم المغناطيسى تحت سيطرة الطبيب ، فإذا فقد المريض هذه السيطرة عاد إلى سابق مرضه .أما سيكلوجية اليوجا فهى عملية تعتمد على مشاركة المريض للمعالج فى المفهوم السيكلوجى ، واستيعاب الحقائق السيكلوجية بفهم ومشاركة لخلق بناء جديد ، ونمو فى الشخصية ، يزداد مع الشخصية القوية بالتمثيل ثم الاندماج ، فى صفات : القوة ،

والشجاعة ، والعمل البناء فى المجتمع الذى يكون فيه الشخص عضوا عاملا وناجحاً ، بفضل إذكاء الروح ، والاعتماد على النفس .

والانسان الذى يدرب نفسه يومياً على هذه الصفات ، ويشارك فى الحياة العامة بإخلاص ، سوف يضفى على حياته ضوءاً من النور الذى يهديه ، ويحل له الكثير من المشاكل التى تصادفه فى حياته لأن فلسفة اليوجا من الجانب السيكلوجى ، تغوص فى أعماق النفس وتزرع فيها المبادىء السامية ، ومقومات النجاح ، كما أنها لديها الوسائل المختلفة للتحليل النفسى ، كما سبق ذكره فى كتاب « اليوجا ينبوع السعادة ، « واليوجا والشباب الدائم » ، وفى قول أخير أقول أن اليوجا هى فن معرفة النفس ، من خلال الملاحظة وقوة التركيز التى تسيطر على العقل لكى يعمل دون الشرود هنا وهناك ، حتى يستخلص الانسان زبدة العمل ، ويعيش حياته فى أبهج وجودها ، قوياً واعياً بنفسه ، شاعرا بذاته .

الفصل السابع

اليوجا والمذهب الباطنى التصوف

الباطن كلمة تعنى الكثير ، فهى تعنى كل ما هو خفى وكل ما هو مكنون وسرى ، ومحجوب ، وأهل الباطن يقولون أنه علم الاتحاد مع الأعلا ، أو الفناء فى الله .

وعلم الباطن فى اسمى مراميه ، هو معرفه الإنسان لحقيقته ، فمن عرف نفسه فقد عرف ربه ، ومن يعلم علم اليقين عن جوهر ذاته الحقيقية فقد حقق معرفة حقيقة الوجود ، وسواء سمينا هذه الحقيقة الله ، أو الروح الأعظم . أو النفس النقية ، أو الذات ، أو الطبيعة أو الوجود ، أو السكون ، أو الصفاء ، أو الكامل أو السر الأعظم ، فكلها أسماء سميناها .

غير أن المذهب الباطنى ، لا يضمن تنسيبنا قاطعا يسير فيه المريد ، فيصل إلى تحقيق الذات تحقيقا كاملا فأهل الباطن كثيراً ما يتعثرون فى طريقهم المحفوف بالضرائب والمخاطر .

والمذهب الباطنى لا يهيىء تدريبا فنيا خاصا يتمسك به المريد ، لأن لكل انسان نوعيته ومستواه العقلي وخصائصه ، وليس هناك نظاما معينا أو معاملة خاصة مع أهل الظاهر فلكل فرد أحاسيسه ، وحالالته المتوبة ، ومشاعره .

وكما يقول الصوفية ، لله طرائق بقدر عدد الخلائق

والمعروف أن اليوجا توقظ الإيمان القائم فى كل نفس ، باستخدام وسائل فعالة ، وتدريبات خاصة ، إذا اتبعها الإنسان بدقة واستمرارية ، فإنه يصل حتما إلى

الصفاء والنقاء والمعرفة ، لتحقيق ذاته ومعرفة نفسه فتشرق روحه ويعرف مملكته وعالمه الحقيقي ، وبهذه المعرفة يسير فى الحياة بمنطق سليم ، ومفهوم عام فيوازن علاقاته مع المجتمع ، على المفهوم الغيبي ، وكما يقول الصوفى الظاهر مرآة الباطن.

وكثيراً ما نرى أهل الباطن يمارضون مانعتقده سليما أو نراه طبيعيا ومعقولا ذلك أن بصيرتهم النفاذة ترى مالا يراه الشخص العادى ، فيقومون بأعمال غريبه لايقرها المنطق السائد فى المجتمع ، وكلنا يعرف قصة سيدنا الخضر مع النبى موسى فى المرحلة التعليمية للنبي موسى ، حينما شاهده يتلف السفينه ، ثم يقتل الطفل ويبنى الجدار لقوم رفضوا إطعامه وشرابه ، فقدغابت عن موسى الرؤيا الباطنه ، حتى شرحها له سيدنا الخضر الذى كان يرى ببصيرته .

واليوجى الواصل (الكامل المعرفة) يعيش حياته ، متكامل الشخصية ، فى سلام ورضا ، يعمل فى الحياة بنجاح وصدق ومحبة ، لايضيره من ضل ، يعمل بعزيمة صادقه (أولى العزم) ، وهو عاطفى المظهر وفى خدمة الحق .

واليوجا لاتعترف بالسفسطائية ، ولكنها تقدر الفلسفه البناءة والمنطق السليم وتعتبرهما من الوسائل المساعـــدة فى الطريق إلى التكامل النفسى ، وهى بذلك تتجانس مع الصوفية .

إن تحقيق النفس بالسلوك اليوجى ؛ ليس هو بالطريق السلبى فى الحياة ، أو انكار الذات ، أو الذهد النافى للحياة ، بل هو العمل الجاد لكمال العقل والفهم السليم لحقيقة وحـــود الإنسان ، باستخدام العقل لمراقبة التنفس ، وإبراز ذاتية الأنسان ووجوده الحر .

وعندما يتكامل الفهم اليوجى ، ويحدث الاستضواء الداخلى ، وتبرز البصيرة بعمق ، تصبح اليوجا عامل خلاق فى حياة الإنسان ، ويظهر التكامل والتوافق مع الكائنات والوجود ككل ، وتنبع الحكمة ، ويغمر الحب قلب الانسان ، فيعيش فى جنة الدنيا يتبوأ منها كيف يشاء .

إن الذي يتخذ اليوجا سبيلة فى الحياة ، يزداد حـــدقه ومهارته ، لأنه يتعلم الصدق فى أداء الواجب وهو يعمل بمفهوم وعيه الروحى ومركز وجوده ، فى النفس الواحده ، فهو منسجم مع أخيه الإنسان مهما اختلف لونه أو دينه ويتعاطف مع عالم الحيوان ، ويتوائم مع عالم النبات والطبيعة ، ذلك أنه فى حالة إتزان عقلى واتحاد كلى ، إنه يشترك فى الحياة على اسس وفهم للوجودية السليمة والمحبة الخالصة أنه يعيش فى العالم المادى ولكنه فى عشق روحى مـــع الحقيقه ، رجال لاتلهيهم تجارة أو بيع عن ذكر الله ، كما يقول القرآن الكريم .

وكلما جلس اليوجي فى جلسات التأمل استنار عقله بعمق المعرفة ، ونبت الحب فى قلبه ، وعرف نفسه ، وعرف حقيقه الوجود ، وهو يكتسب طاقات هائله للنجاح فى الحياة ، التى يعتبرها مدرسة جامعة للعلوم الانسانية ليرجع إلى خالقه من حيث بدأ فى معراج المعرفة ... واليوجى المستنير يؤدى عمله بأمانه واخلاص ، ومحبة واتقان ، وهو يعرف أن هذا هو الواجب الأول لوجوده .

وتعرفنا اليوجا التقليدية ، إن هناك ظاهر وباطن للوجود ، فالظاهر وإن بدى متفرقا ومختلفا ، إلا أنه وحـــدة واحدة تكمل بعضها البعض كالبنيان يشد بعضه بعضا ، والباطن هو أحدية الوجود . ويجمع الكل قانون شامل ، تقوم اعمدة عرشه على الحب ، وتكريس النفس لعمل الخير والخدمة ... إن هدف اليوجى المستنير والصوفى ، هو الإتحاد مع الحقيقة (الله) وهـــذا الإتحاذ إما أن يكون اتحادا ثابتا ، أو اتحادا ديناميكيا ، اتحادا جزئيا أو كليا .

فإذا كان الارتباط فى دائرة النفس ، وهو ما يعرف بالزهد والنسك ، اتخذ الناسك له مكانا يتعبد فيه بعيدا عن المجتمع ، فى غار أو غاب أو بعيدا على شاطىء الماء ويتفرغ للتعبد والتأمل والتهجد ، ضاربا بالزمن والأيام عرض الحائط ، فهو يحيا بغير زمن ودنيا ، وهذا هو الأتحاد الثابت ، فإذا استنار قلبه ، واستضاء عقله ، وعرف الحكمة ، مات عن نفسه ، وقام بنور البصيرة ، ونزل نزلة أخرى ، يقوم بين الناس معلما .

وإذا كان العارف بالله ؛ يعيش مع المجتمع ، ويتفاعل معه ، وهو فى حالة وعى كامل بالوجود ، ويعنى الحياة ، وهو يعرف أبدية الوجود ، ويعرف وجه الكون ويتعامل مع الوجود المادى ككل شامل فى رحاب الخالق ، وفى قبضة قوته وبين أيادى رحمته ، ومع وجوده فى هذا الخضم المادى فقد تحرر وعتق رقبته وتخلص من عبودية الجسد ، وأصبح نفسا نقية ، لاتلهيه تجارة أو بيع ، أوعمل دنيوى عن ذكر الله ، لأنه أصبح روحا نقية طاهرة ، وأصبح كلمة طيبة كشجرة طيبه أصلها ثابت وفرعها فى السماء .

هذا العارف هو فى الاتحاد الديناميكى والذى يعبر عنه العارف بالله ولاتنس نصيبك من الدنيا ! ؟

يعمل فى الدنيا كانه يعيش أبدا ويعمل للاخرة كأنه يموت غدا ، أنه حر أبى ، ونفس تقية ، لاتعمل الا كل خير وتشارك فى كل جهد للخير من أجل الحياة ورفعة الحياة ، وتطور الحياة إلى مراد الخالق بها .

هذا الإنسان العارف بالله ، يعيش الدنيا فى سبق مع الزمن ، يجعل من الأرض كفانة ومزرعة للاخرة ؛ بل هو يحصد للاخرة فى الدنيا ، فهو يعمل بعقل متفتح ووعى سليم ، وقلب مؤمن ، تنبض ضرباته فى مملكة السماء ، وهـــو يعمل فى الأرض ؛ لكى تصبح الحياة الدنيا جنة قـــون الأرض ؛ يتبوا مـــنها الإنسان حيث يشاء .

ومن خلال هذه المعرفة والفلسفة ، يظهر رأى معارض ، يقول كيف يحدث الاتحاد ، وهناك عالم البرزخ بين الحياة الموقوته الزائله وبين العالم الأخر اللانهائى

أو بين عالم الوجود المادى وبين العالم الروحى؟؟

هذه النظرة التى تفرق بين عالم الحقيقة وعالم الغيب ،يراها بعض مفكروا العبادات الثنائية الفكر ، وقد كثر الجدل حولها ، فى بعض العبادات الثنائية تظهر

طوائف تعترف بوجود الروح فى الإنسان ، وتعترف بأن النار التى وقودها الناس والحجارة ، هى جحيم الأرض ، والجنة التى عرضها السماوات والأرض ، تشمل ما فى الكون من مباهج ، وتتضمن الأرض . . ! ! !

وفلسفة اليوجا كفلسفة عالية الشفافية ، وعميقة الفكر : ترتكز على أسس أحدية الوجود لا ثنائية الفكر . .

فهى تعتبر العبادات الثنائية مرحلة من مراحل التطور إلى المعرفة الأحدية .

فالمحدود وغير المحدود ، والنهائى واللانهائى ، أو المقيد والمطلق ، والوجود والعدم ، والمادة والروح الخ . يراها الفكر المتسامى صفات متميزة فى العالم الدنيوى أو فى الوجود الدنيوى ، ولكن بالنسبة للعالم المطلق ، والوجود الكلى الجامع الشامل الواسع الادراك ، ومن خلال نظرة شاملة أو نظرة كلية ، فلا يوجد ثنائية ، فالله أحد لا يتجزأ ، شامل واسع صمد . ولكن من خلال نظرة ثنائية فهناك تميز ، وهناك مظاهر مختلفة تترابط وتتعلق بعضها البعض ، تتميز وتعبر عن نفسها ، تتدانى وتتلاقى ، فهى مظاهر وشذرات متفرقة تعبر عن الحقيقة ، ولكنها لا تصلح بهذه الكيفية لتعبر عن الحقيقة الأحدية ، فهى دلائل وبراهين وآيات فى الوجود الكلى .

ولكن إذا اكتملت الرؤية الصحيحة ، والمشاهدة الحقيقية ، فلا وجود للمظاهر المتفرقة ، فأحدية المطلق تجب كل الأشياء والمظاهر ، فلا موجود بحق إلا الله الدائم السرمد ولا شىء معه .

(كان الله ولا شىء معه ، وهو الآن على ما عليه كان) كما يقول الصوفى العارف ! !

ويرى الفكر الهندى المتسامى ، من خلال نظرة غير ثنائية (أحدية) ، أن للمطلق (اللانهائى) لا يمثل الضد أو النقيض فى مواجهة (المحدود النهائى) وإنما

يطابقه ويشمله فاللانهائى هو عين النهائى ، أو بمعنى آخر المطلق جوهر المحدود ومركز وجوده ، لأن المحدود لايقوم بذاته !!

والمحدود أو المقيد ، هو نوع من الظهور ، أو التعبير عن الحقيقة اللانهائية المطلقة ، أو هو صورة فى المرآة .

فالمحدود يدرك المطلق لشدة قربه ويتشبث به ، ليحتمى به ، ولكى لا تقع فى الخطأ يجب أن تعرف أن المطلق لا مظهر له ولا ذاتية ملموسة فهو متعالى وحده وغير مجسم ، لا يحده بصر ولا يدخل فى عداد الأشياء ، وإنما إدراك المحدود للمطلق يأتى نتيجة الوعى ، والفهم السليم للوجود ، الإنسانى حيث يتحد الإنسان بروحه ، الكائن والمكون ، الحى والحياه ، الحاضر والغائب ، الظاهر والباطن ، التابع والمتبوع ، الحاكم والمحكوم ، القوى ومن لا حول له .

فالغيب ليس بعيدا عنا ، والباطن ليس خارجا . فالله غير بعيدا عنا ، فالله غير بعيد ، بل هو أقرب إلينا من حبل الوريد ، وهو معكم أينما كنتم ، فإذا وضحت الرؤيا ، واستنارت القلوب وشفت عرفت أن الكل عين وجوده ، ووجه شهوده ، ويد قدرته ، وقدم سعيه ، وعين بصيرته ، والظاهر بتواجده لأسمائه وحقائق حقيقته فى لا نهائى وجوده . . تدانى الأعلى وخلق من نفسه الأدنى ، ليصنع على عينه ، وهذه هى الوحدانية مع الأعلى ، دنى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى .

فالإنسان الشفاف المستنير يمكنه أن يتحد مع الأعلى ، لأن الأعلى يتدانى ، ليستقر فى قلوب عباده ، التى أصبحت بيتا وهيكلا يذكر فيها اسمه . . فمن مات عن نفسه ، ولد هيكلا ومركزا للاعلا .

ومما لا شك فيه ، أن المتسامى المتعالى ، وراء الطبيعة ، ووراء الإنسان ،

والمادة والروح التى هى من أمره ، ولكن فى نفس الوقت هناك تلك الوحدة الرفيعة . فالكون ، والطبيعة ، والإنسان ، كلها مظاهر تعبر عن القـــدرة الخالقة المتعالية .

هذه القدرة ، فاعله فى موجوداتها ، ومتحدة مع الوجود بوصفها .. الحياة !!

سبحانه المتربع على عرش قلوب المؤمنين ، بوصفه روح روح الحياة .

وهنا نتساءل :

(س) هل فى اتحاد الانسان بالله ، يحتاج إلى تصفية فرديته واستقلاله ؟ ؟

(س) هل يمحو الله آية الإنسان ؟

(س) هل يذوب ويفنى الإنسان فى اللانهائى الذى لايدرك غوره ؟ ؟

هذه التساؤلات تصدر عن غير وعى من بعض الناس فى الشرق والغرب . فالمسيحى يخشى الدخول فى هذه المتاهات ، ولديه شعور بالفقدان والمحو ، وكذلك فى العبادات الثنائية ، يقول بعض الناس أنه فى حالة الفناء فى الله يفقد الناس وجودهم وفرديتهم ، ولكن فى حالة البقاء أى فى العبادة الثنائية ، فأنا موجود ، فلا خوف من فناء أو فزع من ضياع .

ولكن هذه الأفكار خاطئة ، وصادرة عن جهالة وعدم فهم فى الحقيقة المطلقة . فليس فى الفناء فى الله ضياع ، ولكن هو صحوة معرفة ، يعرف فيها السالك فى هذا الطريق أنه يد الله ، ولسان الله ، وقدم الله ، فهو قائم بالله وحى بالله . فأين الفناء إذا ؟ ؟

وقد عرف السيد المسيح هذه الأحوال فى قوله « من مات عن نفسه فقد قامت قيامته ، وكسب الحياة الأبدية » .

ويقول أهل المعرفة من الصوفين ، عندما يفنى الانسان عن إنيته تعتق رقبته ،

وتقوم فيه قيامة الروح ، فى بعث جديد دائم عبر الزمن ، قيام ربانى لا موت فيه .
الفناء هنا هو التخلص من الأنانية ، من النفس التركوازية ، أو النفس الأمارة بالسوء ذات المطامع الفردية ، والاستغلالية ، التى تحارب المجتمع لتتملك كل شيء لنفسها « أنا فقط وليس لى شأن بالآخرين » .

هذه النفس هى أس الفساد ، والجشع ، والطمع ، والحسد ، والحقد ، والغيرة ، والكنزية ، والمكر بالناس ، والتعالى العنصرى .

هذه الصفات التى تملكها النفس الامارة هى سبب كل بلاء ، وكرب وحرب وخداع ، وهى التى تحاربها جميع الأديان .

فإذا أمات الانسان هذه النفس وأخضعها وأفناها ، ولد من جديد ، فى خلق جديد ، فى نفس أبية صالحة مطمئنة ، كلها محبة وصلاح وحنان وتضحية وخير ، ذات جديدة متخلقة بخلق الله وذاتية الوجود ، أى متوحدة مع الكل ، يسعدها مايسعد الناس ، ويضيرها ما يضيرهم ، أو كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه » .

والانسان الذى يتصف بهذه الصفات يعتبر إنسان الله المتوحد ، ومركز وجود ، وومضة من ومضات نور الله ، صاحب نظرة ، ذو المقام المحمود ، صاحب كشف ، ذو القوة فى الحق ، الحر الأبى ، العارف بالله .

وفكرة الاتحاد فكرة غريبة عن الفكر الغربى وغير مفهومه فى كثير من الأديان .

وفلسفة اليوجا توضح هذه الفكرة ، بل ولديها من التدريبات المختلفة التى تأخذ بيد المريد ، وهى المنارة التى يستنير بها كل راغب فى المعرفة ، وكل سالك فى طريق الحق ، وكل باحث عقلانى ، فى طريق المعرفة الغيبية .

وهى تحل النفس البشرية تحليلا دقيقا ،

وتحلل العقل ونوازعه ودوافعه ، وتركز على معرفة النفس الحقيقية القائمة فى الإنسان ، وهى التى تراقب العقل وتراقب النفس الأولى ذات الأحاسيس والأطماع

فإذا ماعرف الإنسان نفسه النقية ، التى تمتلك العقل ، وتملك المراقبة ، عرف ذاته الفاعله ، وشاهد من خلالها وجوده .

وقد اكتشفت اليوجا أسس ووسائل مرهفة الإحساس ، لبلوغ غايتها ، فى معرفة الإنسان والحقيقه ، ومن خلال تدريبات التأمل والتفكر ، عرف الإنسان نفسه وعرف مايحتمل فيه من صفات ظاهرة وباطنه ، ومن نفس وعقل وروح ، وخرج من هذه التأملات ، إلى طريق المعرفة ، فوضع أولى خطواته على طريق جنة عدن المفقودة .

كما أن هذه التدريبات العقلانيه ، تخلق فى الإنسان قدرات وقوى باطنه ، تساعده للسيطرة على الوجود والطبيعة وتهذب من أخلاقه حتى يفرق بين الخير والشر ، ويعيش حياته متيطرا على أحاسيسه وعواطفه ، ومعرفة دوافعها الهدامة حتى يعيش حياته فى أتزان ، بعيدا عن المتقدات والخرافات . .

فاليوجا إذا علم ومعرفة ووعى كامل ، وطريق وسلوك ، فهى لاتهدف إلى الرجوع لحياة الغاب أو حياة الفطرة ، ولكنها تساير المدنية والنمو والتطور البشرى ، وتعمل على دفع عجله الحياة السليمة ، مع مراقبة النفس ودوافعها حتى لاتجرفها حياة المدنية وصخبها ، وتمزقها شر ممزق كما هو الحال فى المجتمعات الأمريكية ، والسويد وغيرها من الدول التى تكثر فيها الانحرافات النفسية ، والأمراض العصبية نتيجة للتقدم الصناعى والارهاق المصاحب للحياة العصرية .

وهنا نرى الحكمة فى قول الرسول « روحوا عن القلوب ساعة بعد ساعة فإن القلوب إذا كلت عمت » .

ولذلك تهتم أفكار اليوجا بالبحث فى الأخلاقيات ، وتشجع على حسن

المعاملات والارتباطات وتنبذ الجحود والكفر، وتسعى الخلق لذات الكاملة .

فإذا تمكن الإنسان من خلال تدريبات التأمل والتفكر معرفة نفسه ، فقد عرف ربه ، وكشف الحجاب ، الذى رأن على قلبه ، الظلمانى فإشرق بنور ربه ، وعرف أنه من روح الله ، وأن قلبه بيت الرب ، فسما بروحه ، وعرف أنه أمر وسط بين الحقيقة الربانية والوجود المادى ، أو أنه تعبير ظاهر للغيب ، وأنه فى حالة نشوء وإرتقاء من عالم المادة إلى عالم الروح .

فعلوم اليوجا الاخلاقية ، والمنطق العقلانى وتدريبات التأمل والتفكر ، كلها وسائل مختلفة لخلق الإنسان السامى .

كما أن مظاهر الجمال المختلفه ، والنظرة المنطقية والشعور بالحب ، كلها عوامل بناءة فى خلق الذات .

إذا فليست اليوجا نظرة فاسده ، أو طفولية التعبير ، أولا أخلاقية ، أو بعيدة عن المنطق ، بل على العكس هى نظرة تقدميه متسامية ، وفحص عميق لذاتية الإنسان ، وعلاقته بالوجود الكونى ، والبيئه والجيرة من الأقر بين الذين هم أولى بالمعروف .

ومن خلال هذه النظرة ، ومن خلال الممارسة العقليه يرتفع الإنسان عن صفات الحيوانية ، إلى صفات ملائكية ذات أحاسيس رحمانية ، تشمل ما يحيط بالإنسان من مخلوقات مختلفة ، من عالم الحيوان والإنسان ، فيراها كلها أمم لاتفترق عن مجتمعه ، فيرى الجمال فى كل ماحوله ، ويرى عظمة الوجود فى وحدانيته التى تكمل بعضها البعض .

وقد نحى بعض الكتاب الغربيين المعاصرين فى كتاباتهم هذا المنحى ورأى هذه الرؤية ومنهم ف . ه برادلى ، وبرنارد بوسانكت .

وقد رأى بعض الكتاب أن فى رغبة الإنسان العودة إلى الطبيعة ، هى رغبة

متأصلة فى النفس ، ففى الطفولة نجد التصاق الطفل بأمه ، ورغبته فى تحسس كل مايراه ، وعدم خوفه من الحيوانات ، وسرعة اندماجه مع غيره من الأطفال ، ومازال فى الرجال هذا الطفل المختفى !!!

وكلما تعب الإنسان فى مكابدة الحياة ، طلب الراحة بعيدا عن صخب المدنية وانتحى مكانا قصيا ، بين أحضان الطبيعه ، فى ظلال الأشجار اليانعه والأزهار النشوى ، والنبت الأخضر ، والنهر الجارى والجدول السارى ، والبحر الأزرق وشمس الأصيل .. باحثا عن الجنة المفقودة وقطوفها الدانية ...

أو بمعنى أصح باحثا عن أحضان الأم الكبرى ، فقد كان طفلا سالما فى أعماق الرحم ، وهو يريد السلام فى أرحام الطبيعة .

وفى نظرة أعمق ، يرى الإنسان فى الغيب ، أنه الملجأ والملاذ ، والأم الرؤوم التى يلجأ إليها طالبا النجاة ، كلما أتعبته الدنيا ، وطحنته الحياة بين كفى رحاتها فيرى أنه آتى من الغيب ويؤوب إلى الغيب وهذا هو الوفاء الإنسانى إلى منطلقه.

وإذا نظرنا نظرة تأمل إلى الوجود ، لرايناه يكمل بعضه البعض ، فقد خلق الإنسان من ذكر وأنثى كل يكمل الآخر ومنهما انبت ذرية تكاثرت وانتشرت ولكنها من أصل وأحد ، فالإنسانية واحدة ، من نفس واحدة ، وأخوة واحدة ومايستنشقه الإنسان من الهواء هو مايلفظه النبات من الاوكسجين ، ومالفظه الإنسان من ثانى أكسيد الكربون ، استنشقه النبات وصوله إلى جسيماته ، ومن الطمى الأسود ، الزهر الأبيض والفل والياسمين ، ومنهما نستخرج أروع الروائح والعطور ، ومن البحار نأكل أشهى الطعام ، ومن الإيدروجين والإوكسجين صنع الماء ، ومن الماء كان كل شىء حى ، يختلط الماء بالأرض فتخرج من كل نبت نضير.

فالعالم ، إذا تشمله وحدة واحدة ، ومنها اختلط كل شىء ومنها انتشر كل شىء ، تتحد أشياء وتصدر عنها أشياء ، وتتفكك أشياء يصدر عنها أشياء ، وهذه التى تفككت ، تتجمع لتظهر منها مظاهر أخرى فى أشكال وصور أخرى ، فى أى صورة ماشاء ركبك .

إنه لشيء عظيم ومعجز حقا ، مجد فوق مجد ، وخفاء فى خفاء ، وظهور من خفاء ، وخفاء من ظهور ، وظهور من ظهور ، فى دوام أبدى سرمدى ...

أن بعض هذه العناصر فى اتحادها وتفاعلها ، تتشكل ، وتظهر فى صورة حية من مادة البروتوبلازم الحى ، ومن ضيق الأفق أن نعتقد أن الحياة هى فقط نتيجة لهذه الاتحادات والتفاعلات الكيماوية أو الطبيعية .

إن هذا البروتوبلازم الحى هو فى الحقيقة جوهر قائم بذاته ، يختلف اختلافا كليا عن تلك التفاعلات الكيميائية ، أو هو مظهر مختلف من مظاهر الطبيعة .

ومن هذه النظرة نعرف لماذا يرغب الإنسان فى الاتحاد مع الغيب ؛ إنه الجزء الذى يبحث عن الكل الذى منه انبثق ، ليدخل فى رحابه ويحتمى بحماه ، ويبيت فى ذاته .

وإننا نرى فى الحياة كيف ينفعل الناس ، وكيف يتحولون من حال إلى حال ، فترى المرأة التى فشلت فى حبها قد تتحول إلى الرهبنه ، وهـــذا نوع من الحب الأسمى ، والرجل الذى فشل فى حبه قد يلجأ إلى قرض الشعر ، أو الإتجاه إلى الفن بكليته فيبدع ، أو يتفرغ إلى العلوم فيخلق حدثا جديداً ، أنه يؤوب إلى نفسه وإلى اعماقه فيتفجر من أعماقه إشراقة تنير قلبه إشراقه اروح التى هى نفحة الخالق .

إن الإنسان الذى يذهب هذا المذهب ، إنمـــا يلجأ إلى فطرته ، يلجأ إلى جوهره حيث المجد فى الاعالى — أعالى النفس — أعماق الذات ، هذه الأعماق كنز مليىء بالجماليات والكماليات ، والخلق والإبداع .

قد يعتقد البعض أن الإبداع ، والفن هى من سطحيات العقل ، ولكنها فى الحقيقة نابعه من الوجود ، من اعماق الذات ، أنها فى مستوى أعلا من العقل ، أنها مثاليات الحقيقه الكامنة عندما تتحرك .

إن الأديان ، تصف الجنة ، للمؤمن ، بوصف الإبداع ، فتشوقه إليها ، ويزداد حنينه إليها ، فينفصل من أعماقه وتتغير صفاته من الهمجية واللا أخلاقية إلى الرقى وفعل الخير ، وسمو الخلق ، حتى يؤوب إلى الجنة المفقودة جنه عرضها السموات والأرض ، أعدت للمتقين . .

إن فى اللجوء إلى الأعماق قوة عظيمة ، ومصدرا كبيراً للالهـــام ، توقظ الوعى النائم ، والروح الساكنه ، وتضىء النور فى القلب فيرى بنور الله ويعمل بقوة من الله ، وعزم يفوق قوة البشر ، فالاتحـــاد قوة ، والاتحاد مع الله هو مصدر القوى . .

فافتح قلبك للحقيقة ، كما تتفتح الزهرة لنور الصباح . وكما تزقزق العصافير ويغنى الهزار ، ويصدح العندليب ولنتخذ من الأنبياء والمرسلين مثلا ، عندما قال السيد المسيح « أنا والآب الذى فى السماء واحد » ، وعندما قال الله فى كتابه العزيز « إن الذين يبايعونك تحت الشجرة إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديكم . .

« وفى أنفسكم أفلا تبصرون » ؟

وقال السيد المسيح « أنى أخلق لـكم من الطـــين كهيئة الطير فانفخ فيه ، فيكون طيرا بإذن الله ، وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله ، وانبئكم بما تأكلون وماتدخرون فى بيوتكم ، إن فى ذلك لآية لـكم إن كنتم مؤمنين » .

« وإذ قال ربك للملئـكة إنى جاعل فى الأرض خليفة » .

هذه الحقائق عرفها اليوجيون وحققوها ، ففى مهد المعرفة الإنسان كطفل فإذا أنجز وأتم خبرته ومعرفته ، على مستوى مرتفع من المعرفة ، وصفا من الغيرية ،

ودخل فى اليقين ، اكتشف ما كان خافيا عنه ، اكتشف مبادىء التوحيد ، وأصبح ذو قوة مسكين ، فإذا قال أحد العارفين من الصوفية أنا والوجود ذات واحدة ، وأصل واحد ، إنا والحقيقة جوهر واحد ، فإنه ينطق بمن عمق المعرفة ومن تجربته فى حضرة القيوم اللانهائى الأبدى .

أنه مر من خلال تاملاته ، وتجربته فى جذور المعرفة ، وعرف أنه امتداد ، وأنه جزء من الجامع الشامل ، فأصبح ذو نظرة كلية . ولكن هذه التجربة أو هذه المعرفة لم تأت نتيجة احاسيس مرهفة ولا معرفة عقلية ، ولا نتيجة تصور إدراكى أو فراهة ، كما أنها ليست نابعة من العاطفة ، أو الانفعال .

إنها محتوى تجربته ، وكامل معرفته ، ومشاهدته لنفسه ، فى معترك الحياة ، واستجابته لماحوله من الحياة ، وعمق سبحانه أو تسبيحانه فى الله .

هذه المعرفة وجودية ، ومعرفة لما وراء الطبيعة أنها وعى كامل عن النفس أنها معرفة النفس الكلية الأحدية .

إنها صحوة من الغفلة .

« واذكر ربك فى نفسك ... ولاتكن من الغافلين ».

وإذا قال سالك لطريق « الراجايوجا أنا » ومركز وجودى واحد فإنه يعنى أنه اكتشف أسرار التوحيد ، وأصبح موحداً .

أصبح هو وسر الحياة واحدا أو فى المعنى الأوضح .

أصبح واحدا مع النفس العليا ، واحدا مع الروح .

وإذا بلغ الإنسان هذا المقام من المعرفة ، فقد كشف فرديته ، بموته عن نفسه ، وقام فى قيامة جديدة ، فقد ولد من جديد ، كامل الأنارة ، كامل الحرية . .

إنه آب إلى نفسه ووجوده ، آب إلى روحه والله يحب الأولين ، وهذه هى

الموتة الحقيقية التي اذا ماتها الإنسان ، قام، وكتبت له النجاة ، وولد من جديد، في ثوب جديد ، إنسان الله ، أو الإنسان الكامل، أو آدم الحياة في حقيقة الحياة ، في عمق الحياة ، في مكمن القوة ، وينبوع المعرفة ، متخلقا بخلق الله ، حدثي المعرفة ، بديهي الرؤيا ، ذوقي الحس ، ورحمه مهداة لقومه ..

وهذا ما عبر عنه القرآن في قوله « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون » . من سورة البقرة وفي قوله « فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم » .

« أو من كان ميتا فأحييناه ، وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها . . » (الأنعام)

« يا أيها الذين آمنوا إستجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم . واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ، وأنه إليه تحشرون » .

الباب الثاني

الفصل الأول

الهدف من المعرفة الدينية

الهدف من المعرفة الدينية ، هو الإرتباط مع الله ، للسير فى مناكب الحياة بطريق عملى وسليم ، فالإنسان الذى يسلك سبيل المعرفة ، هو إنسان متفوق فى الحياة ، فهو كعابد متفهم لحقيقة الحياة ، يفوق مرتبة الناسك الزاهد الهارب من الحياة ، أو الذين يتمسكون بالطقوس حرفيا دون وعى ، والذين يتمسكون بالقشور من المناسك والشكليات دون تميز ودون تعمق فى أسبابها .

ويروى عن صدر الإسلام إن الرسول صلى الله عليه وسلم مر بعابد متنحيا جانبا وعاكفا يصلى دون توقف ، فلما فرغ سأله « من أين تأكل » ؟ فأجاب « أخى يعمل فى القرية وعند عودته يحضر إلى الطعام » فقال له « أخوك أعبد منك » !!

فالسعى فى الحياة بوعى ومعرفة سليمة ، أقوم من التنسك والزهد ، فالدين السليم يوجه الإنسان إلى الخدمة . وتكريس النفس لخدمة الله هو فى خدمة خلق الله ، وفى عمل الواجب وأداء العمل على أحسن وجه ، حتى تسير الأمور الدنيوية فى الطريق السليم الذى أراده الله ، وتزدهر فى الظل الروحى ، إخاء وعمل ومحبة « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » .

هذه الأفكار هى لب الفكر الصوفى المتوحد وهو الإنسان العامل ، الفعال المساير للحياة والسائر فى الحياة بنظرة ثاقبة ، وبقدرة ديناميكية ، هى قدرة الله .

والإنسان العارف بالله ، هو الانسان المتنور ، أنه يرى من خلال وحدانيته ،

أن العمل ضرورة ، وأنه ما خلق إلا ليعمل ويشارك في الحياة ، ويتوائم مع المجتمع ، ويجتهد ويفكر ، ويخلق كل يوم جديد في الحياة .

ومن خلال فكره المتزن ، وقوة شخصيته ، يعمل على توجيه الناس إلى الأعمال البناءة ، التي تخدم البشرية . ويعتبر نفسه في خدمة الحق والعدالة ، ويدافع عن الحرية ، ويعمل على خلق السلام لدفع عجلة التقدم ، ويقف ضد التيارات الانحرافية في المجتمع ، والاتجاهات الهدامة .

إن بعض الناس من السالكين في طريق المعرفة ، يعملون على هلك الجسم بقمع شهواته ، واحتقار الحياة ، باعتبارها دنيا زائلة ، والأغلب من الناس يعمل على تعظيم ذاته ، ويولج نفسه في مطالب الحياة وشهواتها ، ويعمل بفردية وأنانية بعيدة عن قيم الحياة ، وهم في حالة غفلة ونيام .

وفي دنيا الناس ، نجد البعض يعقد الأمور تعقيدا مرزولا وممقوتا للمجتمع ، ومنهم من يحاول كبت مشاعر الناس ، ومنهم من يخلق الخصام بين الناس ، لينزع الأمان والسلام من القلوب ، ويهدم المجتمع .

وبعض المتدينين ، يعرضون عن الدنيا ، وينبذون المجتمع ، لأنه في نظرهم مجتمع فاسد فيكفرونه ، وتراهم يخفون وجوههم ، والحقيقة أنهم ضالون ، لأن مراد الله هو الدخول في الدنيا والعمل بأمانة وإخلاص ، لخلق المجتمع الصالح .

وهناك لون مرزول من الناس يتصيد الغرض ، ليخطف خطفات سريعة ، غير مهتم بهدم الغير ، أو إرباكه ، ولا يهتم إلا بنفسه الجشعة ، ولا يرعى الله في تصرفاته . كل هذه لفتات سريعة ، عما يحدث في كل المجتمعات .. ولكن فلسفة الحياة ، تدعو إلى ازدهار الحياة ، وإلى تنوير العقول لكي تعمل بخلفية صادقة ، لكسب الحياة في ظل رضاء الله ، ولخلق دنيا متوائمة ، في كل الأركان المعمورة ، كوحدة متراصة الصفوف ، لا يدخلها الباطل ، كإنسانية واحدة ، ونفس

واحدة، وبشرية واحدة تحيط بها روح موحدة للكل، ووجود واحد يكمل بعضه البعض ويقوى بعضه البعض، فسيولوجيا، ويتوائم عقليا، ويتنغم عاطفيا، ويتزن خلقيا، ويتفاهم دينيا، بغير عنصرية، وبغير ازدراء، مجتمع روحي، هو جنة الله في أرضه، إذا اشتكى منه مجتمع، تداعت له سائر الأركان.

رأى اليوجا فى الغرض من وجودنا

إن الغرض من وجودنا الأرضى، هو تحقيق رغبة الخالق فى ازدهار السكون ونمو ذواتنا خلقيا، وكسب المعرفة. ولكى تحقق ذلك يجب أن تكون هناك قيم عليا، وأخلاقيات، والمجتمع الذى لديه هذه القيم، هو مجتمع رائد كقول الشاعر:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وكقول الله سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم «وإنك لعلى خلق عظيم» وهذه الخلق يجب أن تكون خلق أمته، وأن ينخلق الناس بخلقه، كقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) ما أعطيت فلأمق، وكان الرسول أمة وما جاءت تعاليم كل الأديان، إلا لنشر مكارم الأخلاق، فكم من مصلى يزداد بعدا عن الله، لأنه على غير خلق،

وقد اهتمت تعاليم اليوجا بالأخلاقيات، ولم تتدخل فى مناسك الأديان، لأنها تربى الإنسان الصالح، والإنسان الصالح مركز وعى وقوة وإيمان، فاذا صلح الإنسان، صلح المجتمع، لأن المجتمع هو إنسانية واحدة تكمل بعضها البعض.

والحياة الأرضية هى جمع من المجتمعات، تسير فى طريقها لإنجاز احتياجات الوجود، وكل مجتمع منها يجب أن يكون فى اتحاد لبلوغ مأربه، واليوجا كفكر تعمل على توحيد كل هذه المجتمعات ونشر الوعى بينها، لكى تعمل كل المجتمعات

متعاونة متكاتفة والإنسان الناجح فى الحياة هو الأريب ، ذو الوعى الروحى الذى يعمل من عمق ذاته القوية .

واليوجا كفكر وتدريب جسمانى ، تعمل على خلق هذا الرجل القوى ، الدؤوب ، الذى يعمل بتركيز وحرية ، وعمق روحى .

والحقيقة أن الحياة فى سيرها الطبيعى ، بطيئة وغير محددة المعالم ، بل ولم يفرضها الخالق فرضا وتعينا وتحديداً ، فهى تسير بطريقة محيرة ، واليوجا من خلال أفكارها وتركيزها تساعد الناس على الخروج من هذه الحيرة والالتواءات بخلق روح التعاون ، وتحوير الالتواء والاعوجاج والحيرة إلى طريق مستقيم ، كقوله تعالى « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها » .

إن المعرفة الغيبية لها مستويات كثيرة ، كما أن وسائل الادراك الغيبى متعددة . فالوجود والغيب ، وحدة واحدة مهما عرفها الفلاسفة ، ومهما سماها رجال الدين ومهما تعددت الأوصاف .

ووحدة الكون ذات صورة قائمة ، والأرض كجزء من هذا الكون له معالمه ، فالكون كله نسخة من كتاب واحد وإن تعددت صفحاته وتلونت وحداته ، فهو عالم بغير حدود ، ووجود لا نهائى التشكيل ، فيه ما هو متطابق وفيه ما هو متباين بغير حدود ، فهو مظهر يشمل كل تعبير .

وقد تعددت كذلك آراء الباحثين ، والسالكين ، فكل منهم له مدخله ، ولكل دوافعه ، وحججه .

فالبعض يرى الوجود أنه الله ، والبعض يرى الله أنه غيب الوجود ، والبعض يرى الحقيقة عارية عن التجسيم ، وآخرون يرون الوجود أنه وجه الحقيقة ، والبعض يرى الوجود ومضة نور لما وراء الطبيعة، وآخرون يرونه كمرآة للحقيقة،

والبعض يراه حقيقة واحده ولا شيء وراءها ، وهناك من يتصوره الجوهر وتجلياته ، وفئة ترى الوجود كامل الحريه بغير قيود .

وترى اليوجا أن كل هذه الأفكار المختلفة تعبر عن الرسم المنظور ، أو الادراك المبرز للكون ، وترى أن فى كل رأى من هذه الآراء ، وجهة نظر فيها لمحة من الحقيقة ، تعبر عن فكر الناس فى المستويات المختلفة ، وفى البيئات المختلفة ، وفى ظروف مختلفة . ولكن كل هذه الآراء ، لا تعبر تعبيرا صادقاً وكاملا عن الحقيقة ، فمهما بلغت الأفكار والوسائل ، والحيل والمناهج من قيم ، فهى لن تعبر عن جوهر الحقيقة الكلية ، لأنها على خلاف ما يجول فى فكر البشر . « إذ ليس كمثله شيء » .

ومهما ظهر من آراء فى الشرق أو الغرب ، ومهما أقام البشر من تجارب للكشف عن الحقيقة ، فلن يسبر إنسان غورها .

وقد عرفت اليوجا هذا العجز ، فاتخذت سبيلها فى المعرفة ، بالسلوك ، أو فن الحياة فى ظل الحق .

واليوجا تشتمل على أفرع كثيرة : هى — الهاثا يوجا — والراجا يوجا — والكارما يوجا — جنانا يوجا — بهاكتى يوجا — والتانترك يوجا .

كما تشتمل على مدارس الفيدانتزم ، والفازنانزم ، — ومدارس للهينايانا ، والماهايانا .

وكل هذه الأفرع والمدارس تبحث فى طريق الحقيقة ، ولها وسائلها وفاعليتها . وإذا أردنا أن نترجم كلمة اليوجا والتى تعنى الاتحاد ، فان الاسم المناسب لها هو الصوفية — أو الطريق الصوفى .

فاليوجا فى الهند هى طريق المعرفة الصوفية أو طريق النقاء ، أو الصفاء .

والتصوف فى الصين يعرف بالقاوية Taoists ويعرف فى اليابان باسم طريق «زن» ZEN Buddlista وفى اليهودية هى الربانية ، وفى المسيحية هى الرهبانية، وفى الاسلام علم الحقيقة أو عين اليقين وحق اليقين ، وفى أنحاء أخرى من العالم ظهرت طرق أخرى تعبر عن الأفلاطونية فى ثوب جديد . . كل هذه الطرق تعبير واحد عن السلوك والمعرفة . . وكلها تؤدى إلى الـكمال ، وإلى النظرة الباطنية العميقة .

وما أحوج العالم فى هذه الأيام ، إلى سلوك هذا السبيل من المعرفة ، حيث طغت المادة ، ونسى الناس مثلهم العليا ، وتركوا سبيل الدين ، فاعوجت الأخلاق وتنابذت الطوائف ، وظهرت العنصريات وامتلأت القلوب بالأحقاد ، وأكل قوى لحم أخيه الضعيف ، وعمت الأبصار عن طريق الرشاد ، وران على قلوب البشر غلظة وصدأ .

والتصوف الهندى ، أو طريق اليوجا ، قد وضع من الأسس والتدريبات الصالحة ، التى تأخذ بيد السالك إلى النجاة فهى تجلو صدأ القلوب ، فتكشف الغمة عن البشر ، لتسكن الروح فى قلوب المؤمنين ، فتبهر الصدور ، وتضىء بنور ربها ، وتوجه البشرية لعمل موحد ، يخرجها من مشاكلها العصبية ومن تعصبها وأحقادها ، وحروبها ، فيحل السلام والوئام والمحبة ، ويتعاون الانسان مع أخيه الانسان بفهم سليم ، لرفع مستوى الحياة ، إلى المستوى الذى يليق بالانسانية ، والذى أراده الله لعباده المخلصين ، وهو القائل ، لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه ، وهذه قمة الاشتراكية الحقيقية ، التى تدعو إليها الأديان فى صميم قلبها ، ألا وهى تربية الأخلاق وحسن المعاملة ، وكما قال الرسول محمد صلى الله عليه وسلم « جئت لـكى أتمم مكارم الأخلاق .

الفصل الثانى

الزهد

لقد مر العالم ، فى الشرق والغرب، بتجارب الزهد والنسك، وبخاصة فى العصور الوسطى ، وعكف الناس على هذا السلوك . لبلوغ الشفافية . أو تحرير أنفسهم من إستعباد المطالب الدنيوية ،أوهربوا من قسوة الحكام ، أو عزوفا عن الشهوات التى تستعبد الإنسان ، فزهدوا فى الدنيا ، وتنكروا للحياة ، وعاشوا فى سلبية ، وهربوا من خضم الحياة .

وأعتقد الناس فى العصور القديمة . أن كل متاعب الحياة وشرورها يرجع إلى غضب القدرة الخالقة ، وأعتقد البعض أن هذه الآلهية ذات طبيعة عمياء غير واعية أو شريرة ، وعزى البعض متاعب الدنيا إلى جهولية الناس بمطالب الآلهة ، وعزاها آخرون إلى أطماع الناس الغير مشروعة،أو أن الكون يتحرك ويسير على هواه. وأنتهت كل الآراء المختلفة إلى أن حياة البشر متعلقة بمجلة القدرة الخالقة ، وأن هذه القدرة هى الباعث والدافع والمنبه والمسير ، وأن كل الآلام نابعة من الجهالة . أو من عدم معرفتنا نوايا هذه القدرة .

وخرج جها بذة الرأى والتصوف : بمعتقد، أن بلوغ غاية السعادة والسلام، هو تحرير النفس ، أو تحرير الرقبة من عبودية دوامة الحياة المادية .

وقال معلموا الباتنجالى يوجا (Patongalisy) ، أن تحرير النفس يكمن فى الاستعلاء على مطالب الجسم ، وإستشراق القلب بنور المعرفة، والتجرد من أفكار الجاهلية ، وكل هذه الصفات تخص الفرد نفسه دون المجتمع ، وهى حالة الفناء فى الله. والفناء بمعناه الوصفى هو الزهد فى الدنيا والبعد عنها ، أى البعد عن معارك

الحياة ، وتلاطم أمواجها ، فى الفعل ورد الفعل ، والعرض والطلب ، والآلام والمباهج إلى غير ذلك .

ويتصور أصحاب مذهب الفيدانت (Vedantism) ، أن الهدف من الحياة ، هو الفناء فى اللانهائى، واللانهائى هو الحقيقة الأحديه الدائمة . ويرون أن العالم فى صوره المختلفة خيال زائل،وماهو إلا صورة مظهر ينبىء عن وجود الحقيقة الخلفية المحيطة بالوجود :

ويرى أتباع بوذا، أن الله سبحانه وتعالى ذو صفة روحية . غيرظاهرةللأعين، ولا يمكن وصفه أو التعبير عنه . وهو وراء الوجود والعدم ، ولا يعرف له كنه أو مكان أو زمان، ولكن التفكير والمعرفة عن العالم الزائل ، والفراغ اللانهائى. هما سبيل الفهم عنه ، ومراقبة النفس هو طريق للسلوك إلى المعرفة .

ومن خلال تلك الأفكار ، يرى إن معظم أراء الأديان القديمة فى القارة الهندية ، لا تعير العالم المادى أهميه عظمى ، بل تعتبره عالم من الصور المتحركة ، عالم خداع ، لا حقيقة ، له ولا دوام ، بل هو حلم يتدفق فى بحر الحقيقة ، كماتتدفق الأحلام فى رؤوسنا .

وعاشت الهند فى تلك الأزمان ، حياة زهد وتقشف ، وأعتكاف ، وأنكار للذات ، فدهمها الأستعمار أجيال طويلة ، وطويت صفحة الهند ذات الفن الرفيع . والمجد، وأنقسمت القارة الهندية إلى ولايات مختلفة ، وحكم كل ولايه سلطان أو مهراجا ، حكما فرديا، وظل الناس على حالهم ، غارقين فى الجهل والزهد لأرضاء الخالق ، والتواكل، وترك الأمور تجرى على أعنتها وهى غاية الحياة ، فهم يحتقرون الدنيا ويعتبرون وقتها وقت ضائع ، ويبجلون الآخرة ، وينتظرونها فى تكاسل وكانت هذه الأفكار تابعه من تعاليم الكهنة بعدأن ساد بينهم الجهل وتفشي.

وأستمر هذا حال الناس وتأخرت البلاد ، وغرقت فى الجهالة ، حتى قيض الله للبلاد مصلحين نابهين ، وحكماء أمثال بوذا ، وكرشنا ، وأكبرو ، وسوامى

سيفاتندا ، ومدارس الماهايانا ، والزن وغيرهم من أئمة التصوف ، الذين أعتبروا أن أسباب الفشل والتأخر ، هو نتيجة الجهل فى مفهوم المتقدات الدينية القديمة التى ترسبت فى عقول الناس . وأن أسباب فشل الحكومات فى الأمور السياسية ، والإصلاح الإجتماعى ، هو نتيجة لعدم فهم الحكام ، لطبيعة الحياة الأرضية ، ومراد الخالق من وجود الإنسان فوق الأرض ، كما أن بعض الحكام كانوا يبغون هذا الجهل المستفشى بين الناس ، ليظلوا على عروشهم ، يطغون ويبغون ، وفى المتعة والتعيم يقيمون وحدهم بلا رقيب .

فجاء المصلحون ، وأفهموا الناس ، أن من أراد كسب الأخرة ، وجب عليه أن يعمل فى الدنيا عملا صالحا ، وأن العمل الصالح ليس هو فقط بمساعدة الفقير أو المسكين ، ولكن العمل الصالح المقصرد هو العمل البناء الذى يفيد البشرية ، ويصلح أحوال المجتمع ، وينفع الناس ، ولكى يكون العمل صالحا يجب أن يكون ناجحا ومتقنا وجميلا ، وكلما أتقن الإنسان عمله أحبه الناس وأحبه رب الناس ، فكسب الدنيا والآخرة . وقالوا أيضا أن السماء لا تمطر ذهبا ، ومن أراد الذهب والمال فليجتهد فى أمانه وشرف حتى يربح المال من عرق جبينه . وأن المجتمع وحدة واحدة ، فإذا تكاسل بعض النأس ضعف الإنتاج ووجب على بقية الناس أن تتنبه لمثل هؤلاء الكسالى وتعاقبهم وتزجرهم ، وقالوا أيضاً ، أن الإنسان فى عمله يجب أن يرعى الله ومخافة ، لأن من يعمل مثقال خردلة من شر سيلقاه ، ومن يعمل مثقال خردلة من خير سيراه ، والجزاء من جنس العمل ، ومن يزرع يحصد .

وأن الإنسان يمكنه الاستمتاع بالحياة فى الحدود التى رسمها الخالق ، ولكل إنسان نصيب فى الدنيا من المتاع والعمل ، فالله خلق الدنيا للانسان ، وجعل فيها أرزاقها ، ومن يشاء فليعمل قدر طاقته ، وجعل فيها من المباهج والجمالات ، القدر الوفير لمن يشاء .

وقالوا للناس أعملوا وسيرى الله عملكم .

وعلى الإنسان أن يعمل حتى آخر لحظة من لحظات الحياة ، والعمل متشعب ،

ويناسب كل وقت وكل سن . وقالوا أيضا أن للانسان مطلق الحرية فى أختيار ما يراه مناسبا لظروفه وأحواله ولـكنهم حذورا الناس من الغرور والإعجاب بالنفس ، والتباهى ، والتعالى ، والعدوان على حقوق الغير ، وأكل مال اليتيم ، وأغتصاب الضعيف والمغالاة فى الأسعار ، وأن يأخذ العامل ما يناسب جهده فلا يرهق الناس .

وأن المجتمع يـكمل بعضه البعض ، والحياة مشاركة ، وهى أخذ وعطاء بين الناس ، وهى إشتراكية متوازنة بين الجميع ، حرية وإخاء وعمل وأحترام للجميع . تلك كانت التعاليم التى يشر بها حـكماء الهنـــد ، والتى جاءت فى كتابهم (براهما فافارتا) Brahma Vaivarta والتصوف يشارك هذه الأفـكار ، ويعتبر الحياة الدنيا ، هى القنطرة التى يعبرها الإنسان ، إلى الحياة الأخرى ، وأن أعمالنا فى هذه الدنيا ، هى الوسيلة ، أو الامتحان الذى إذا أجتزناه بنجاح ، نحدد به مركزنا فى الحياة الأخرى ، وهذا هو الإسلام فى حقيقته .

وتقول اليوجا ، أن التحرر من عبودية عجلة الحياة الدنيا ، وطغيان المادة الزائله ، ليس هو هدف الحياة ، فذلك خطأ محض ، ولـكن المطلوب هو الفهم السليم للحياة ، فعلينا أن نجتهد ونعمل دائما بإخلاص وأمانه، وأن نتقن العمل الذى نعمله ، ولـكن دون أن تستعبدنا المادة ، ودون أن تستهوينا المراكز ، ودون أن نقتل أنفسنا كمدا ، إذا لم نحصل على رغباتنا ، فعلينا أن نسمى ونـكد ، ونؤدى الواجب . دون أطماع قاتله للنفس وعزتها ، فلا نأسف على ما فاتنا ، ولا نفرح ونفتر بما أتانا ، وإنما نعيش فى إتزان ، ومشاركة ، بعقل متفتح مستنير ، وقلب يغمره الحب ، فلا يكون فيه مـكانا للحقد .

ويقول الإسلام إنه ليست الغاية هى تحقيق ذواتناه ومعرفة طريق الله فقط ، ولـكن بلوغ الـكمال لا يتم إلا إذا أحببنا الناس جميعا كحبنا لأنفسنا ، ورضينا لهم ما ترضاه لأنفسنا . « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه »..

ولـكى نـكشف عن هذا الحبَّ ، يجب أن نطبق هذا المبدأ فى جميع أعمالنا اليومية، وفى علاقاتنا بعضنا البعض،فإذا بدأ كل منا بهذا التجريد النفسى،واستفارت قلوبنا وعشنا فى ظل النفس الواحدة دون حقد ، أو حسد ، أو غيرة ، أو رغبة فى التدمير ، وساد الحب الشعوب ، أستدارت الدنيا كيوم خلقها الله ، جنة قطوفها دانيه ، خيرها فيها ، ونورها من ذاتها .

إن الغرض الـكامن وراء الحياة ، هو الوصول إلى الـكمال ،إ وللوصول إلى الـكمال يجب أن نحرر أنفسنا، من شرور الحياة ونُحرر الحياة من شرور أنفسنا، وأن نحرر الطبيعة من ركودها، وأن نتمم مـكارم الأخلاق، ونجمل الحياة حولنا، فالله جميل يحب الجمال .

ولتحرير النفس طرق متعددة ووسائل مختلفة ، فالذين يعتنقون آراء العصور القديمة ، يحررون أنفسهم فى أنـكار الذات ، والاعتـكاف بعيدين عن المجتمع فى صوامعهم ، يعيشون فى سلبيـة مع المجتمع ، لائذين بـأنفسهم ومتـكفرين ، يطلبون الأعلا .

وهناك فئة أخرى تطلب االـكمال من خلال الأنغماس فى الحياة إنهم يطلبون الـكمال فى خدمة المجتمع ، بأمانه وإخلاص ، فالعمل عندهم عبادة ، فهم يعملون أينما طلب منهم العمل ، فى كل وقت وفى كل مـكان ، ومع كل الناس إنهم رجال لا تلهيهم تجارة أو بيع ، أو عمل ما ، عن مسارهم فى الطوبق إلى الله ، أنهم أهل معرفة وجودية .

وهناك نوع آخر ، يعتـكف فى صومعته ، كالراهب ، ويظل كذلك، فى طريق بحثه وتأمله حق يستنير ، نإذا توهج عقله بالنور ، وأضاء قلبه ، فأبصر ببصيرته ، وبلغ نهاية الرؤيا ، عاد إلى الخدمة ، بوحى من قلبه النابض بالنور ،واصبح صاحب نظرة ، يهدى أحبابه ومريديه بلمحات مى أضواء معرفته ، ويعيش بين الناس، كروح وريحان يصحح مسار الناس ويعيد بناء المجتمع ، من أنوار معرفته .

وهناك نوع آخر من المترفين ، وأصحاب الجاه ، إذا انكشف لهم الحجاب ، هجروا ما يملكون ، وفروا من قصورهم ، وباعوا أنفسهم لله ، فدخلوا إلى الطريق من الباب سجدا ، لأن الطريق إلى الله ، لا يدخله المتكبرون ، والمتغطرسون ، والعالون على الناس ، إنهم يدخلون من أبواب المساكين إلى الله ، يأكلون مما يأكل الفقراء ، ويلبسون مما يلبسون ، فتتطهر قلوبهم فى مد الأيام وجذرها ، فى حالات من البسط والانقباض ، حتى تتطهر أنفسهم ، وتصفو عقولهم ، فتبلغ أعلا مستوياتها ، من الفيض الأعلا . وعندئذ يخرجون إلى الناس يعظونهم ويعملون الخير ، ويضربون الأمثال فى الرحمة والحكمة .

وفى نهاية كل هذه النظرات التى تأخذ بيد العارف إلى الله ، والتى ترمى فى مضمونها إلى الكمال ، هل نعتقد أن هذا هو نهاية المطاف فوق هذه الأرض ؟ كلا وألف كلا فالطريق طويل ، والكمال بغير حدود ، وكلما بلغ الإنسان مرتبة من هذه المراتب ، عرج إلى مرتبة أعلا ، فالمعرفة بغير حدود ، والطريق إلى الله بغير نهاية ، وفوق كل ذى علم عليم ، ونحن متابعون لمن سبقونا فى الله الأكبر ، فى معراج مقداره بلا نهاية .

الفصل الثالث

التحول إلى الوجودية

ينظر الناس ، إلى السالكين فى طريق المعرفة الغيبية ، أنهم قوم منحرفون أو انطوائيون ، أو فاشلون .

ويرى السالكين فى طريق الله ، أن الناس فى سلوكهم فى الحياة الدنيا ، قوم لا يعرفون إلا النهم وإشباع الغرائز والحواس ، تستعبدهم أحاسيسهم ، وتلعب بهم عقولهم ذات اليمين وذات اليسار ، لحياتهم لهو ولعب ، واستغلال للمجتمع ، وكنز للمال .

ويرى أهل العلم والسلوك ، أن الحياة الدنيا مدرسة ، وأن الجسد والعقل خادمان يجب أن يستخدمهما الإنسان كسلم يرتقى على درجاته ، حتى يرى الدنيا بأنوار الحقيقة ، ويعرف ذاته ، أنها روح نورانية ، وأن لها السيادة على الجسد والعقل .

وإذا ما بلغ الانسان هذه القمة من المعرفة ، وعاشها ، نظر إلى الدنيا نظرة أخرى ، فنحاها جانبا ، أو فى معنى آخر خرج من الدنيا ، فبعد أن كان غارقاً فيها إلى أذنيه ، سبح إلى شاطئها ، وجلس كالمتفرج ، ثم عاد إلى الدنيا سيدا ، وليس عبدا ، فقد أصبح متحررا من مطالب الدنيا التى هى مطالب الجسد ، وتحرر من العقل الذى كان يسوده ، فأصبح سيداً لعقله يأمره فيطيع ، وسيدا لجسمه يحكم عواطفه ونوازعه ، ويعيش هذا العارف فى الدنيا ، سيداً لها ، وليس مسوداً ، يعطف على الناس ، ويساعد الناس ، ويعرف الناس حقيقة الأمور وحقيقة

دنياهم . ويعيش فى الدنيا فى رعاية الروح وفى ظل مجدها وتألقها . وعند بلوغ هذه المرحلة من المعرفة ، يرى العارف أن جسمه وعقله ما هما إلا تعبير لارادة عليا ، وأن لهما قيمة عظيمة وأهمية نفيسة ، تعمل من خلالها قدرة الخالق ، فهما ديناميكية الحقيقة فوق الأرض ، ومن خلال هذه النظرة المستنيرة ، يفتح العارف كل معانيه ، وقلبه ، وعقله الظلمانى ، ليسكن فيها البديل ، ألا وهو النور الروحانى ، ويصبح القلب بيت الرب النورانى ذو الصفات الحسنى .

وهذا هو مطلب الخالق من خلقه .

إن السالك فى طريق الله ، واليوجى والصوفى ، والمتدين ، يرون أن الجسم حمل ثقيل على الروح ، وهو حاجب لها بظلامه ومعوق ، وأنه يجب تهذيبه وتطهيره .

ورأى أفلاطون ، أن الجسم سجن مؤقت لحرية الروح الخالدة ، والتى يجب العمل على إذكائها وإطلاقها .

ويرى بعض النساك ، أن الجسم غير رشيد ، لأنه غارق فى الشرور والآثام ، بل هو الشيطان فى شروره وفساده لأنه ملئ بالإنفعالات ، وشغوف بالشهوات ، توسوس له نفسه بالغواية ، وتوسوس للعقل فيرتكب الآثام فى شتى مظاهرها ، وأياً كانت مراميها .

وفى هذا قال الاسلام ، ضيقوا مسالك الشيطان بالجوع والعطش . . فأفهم أيها اللبيب ! ! !

ومع كل هذا النعت ، الذى ينعت به السالكون هذا الجسم ، فإنهم يرونه شر لا بد منه ، ليرتقى الانسان عليه ، إلى الصفاء والنور والتحرر ، وهو أمر لازم فى دنيا المادة .

وبعد كل هذا العناء والتعذيب والاهلاك الجسمانى ، والحزم للعقل والصرامة فى المنع ، يرضخ الجسم والعقل ، للروح التى يتم لها السيطرة على الجسم ، فيستقيم لها الأمر ، ويتخلص الجسم من انحرافاته الجنسية وغيرها ، ويتحرر العقل من الاغواء والوسوسة .

وكأن الروح تقول ، كان لى شيطان ، فأعاننى الله عليه فأصبح لا يعمل إلا خيرا .

وبانتهاء هذه الفترة من التأديب والتهذيب ، تعود الروح لرعاية هذا الجسد النظيف ، فتعمل على تهذيبه وتقويته ، ورعايته ، وتغذيته بالصالح من الطعام ، وحفظه فى قيام صحى قوى ، وعقل سليم ، حليم ، لا يدخله الباطل ، ليحيى فى فى ظل حياته الجديدة ، مشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، يوقد من شجرة مباركة ، يكاد زيتها يضىء ولم تمسسه نار ، نور على نور ، وهكذا يهدى الله لنوره من يشاء من عباده .

وهذا ما تحققه اليوجا للسالك فى طريقها ، لتجعل من جسمه الطينى فخارة مسنونة ، أو زجاجة نظيفة ، يشع فيها قبس من نور الله وفى هذا المعنى يسير التصوف جنبا إلى جنب .

الفصل الرابع

الاتحاد الديناميكى

بعد أن يصل الإنسان إلى معرفة ذاته الحقيقية أنها روح خالدة ، وقبس من النور ، يرعى جسمه فى اعتدال ، ويخلصه من الشوائب النفسية ، وشرور الرغبات الملحة ، والآثام ، والانحرافات ، ويبدأ فى التجاوب مع الوجود ككل أوكنفس واحدة ، فوق أرض الحقيقة .

والمعروف عن التقاليد الصوفيه أنها تحترم الناس ، وسائر المخلوقات ، وتعشق الجمال فى مظاهره المختلفة ، وتعتبر كل ما فى الوجود ، مرآة ومظهر ، للموجو الدائم ، الواجب احترامه وحبه بمافيه وبكل معانيه .

والتصوف فى الديانة الهندوكية يسمى هذا الاتحاد مع الوجود ، بالسمادى (Samadhi) والسمادى حالة من حالات الفناء فى الوجود ، يغيب فيها الناسك عن وجوده فى الوجود الكلى ، كما تذوب قطعة الثلج فى الماء ، ويصلون إلى هذه المراتب بالتأمل والتدريب اليومى ، والعزلة عن صخب الحياة فترة من الوقت ، يقف فيها العقل عن التفكير فى مطالب الدنيا وقوفاتاما ، فلاموجود الا موجود واحد ، فى ثبات وسلام ، وهدوء نفسى ، وسعادة لاتريم .

وفى الديانه البوذية ، يسمون حالة الفناء « النرفانا **Nirvana** .

أما فى التصوف المسيحى وهو الرهبانية ، فإنهم يسمون حالة الفناء « بالدهش » أو الغيبوبة الروحية ، وهى حالة اختطاف روحى ، يكون الإنسان فيها ، فى حالة هدوء كامل وسكينة ، يتوقف فيها الإنسان عن أى اتصال بالمشاغل الدنيوية والعالم ، ويصبح فانيا فى الله بكل كيانه ، محبة وسلام .

وحالة الدهش فى المسيحية ؛ درجات متفاوتة ، تختلف باختلاف طبيعة كل إنسان ومقدار إيمانه وحبه لله .

ويقول الرهبان أن العقل الواعى لايمكنه الاتصال المباشر بالله ، لأن العقل الواعى ذو طبيعة قائمة على أساس القياس المادى ، والتصور ، والمنطق والمجادلة ، فهو يعبر عن وجود الله بالقياس ، والمنطق ، والمجادله ، والمشاهدة ، والتفكر فى آيات الله . ولكن للاتصال المباشر ، يجب أن يسمو الإنسان فوق نفسه وعقله ، وفوق مطالب الحياة ، ويتجاوز كل مايمكن أن يقع تحت بصره وسمعه وفكره بل كل حواسه ، ذلك لأن المعبرات الجسدية والتخيلات العقلية تزيف حقيقة الله الذى ليس كمثله شيء .

ويقول القديس « أغسطينوس » ، أن رجوع القلب إلى الله واعتزال المتع الجسدية هو السبيل الوحيد لكشف سر الحقيقة ، ويقول الأب الراهب « متى المسكين » أنه لايمكن للانسان أن يدرك كمال كلمة الله الا اذا انكشف له سر الروح والحق الذى فيها ، ولا يمكن الوصول إلى كمال الكلمة عفواً ، وإنما باجتهاد الروح والتقوى وأستقامة القلب ، لأن كمال الله لايعلن الا للكاملين . « لكى تقرع فيفتح لك » كما قال المسيح عليه السلام .

ويقول الأب « متى المسكين » أن كلمة « الله » عندما تدخل القلب تصير كالشعاع ، يشرق فى الظلمة ، فيختفى عالم وينكشف عالم ، يختفى عالم الآثام وخبراته الشريرة وينكشف عالم الروح وخبرات القداسة ، فتصير الكلمة طوال حياة الإنسان صلة منيرة وقائدة إلى عالم الروح ، وتربط قلب الإنسان بالخلود والخالدين ، وتقود الروح إلى وطنها الأصيل والكلمة تنير الإنسان ، فتؤهله لرؤية النور : « بنورك يارب نعاين النور »

وكلمة الله يطلق عليها بالعبرية « التوراة » ، وهى مـا نسميها بالناموس ،

والمعنى الحر فى التوراة هو « التعليم » أى التعليم الذى استلمه موسى فوق جبل سيناء

ويوقر اليهود « التوراة » بصفتها كلمة الله ؛ ولكن ليس بصفتها الروحية ، أى ليس لما تحتويه من تعاليم تؤدى إلى الحياة الحقيقية ، وإنما بصفتها الحرفية كشىء من عند الله المستحقه منتهى العبادة والخضوع والإكرام .

والتوراة فى عرف الربيين من اليهود ، موجودة قبل الوجود كقولهم « سبعة أشياء خلقت قبل خلقة العالم — هى التوراة ، والتوبة ، وجنة عدن ، وجهنم ، وعرش المجد ، والهيكل ، واسم المسيا »

ثم جاء المسيح بالجيل ، ليكمل ماجاء فى الثوراة ، ويوضحه ، وكما قال المسيح عليه السلام « لاتظنوا أنى جئت لأنقض الناموس ، أو الأنبياء ، ما جئت لأنقض بل لأكمل » — (مق ٥ : ١٧)

ولكى ينفصل الإنسان بكلمة « الله » ، يجب أن يكون دائما فى حالة ارضاء لله فى كل لحظة وباستمرار ، حتى تسكن كلمة الله فى القلب ، فترديد الكلمه بصفة شكلية ، باللسان ، كترديد الببغاء ، لايسمن من جوع ، وكما قال السيد المسيح اليهود على لسان الله « هذا الشعب يكرمنى بشفتية ، أما قلبه فمبتعد عنى »

وأحوال الفناء فى الله ، والاتصال بالقدرة العلية ، تحتاج من الطالب المجاهدة الدائمة بالعقل والقلب والشعور والإحساس ، والحب العميق ، أو مايسمية السالك فى الطريق ، بالعشق ، وتحتاج أيضا للانضباط ، وحسن السير والسلوك ، والعمل الصالح البناء فى سبيل الإنسانية ، والرحمة بالانسان والحيوان والنبات . والتخلق بخلق الأنبياء ، وهذا العمل لايقدر عليه إلا صفوة من الناس الصادقين ، أو العباد الصديقين ، المنقطعين لهذا الشرف الرفيع ، والإخلاص القام لرب العباد .

ويحتاج هذا الجهاد ، إلى المعلم النابه ، والعارف بالله ، حتى يأخذ بيد المريد ، رويداً رويدا ، ويعبر به من متاهات الشرود الفكرى ، والجهل القديم ، إلى بحار المعرفة ، وفى مصاحبة المعلم يمر المريد فى خالات من الكشف العقلى ، والقلبى ، والشعورى وكلما جاهد فى طلب المعرفة ، بقلب مخلص ، كلما تكشفت له حقائق كانت غائبة عنه ، واعلم أن بلوغ هذه القمة من الكشف ، ماهى إلا مرحلة فى الطريق ، وليست الهدف النهائى . فبعد هذا التحقيق المستنير والاستشراقى يزول عن النفس حجابها المظلم ، ويصحو العابد من غفلته ويدخل حصن لا اله الا الله ، أو حصن الحقيقه ، وتغمره سعادة ، بل غبطة دائمــة وبؤتى الحكمة ، ويرى بنور القلب . ويظل على هذا الحال ، سواء كان فى صومعته ، أو دخـــل معترك الحياة ، ليعمل بين الناس فى دنيا الناس ، يأكل ويتزوج ويتاجر ، أو يعمل فى حرفته ، ولكنه متحررا من عبوديه الدنيا له ، ويعظ الناس إذا كان فى الأمر مايوجب ذلك .

وبذلك يكون الناسك ، قد أزال حاجز الجهل والظلمه بين الحياة الدنيويه والحياة الروحية . ويرى الدنيا أنها تعبير متنوع ومظاهر وأشكال متباينة تعبر عن القدرة الخالقه ، فى صورة مادية فاعله فى الوجود .

وقون ذلك يعرف الناسك ، أن العالم المادى لايكمل الا فى اتحاده بالغيب ، وأن العالم المادى ، لاحول له ولاقوة الا من خلال الطاقة المعطاه له من عالم الروح ، وبذلك يصبح للعالم المادى قدرته وفاعليته الخلاقة .

والمتصوف المحقق ، لاتهدأ له نفس ، ولا يستكين أو يقبع هربا من الحياة ومن خلال وعيه الجديد يدخل إلى معترك الحياة ، ويشارك المجتمع فى أعماله ، ويعمل على رقى المجتمع ، الذى يعيش معه ، ويضرب المثل الأعلا فى أداء الواجب والتخلق بخلق الله وصفاته الحسنى ، وبذلك يدفع الناس للتشبه به ، بل يدفع

الناس دائما إلى تطوير أنفسهم ، وتطوير المجتمع ، وتطوير أجهزته إلى ما فيه خير البشرية وتقدمها معنويا وماديا وصناعيا وعلميا ، طلبا للحكمة .

ويظل المتصوف محتفظا بصفائه ، وسلامه النفسى ، مهما صادفه من متاعب وآلام ، ومهما واجه من قوى الشر ، أو الطغيان ، أو الاستبداد ، والتعسف ، فإذا واجه تعصبا دينيا أو تحاملا طائفيا ، فإنه يقابله بابتسامة ورضاء ، ويحاول أن يفقه ذاك المتعصب ، حتى يدخله فى دائرة الحلم .

وهو يفعل كل هذا فى إخلاص وتفهم ، ويعتبر نفسه أداة حق وعدل وذلك نابع من ذاته المستنيره ، ومحض اختياره ، فهو يمثل الكمال الانسانى فى أبهج صوره ....

الفصل السابع

الفلسفات الحديثة والحياة

قديما ، بدأت الثقافة فى العالم ، تتخذ مظاهرا مختلفة ومتشعبة ، وكانت العبادات المتخلفة ، ذات تأثير قوى على المجتمع وأفكار الناس تنبع من تلك المتقدات .

ثم ظهرت الأديان الحديثة ، ووضعت بصماتها على المجتمع ، فظهر فى أوروبا ، عقب ظهور المسيحية ، أفكار جديدة ، ولكنها لم ترق إلى المستوى السليم فى المعرفة . وسيطرت الكنيسة على الملوك والناس ، وظهرت صكوك الغفران ، وغيرها من أشكال التدخل ، وعاش الناس فى خوف ورعب من غضب الله وغضب رجال الكنيسة .

وظهر فى الشرق ، الفيلسوف نيتشه الذى كان لأفكاره الغريبة هدير الزلازل ، عندما أعلن كلمته المعروفة موت اله (Godis Daad) ، والتى قصدمنها بأنه لاوجود للاله بالوصف الذى تبرزه بعض الأديان ، فلا خوف ولا تشاؤم . فالحقيقة هى قانون الوجود ، قانون الحياة ، وليست الحياة محكومة من وراء الطبيعة بحاكم جبار ، وأن النسك والزهد والتقشف الذى يقوم فيه البعض ما هو إلا هروب من الحياة ، وكسل ممقوت ، وتخاذل لا يقره إله عادل .

ويرى نيتشه ، أن الحياة فوق هذه الأرض ذات رونق وجمال ، وذات قبح وضلال ، والكمال يجب أن يشمل كل الصفات ، فالليل والنهار وجهى تطابق يكمل أحدهما إلا الآخر ، والجمال والقبح وجهى ظهور لا يعرف أحدهما إلا بالآخر فأنت لا تعرف الجمال إلا إذا رأيت القبح . وأنت لا تعرف الرقة إلا إذا شاهدت العنف ، ولا ظهور للموت إلا فى الحياة ، ولا خروج من الموت إلا بالحياة ، وهناك الذكر والأنثى ، وما هما إلا وجهين للتكامل .

بالمحبة ، والتى جاء عنها فى الإسلام « لا ؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » « والناس سواسية كأسنان المشط » . « حب جارك ، والجار بالجنب إلخ من أنواع الترغيب والمحبة .

فهل زرعنا الحب فى قلوبنا وقلوب فلذات أكبادنا ، لكى نحقق إرادة الخالق فى إجتماع البشر على قلب واحد .

من قوته وسيطرته على هذا العالم الأرضى ، فى سمائه، وفى أعماق بحارة، وفى ظلمات أعماق الأرض قد فشل فى صنع الأمان النفس والسلام العقلى ، بل أصبح يرتعد فى إعماقه خوفا من المستقبل .

وكان لزاما علينا إذاً ، أن نسعى كادحين . ومفكرين بعمق لرفع المعاناة عن هذا العالم . وذلك بسلوكنا مسلكا آخر ، وفى إتجاه مضاد ، لكى تخلق السلام فوق هذا الأرض ، بالمحبة الخالصة ، بين الشعوب ، لا فرق بين عربى أو أعجمى ، ولا فرق بين دين ودين ، أو لون سياسى ولون بشرى ، إنها بشريه واحدة ، إنسانية واحدة ، روح واحدة موحدة للجميع ، فى ظل أرض واحدة يملكها الجميع ، ولنسعى جاهدين ، لنكون كخلية النحل الواحدة ، التى تعمل ككل فى سبيل حياة المجموع .

فهل عجز حكماؤنا ، وقادتنا السياسين ، والعسكرين ، أن يفكروا بعقل النحل ، وأن يتجمعوا بقلب النحل ، لخلق المجتمع السليم ، حتى ترتع البشرية فى الشهد ، وتمتص رحيق الحياة .

ويضرب الله الأمثال للناس ، لعلهم يفقهون . . ولا ريب أن مبادرة السلام التى قام بها الرئيس السادات ، لهى النواة الأولى فى ظل هذا الفكر المثمر ، فى سبيل خلق مجتمع جديد فى دنيا جديدة ، متطوره ، وفى سبيل سلام دائم على أرض السلام ، والمحبة والوئام . فما أحوج البشرية لإقرار التعايش السلمى والحب بين الشعوب ، وعلينا أن نكشف القناع ، ونرفع الستر عن قلوبنا المغلفة بالحقد والضغينه ، والأنانية . لنكشف عن أرواحنا القائمة فى ظلمات الأغلال ، حتى تبين وتظهر ، وتؤكد إرادة الخالق فوق هذه الأرض ، هذه الإرادة النابعة من وحدانية الروح ، والتى جاء ذكرها فى الكتب السماوية ، والتى دعى إليها الرسل

جنة الله فى الأرض ، وأنها الكمال الأوحد فى الحياة الأرضية ، الذى يؤدى إلى سعادة الانسان وحريته ، ومساواته ، وتسعى كلا منهما لفرض سلطانها وصولجانها على العالمين .

ولو أن ظاهر هذه المعتقدات ، وينشد السلام إلا أن باطنها ، يحمل الحقد ، والنزاع ، والصدام الخفى .

ونحن مقبلون على فجر جديد فى الصناعات الذرية ، وقد ادخرت كل قوة من هذه القوى ، ما وسعها أن تدخر من قنابل ذرية ، ورؤس نووية ، وحتى بلغت الحلقوم ، وقد أدى هذا التضخم الكبير فى التسليح إلى أحداث تضخم مالى ، سوف يخلق أزمة عالمية فى الاقتصاد العالمى ،

وإذا لم يتقدم رؤساء الدول الكبرى ، لبحث تفاقم الموقف العالمى ، الذى أصبح على شفا كارثة عالمية ، سوف تدمر هذا الكوكب الصغير ، فإن الكارثة آتية لا ريب فى ذلك .

فقد أصبح الناس يعيشون فى مخاوف كبيرة وهم غير آمنين على مستقبلهم ، بالرغم من أن كل دول تجهز نفسها ، بوسائل الدفاع القوى وتحتفظ فى مخازنها السرية بآلاف الأطنان من من الأسلحة المهلكة المدمرة والمرعبة .

ولنتأمل وجوه الناس العابسة ، فى الطرقات ، وحركات الناس فى المصانع ، التى تنم عن القلق البالغ ، وشرود الموظفين فى مكاتب العمل ، وفى البنوك التى تتعامل فى الاقتصاد العام .

ونخرج من هذه الملاحظات ، وأن الإنسان ، — هذا المخلوق الغاية —

وأن فى غطاء الفرد كامل الحرية الحقيقية ، بشرط أن يتفهم هذا الفرد حقوقه وواجباته ، فإن العطاء سوف يكون أفضل ، سيعطى الفرد أجمل ما عنده ،وسيعطى الفرد أجمل ما عنده ، وسيعطى المجتمع أفضل إنتاجه ، ويبذل الحاكم أقصى جهده، وفى النهاية يستفيد العالم كمجموع .

إن من سمات العصر الحديث كثرة الثورات ، فقد حدثت ثورات كبيرة فى البلاد الأوروبية ، والآسيوية والإفريقية ، وتوالت الإنقلابات في الحكومات ، وتحولت من الديموقراطية إلى الديكتاتورية ، وإلى الشيوعية والإشتراكية ، وظهرت أفكار جديدة ونظم جديدة فى الحياة :

وبدأت تظهر تكتلات عالمية ، لمواجهة تكتلات أخرى مضادة .

أما من الناحية الفكرية والعلمية ، فقد ظهرت أفكار جديدة ، ومخترعات حديثة ، وصناعات لم يسبق لها وجود ، وأصبحت التكنولوجيا طابع العصر ونتيجة لهذا الصراع ، ظهر عداء جديد بين الفكر الشيوعى،والفكر الغربى والامريكى ، وتزعمت روسيا الكتلة الشيوعية ، وتزعمت الولايات المتحدة الكتلة الغربية . وأصبحت كل كتلة منهما تستعرض أفكار مضاده للأخرى ، وتقيم العراقيل فى سبيل الأخرى ، وتحاول أن تزرع أيديولوجيات جديدة فى مفاهيم الجيل الجديد، لتعمق الديموقراطية فى محيطها ، والأخرى تفرض النظام الشيوعى فى بلادها ، وفى كل شبر من أراضى الغير ، لعله يمتد ويصبر أكثر إتساعا .

وأصبحت الشيوعية عقيده فى عقول أصحابها ، بل هى دين جديد بمفهومه الحديث ،

وتحاول الديموقراطية ، أن تقوى النزعة الدينية الأصلية فى الانسان ، لكى تحارب النظرة الشيوعية .

وإذا تعمقنا فى الرؤيه ، لوجدنا أن كلا الكتلتين ، تحاول أن تظهر نفسها أنها

ميسر لما خلق له » « وهو معكم أينما كنتم » « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » أفبعد هذا النور ، وهذا التفتح ، والبصيرة نضع أنفسنا فى الصماء ؟ أم نقبل بكل ما أوتينا من قوة لكى نعمل جاهدين فى تطوير أنفسنا ، وتطوير مجتمعنا ، وشحذ أفكارنا لكى نخلق كل جديد ، وكل نافع لتقدم البشرية ، حتى ينهض من عثرتها، وظلامها، فالسماء لا تمطر ذهبا ولا فضه ، ولا عمل .

وأنه لا شىء يأتى من فراغ ، وأنه إذا تأملنا لوضعنا فى السماء ، لعرضنا أننا قد تكون فى الوضع الأعلا بالنسبة لأكوان أخرى ، وأنه لا فوق ولا تحت ، وإذا نظرنا إلى فوقنا ، لوجدنا أن هذا الذى نراه ، هو فى نفس الوضع بالنسبة لنا ، وأنه إذا كان ثم حياة ما فى هذا الفوق ، فهم ينظرون إلينا وكاننا سماء لهم .

وبالتأمل الصادق ، والتفتح المستنير ، نجد أن نبع الحياة من داخلنا ، وأن فاعلية الحياة فى هذه الأرض وما حولها ، وأن السماء فى هاماتنا ، وأن القدرة قائمة فينا ، عطاء غير محدود ، من نبع الحقيقة ، ومن كوثر الحياه .

ويرى زعماء الفكر الشيوعى ، أن هناك غبن واقع على بعض الناس ، وبعض الطبقات فى المجتمع ، وأنه لا سبيل للخلاص من هذا الظلم الطبقى إلا العنف ، والقيام بالثورات لتخليص الناس من هذا الجور الواقع عليهم ، ومحاولة خلق مجتمع حر شجاع لا طبقية فيه ، ولا ظلم ، ولكنهم يحاربون الدين ، ولا يعترفون بوجود قوة خالقة تسير الكون ، بل يعتقدون بوجود الكون نتيجة لعوامل طبيعية ، وأن الإنسان هو القوة الوحيد العاقله فوق الأرض .

ويرى زعماء النظم الديموقراطية ، أن الحريه تتوقف على مقدار التعاون بين الشعوب والحكومات وأستجابة كل منها للاخر .

وقال أن الحياة ، بجلالها وعظمتها . وفخارها ورواءها ، لا يمكن أن تكون كاملة ألا إذا أشتملت على جزئياتها ، سالبها وموجبها ، حتى تصبح كاملة .

وقال أن حرية الإنسان فى تطوره ، وفى تجدده على دوام وجود ، ودوام ظهوره .

ثم ظهر كارل ماركس بنظريته الحديثة ، حيث قال ، أن البشريه لم تتطور منذ التاريخ بفضل أفكار منزهة عليا ، ولكن تطور البشرية جاء نتيجة لعوامل مادية نابعة من قوى البشر ، ومن تطاحن الطبقات ، للسيطرة على الإقتصاديات .

وقال لينين ، أن الأديان ، هى أفيون الشعوب ، وأن الأديان ، تتحكم فى نهضة الشعوب وتحررها .

ويجب على الإنسان أن يسعى بنفسه ، لوضع النظام الذى يكفل له السعادة ، والتقدم فى ظل إشتراكية سليمه ، وتعاون ، ومحبة .

ثم ظهر فى العصر الحديث الدكتور فرويد ، ووضع نظريته ، وشرح متاهات العقل ، وطرق خداعة ، وكيف يسيطر الوهم على الناس ، ويخدعهم ، وكيف تنشأ العقد النفسية ، وكيف إنخدع الملايين من أفكار الغير وكيف تأثرت الملايين بأفكار الزعامات ، وبما تنشره الصحافة ووسائل الإعلام إلخ .

وقد أتفقت معظم الفلسفات الحديثة ، والأفكار المنبثقة عنها ، أن مملكة السماء ، تشمل الأرض ، وأن الحياة فوق هذه الأرض ، قائمة بذاتها وأن الأرض لها شخصيتها ، وصفاتها ، وقدراتها

وأن القوة المحركة للبشرية نابعة من ذاتها ، وأنه يجب على الإنسان أن يقتنع بأنه هو المدير لأمر نفسه ، وأنه إذا تخاذل ، وركن على شىء آخر خارج عن ذاته ، فهو فى ضلال وضياع ، ولا يلوم إلا نفسه ، لأن القدرة الفاعلة قائمة فيه ، فإن تخاذل وتكاسل فهو الملوم ، وقال تعالى « أعملوا فسيرى الله عملكم » « كل

الفصل السادس

الحرية فى التقوى

إن التحرر من عبودية الدنيا ، يحتاج إلى عمق النظرة ، فالمسيحية ترى أن مملكة السماء ، تختلف إختلافا جوهريا ، عن هذه الدنيا التى نعيش فيها . فالدنيا عالم مليء بالإثم والخطيئة ، وسوف ينتهى إلى الخراب والدمار .

ولكن البوذية ترى أن الحياة فوق هذه الأرض يمكن تطويرها روحيا إلى حياة مثالية جميلة ، فى صورة من صور الجنة ، وذلك إذا تمكن الإنسان من تحرير نفسه من عبودية الدنيا ، وارتفع بأعماله وأفكاره إلى صفات الإنسان الكامل وابتعد عن الصفات الشيطانية وهى الصفات المدمرة للبشرية كالقتل والسرقة والاحتيال والغش والفسق والفجور ، والرشوة ، ومحاولة تدمير الغير ، والجشع فى جميع صوره ، إلى غير ذلك من الصفات المرزولة والمدمرة والتى تنهى عنها الأديان .

وأن يتمسك الإنسان بالصفات الكريمة التى تحض عليها الأديان كالحب ، وفعل الخير فى جميع صوره ، وإجادة أعمالنا ، ومتابعة تطور العلم .

والبوذية ترى أن الله سبحانه وتعالى خلق الدنيا فى صورة جميلة وضاءة ، وجعل فيها خلفاء له ، من ذاته وصفاته ، لكى تأخذ الدنيا زخرفها وحتى يعيش الناس سواسية فى ظل الحب والمشاركة الفعلية ، أو الاشتراكية السليمة ، التى يعمل فيها الفرد فى سبيل للكل ، وبذلك لا يكون هناك فرق جوهرى بين الأولى والآخرة لأن كلاهما وجه للاخر ، وكلاهما فى قبضة الحقيقة ، فمن كان فى هذه الدنيا أعمى ، فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا .

صلة الإنسان بهذا الإله ، وبمعيته ، وتحث الإنسان لـكى يتعاون مع هذه القدرة لـكى يكون جديراً بخلافتها وإظهارها ، بل أن يكون وجها لها فى كل صفاتها النبيلة وأفعالها . والبوذية تهدف إلى خلق تعاطف ورفعة بين الإنسان والله ، حتى تتقدم البشرية جمعاء ، فى ظل هذا الحب الالهى الذى يهدف إلى المشاركة والتعاون والعدالة ، لتقدم البشرية تقدما نظيفا متسامياً عن كل قبيح .

وعرف قومه أنه فى الامكان ، أن تتحد مملكة السماء ، ومملكة الأرض ، إذا تطهرت الأنفس من شرورها ، وصفت من الغل ، والحسد، والحقدوالكراهية والاستغلال ، ونزحت عنها تثاقلها إلى الأرض ،وخفت من ترابيتهاوأمتلأت القلوب بالغبطة والفرح ، وعم اليسر بين الناس ، ودخل الحب الصافى إلى قلوب المؤمنين ، فأصبحوا بنعمة الله اخوانا ، عندئذ تتوحد مملكةالسماء ومملكة الأرض،وتصبح الأرض جنة المأوى . . . .

فالحياة الدنيا هى حياة زمنية ، موقوتة من صفاتها القوة والضعف والصحة والمرض وحب المال والجنس ، والطموح والعمل الدائم والحركة المستمرة ، ويجب علينا تطوير هذه الصفات حتى ترتفع عن الرغبات الفردية ، بل تكون رغبة شاملة جماعية لما هو أفضل وأكمل للبشرية كلها التى هى نفس واحدة وإنسانية واحدة ، ذرية بعضها من بعض . فالحياة شركة ، والشركة مشاركة ، والمشاركة هى مقاسمة الند للند . . . وهذه هى تعاليم كتاب الجيتا المقدسة للوصول إلى الكمال ، وذلك لن يكون واقعاً إلا بالعطاء ، إن الدين لواقع ، والواقع ، هو تنازل الإنسان عن أنانيته ، بالبذل والعطاء فى سبيل المجموع أى فى سبيل الإنسانية الواحدة ، فى سبيل النفس الواحدة ، فى سبيل الروح الموحدة للكل ، والمحركة للكل .

والإنسانية هى الأمر الوسط بين الروحية والمادية ، فهى الجامعة بين الروح والمادة فى امتزاج وتزاوج ، بين الظاهر والباطن .

والبوذية ، تؤكد الحياة الروحية فوق هذه الأرض والجيتا تشرح مثالياتها ، وتهدف إلى تحرير الإنسانية من عبودية النفس إلى شفافية الحقيقة .

وهى لا تكتفى بأن يعرف الإنسان أن هناك إله وحسب ، ولكنها تؤكد

هو وحده الذى سيدخل جنة الله ، أما المنكر للمسيحية فهو مطرود من هذه الجنة ، وهو من الهالكين فى النار .

أما فى الفكر البوذى ، والهندوكى ، فإن رحمة الله وسعت كل شىء ، فالبشر جميعاً أبناء الأبدية ، فمن كمل منهم روحيا ، فهو فى رحاب الله حتى يأتيه اليقين .

والمسيحية تعتقد ، أن الحياة الأخرى حياة خلود ، يدخلها المؤمن بعد القيام من القبور ، وفيها الحكم لله ، بعد أن ينسحق الشيطان .

وكما كان فى فلسفة الأغريق قديما ، كيف أن هرقل قتل الثعبان ، وتحرر من مخاوفه ، وعاش فى صفاء النفس ، نجد أن المسيحية أشارت إلى وجوب التغلب على ثعبان العقل ، أو شيطان النفس البشرية الامارة بالسوء ، وقتل هذه النفس بالزجر والتقريع واللوم والمحاسبة .

وقد ضحى السيد المسيح بحياته لخلاص البشرية .

أما الفكر البوذى ، والفكر الهندوكي ، فهو يعبر عن الثعبان (أو الشيطان) بالنفس الشريرة الأمارة بالسوء ، وهو لا يعتبر نفسه فى حالة عداء معهذه النفس ، وإنما يحاول أن يغيرها ويطورها إلى الأحسن ، فليس هناك عداء بين النفس البشرية والروح .

وفى قدرة الانسان ، بالفهم السليم ، والعمل الصالح أن يتوائم مع روحه ، حتى يستنير قلبه ، ويتحرر عقله ، فبالحكمه وحدها ، يستنير الانسان .

وهذا ما فعله الحكيم بوذا ، عندما رأى شرور الحياة ، هجر قصر والده المهراجا (الملك) ، وذهب ليتعبد فى مكان قصى ، يتأمل فى آيات الله ، ويتطهر ، حتى صفا عقله ، وأستنارت بصيرته ، وتغلب على نوازع النفس وشرورها ، ولما تفتح قلبه ، وغمرته المعرفة والحكمة الالهية ، عاد إلى قومه ، يعلمهم الكتاب والحكمة ، ويبلغهم أعمدة الحكمة والأنوار الربانية .

ويرى غير المؤمنين بالأديان، أن هذه الأفكار ما هى إلا أساطير الأولين ، وأن الحياة ما هى إلا هذه الحياة الدنيا بشرورها وأغوائها وآلامها ، وتتحكم فيها النفس والغريزة الجنسية ، وحب المال والبنون ،ويتحكم فيهاقادةمحبون للسيطرة.

وأن نهاية هذا العالم بشروره وآثامه الدمار،وأنه سيحل فوق هذه الأرض بدلا من هذا العالم الشرير عالم آخر تسوده المحبة والاخاء والكمال وبذلك ينتصر الخير .

وإذا قارنا بين أفكار البوذية والمسيحية لوجدنا أن هناك تقارب بين الأفكار فكلاهما يعترف بأن سلوك الانسان الطيب فى هذه الحياه سيحرره من العذاب ، وأن تضحية ، النفس فى سبيل الصالح العام ، هى إسمى درجات التضحية ، وأن التغلب على الشرور يحي النفس ويحفظها من الآلام فالمسيحية ترى فى حياة الدنيا ، شرورا كثيرة يجب أن نترفع عنها ونبذها ، وأن العنف والغضب يؤديان إلى دمار الانسان ، وأن الحياة المادية ، إذا طغت فيها الأموال ، وتعالى فيها أصحاب الجاه ، ومراكز القوى ، وإذا تداخلت القوى السياسية ، وبرزت حياة الجنس والمجون ، فعلى الدنيا السلام والبوار . ولكى تقاوم مثل هذه الشرور يجب أن نسمو بأخلاقنا فوق هذه الماديات ، وأن نتجه إلى الفهم الروحى والحياة الروحية .

وهذا ما يراه رجال الدين ، والنساك فى المعابد البوذية ، فهم يعتقدون أن حياة المعبد هى إسمى أنواع الحياة ، المؤدية إلى الحكمة .

وبالرغم من هذا التقارب ، إلا أن هناك بعض الاختلافات الجوهرية،فالمسيحية تعتقد أن مملكة السماء (الجنة) أو العالم الغير منظور لنا ، عبارة عن عالم لاهوتى يحكمه أب سماوى رحيم . أما جنة البوذية ، فهى حالة من السلام النفس يصل إليها العابد ، بعد أن يستنير قلبه ، ويعيش فى إطار من السعاده والمعرفة الروحية فى ظل فناء النفس ، فى النفس العليا ، فى اللانهائى الوجود .

ونجد فى الفكر المسيحى ، أن الفارق كبير ، فالمسيحى المؤمن ،

وهذا التحرر والتفتح يسمى فى البوذية . Bodhisattva sdeal ، وهو ركن أساس فى العبادة البوذية المسماه « Maboyuana »

واستمر « بوذا » فى نشر تعاليمه بين الناس ، وحثهم على التأمل ، والتعبد ، وتصحيح مسار حياتهم ، بالعمل الصالح ، والخلق الكريم ، حتى يكونوا على السرائط المستقيم :

وضحى بوذا بحياته الدنيوية ، وأوغل فى سماء الروحانيات ، وأخذ على نفسه عهداً ، أن يخاص البشرية من ويلاتها ؛ وأنه لن ينقطع فى آخرته كما كان فى أولاه ، مرشداً ، ومعلما ، للبشرية حتى يدخل الجميع فى السلم والسلام ، وحتى ترضى العباد ، وتدخل راضية مرضية فى مملكة النور .

والديانة المسيحية ، ترى أن رسالة المسيح ، جاءت لتحرير الانسان ، ليدخل مملكة السماء ، أو جنة الله . ورأى المسيح عليه السلام أن المملكة القادمة هى مملكة الخير والوفاء والحسب والحق والعدالة . وعرف أن هذه الحياة ، مملوءة بالشرور والآثام ، والرذيله والآلام وأن الشيطان هو المسيطر على غالبية العباد . ورأى المسيح عليه السلام أن الغلبة فى النهاية لقوة الحق التى هى قوة الله العظيم ، التى ستقهر الشر أو عمل الشيطان .

وأن الذين سيتبعون تعاليمه سوف يدخلون مملكه السماء أو الجنة . وأن الذين رفضوا تعاليمه ، أو بغوا عليه ، سوف يبعدون عن جنة الله أو مملكة الله .

ويرى الناس أن جنه الله غير المشهودة ، هى مكان هينىء تغمرة السعادة يخلد فيها الناس بعد حياة القبر .

وتعد الأديان ، اليهودية ، والمسيحية والاسلام ، المؤمنين ، والصالحين ، والعاملين بتعاليم الأديان ، بالدخول فى هذه الجنة بعد الموت الا كلينيكى .

وحتى فى الإقليم الواحد ، ترى أن كل شىء يحتاج إلى شىء آخر ، وكل إنسان يحتاج إلى الآخر لكى تستقيم الأمور ، وحتى فى الأسرة الواحدة ، الزوج والأولاد فى حاجه إلى كليهما ، والمجتمع يحتاج إلى مجتمع أكبر ، فالحياة بذل وعطاء ، ومد وجزر .

وإن بدت الكائنات منفصله ، والمظاهر مختلفة ، إلا أن الخلفية واحدة ، والكون وحدة واحدة ، ووجود واحد ، وحاضر واحد .

والصوفى ، يعتبر نفسه فى خدمة الوجود الكلى ، وفى خدمة الإنسانية ، كإنسانية ذات وجه واحد وصبغة واحدة ، حتى ساعة الخلاص من الدنيا كجسد مادى ، وبعد الانتقال إلى حياة الروح يظل فى معراجه ، من العالم والآخر يعطى ، بحذق ومهارة ووعى ، من خلال تغذية أفكار الناس بالإيحاءات المختلفة التى توجه البشر ، للعمل الصالح ، والإختراعات التى تفيد البشرية وترفع المعاناة عن البشر ، بل ويعتقد البعض أنه فى الامكان العودة إلى الحياة البشرية من خلال ميلاد جديد ، لكى يرفع المعاناة عن شعب من الشعوب ، أو يعطى علما جديدا ، أو معرفة جديدة ، أو ليتمم عملا جبارا قد بدأه ، أو ليعطى مفهوما وفى التصوف الهندى يعتبر الحكيم بوذا مثال حق للصوفى فقد تنازل بوذا عن عرش أبائه وذهب للبحث عن المعرفة ، وضحى بكل ثرواته وممتلكاته وزهد الحياة ، ورأى فيها الموت والضنك ، والتعسف ، والمعصية ، والآلام ، والبؤس والشقاء ، والمرض ، والخداع ، والشرور ، والآثام ، فهرع إلى الغاب وجلس فى ظل شجرة ، يتأمل الحياة ، ويتفكر سنوات طوال حتى أستنار عقله وأستضاء قلبه ، وعرف من أسرار الحياة ماعرف .

ولما أكتملت إنسانيته ، وتفتحت بصيرته وتحرر من الدنيا وخداعها وأطفأ فى نفسه نار الرغبات ، والأنانيه (الكبر) والجهل ، والخوف والقلق ، عاد إلى الحياة إنسان متكامل متحرر ، ليهدى الناس إلى المعرفة ويخرجهم من الظلمات إلى النور .

الراغبين فى المعرفة الروحية ، بتولونهم بالدرس والتوجية ، دون أن يتداخلوا فى معركة الحياة ، ويعتبرون ذلك الوجه الأمثل ، وهذا هو طريق النساك فى الديانات البوذية ، ويسمى (براتى كابودها) praty halnd ha

والبعض منهم يسمى فى الطريق ، حتى يستنير عقله ويستضىء قلبله بشعله الأنوار القدسية فهو كالمصباح فى الزجاجة ، يضىء عالمه الخاص .

غير أن الصوفى ، المتحقق بالحق واليقين ، لا يتسكنز ، ولا يتقوقع ، ولا يهرب من مواجهة الحياة ، بل يدخل الحياة من أوسع أبوابها ، ويضع دستورا من المعرفة ليغذى البشرية ، ويدفع بالناس إلى سلوك سبيل الحق واليقين ، فى قوة دافعه للبشرية للنهوض من عثراتها ، وتحرير العباد من الظلم والطغيان ، وحث الناس على فعل الخير . وحب الناس . وخدمة الناس ، وإتقان العمل ، وتطهير النفس ؛ حتى يعيش الناس فى إشتراكية وسلام ، ولا خلاص للانسانية مما تعانيه ، ألا إذا تحررت الناس من أستعباد بعضها البعض ، ومن أستعباد المال ومشتقاته من أثقال الحياة ، ومباهجها الهمجية .

ووجهة نظرهم ، أن الحياة متكاملة ، مهما تباعدت الأقطار والممالك ، ومهما أختلفت اللغات . والأديان ، وألوان البشر .

فالعالم ككل يتوقف فيه كل شىء على شىء آخر فالأرض ترتبط بالشمس ، والهواء ، وقوانين الجاذبية والكواكب إلخ .

والحياة فوق الأرض ، كل شىء فيها يكمل شىء آخر ، ويعتمد على شىء آخر ، فالخامات متوفرة فى أماكن مختلفة ، أو قليله أو نادرة فى أخرى ، وهناك دول صانعه ودول مشتريه ، ودول زراعية ، والإنسان يعمد على الحيوان ، والحيوان يعتمد على ما تنتجه الأرض .

الفصل الخامس

التحرير الكلى للبشرية

والفرض الثالث من التصوف ، هــو محاولة لتحرير الإنسانية لأن المتصوف عندما يبلغ قمة المعرفة ، ويتحرر من عبودية الحياة . يرى نفسه كسفينة النجاه أو كنشارة الميناء ، واجبها هداية السفن للمرفا فى أمان .

فالصوفى المتحقق ، لا يهدأ ، حتى يعرف النــاس سبل الخلاص ، ومــكارم الأخلاق ، وخلق المجتمع المثالى لأنه يعرف أن مراد الخالق ، هو بلوغ المثالية عن طريق التخلق بخلق الله وصفاته الحسنى ، التى وهبها للبشرية ، والتى هى نبع من النفس الواحدة ولذلك جاءت تعاليم الأديان كلها ، بهدف التهذيب ، وبهدف إتمام مــكارم الأخلاق .

والتصوف يرمى إلى حشد قوى الإنسان الروحية ، لخلق عــالم أفضل منتظم ومتناسق . يعيش فى صحبة وسلام ، يعاون بعضه البعض ، ويشد بعضه البعض ، لبناء مجتمع نظيف ، متحاب ، يحقق فيه الإنسان مــكارم الأخلاق ، ليستحق أن يوصف بخليفة الله فى أرضه ، أرض السلام ، وأرض المحبة ، أرض الله .

غير أن كثيرا من السالــكين فى طريق التصوف ، لا يرجون الاخلاص أنفسهم فإذا ما بلغوا شأوا من المعرفة تــكنزو ، وعاشوا فى وحوانيتهم قابعين .

وآخرون ممن سلــكو الطريق الروحى ، وحققوا شيئا من المعرفة . يضعون أنفسهم فى خدمة الراغبين فى متــابعة الطريق ، فيأسرون حوالهم بعض المريدين

الباب الثالث

الفصل الأول

الفكر الهندى فى فلسفة الحياة

قامت الفلسفة الهندية ، منذ قديم الزمن ، على أساس التناغم والتوافق بين الإنسان وروحه ، ثم التوافق بين الإنسان وأخيه الإنسان .

وظهرت فلسفة اليوجا ، مرآة لهذا التوافق ، وشملت فلسفة اليوجا ، عدة سبل ، اعتبرت بمرور الزمن قوانين ، ينهج على مثلها كل جيل . فالنهج الأول فى تلك الفلسفة هو الهاثا يوجا .

الهاثا يوجا

والهاثا يوجا هو سبيل فى الحياة ، يعمل على تقوية الجسم والعقل ، ويربط بينهما برباط الروح ، وينتهى فيه المزيد بالسيطرة على الجسم من خلال ترشيد العقل . والهاثا يوجا تتحكم فى الأعصاب ، وتغمر الجسم بقوى عارمة .

وبممارسة هذه الرياضة العظيمة ، تخلق الإنسان القوى القادر على التحكم فى أعصابه ، والسيطرة على جسمه ، وتبرز شخصيته ، وتجلو روحه ، فتظهر كوامن القوى الدفينة فى الإنسان وهاثا Hatha Yoga كلمة تشمل صفتين هما الـ (ها) Ha ومعناها بالهندية الشمس ، (وثا) Tha ومعناها القمر ، ذلك أنها تتحكم فى إنسياب التنفس من الفتحة اليمنى وهو ممثل قوة وحرارة الشمس ، والفتحة اليسرى وتمثل هدوء القمر وصفائه .

والأساس الذى تقوم عليه الهاثا يوجا ، هو التمرينات الرياضية المعروفة باسم « أسانا Asana » وبرانایاما Prânyama .

(والأسانا) Asana تشتمل على بضع مئات من التمرينات الرياضية المفيدة جدا للجسم ، ويمكن الرجوع إليها فى كتابنا « اليوجا والشباب الدائم » ، « واليوجا علاج وشفاء .

(والبرانایاما) كذلك تشتمل على عشرات التمرينات ، التى تنظم التنفس العميق ، وتكسب الجسم الحيوية والحياة وتغذى الغدد بوافر من الحيويات ، وتنعش الأعصاب وتنقى الدورة الدموية ، وتوقظ القوة الكامنة فى الجسم ، والتى تعرف بالكاندالينى (Kundalini) ، ويمكن الرجوع إليها بعمق وتوسع ، فى كتابنا « اليوجا ينبوع السعادة » .

والممارس لهذه الرياضة « الهاثا يوجا » بانتظام ، سوف يصل فى وقت قريب إلى السيطرة على جسمه وعقله، وكسب الحياة ، من خلال كسب القوة والحيوية .. وفى الوقت نفسه يكتسب الهدوء والسلام العقلى ، والشباب الدائم .

الراجا يوجا Roja Yoga

النهج الثانى فى فلسفة الفكر الهندى هو الراجا يوجا ، وكما أن الهاثا يوجا تسيطر على الجسم ، وتبعث فيه النشاط والقوة ، فالرجا يوجا تهتم بالعقل ككل ، وتفصل نوازعه ورغباته وهفواته ، ثم تسيطر عليه وتوجهه إلى أسمى درجات المعرفة ، وتخلق فيه الاتزان والهدوء ، وقوة الفكر ، والتركيز ، حتى يشع نوره فيغمر الإنسان، بالمعرفة ، فيتحكم فى تصرفاته ، ويحكم عواطفه ونوازعه الجنسية ، وميوله ، ويحول الإنسان ، إلى مخلوق ناجح ، شريف ، كريم الخصال ، نقى السريرة ؛ فيكون بيتا طاهرا لسكنى الروح .

كما أن تدريبات « الراجا يوجا » تخلق فى العقل ، التعقل ، فلا يندفع وراء

الأشياء ، راغبا فى تملك كل شىء ، أو راغبا فى محاكاة الغير فى تملك كل مايراه ، ولا تهدأ نفسه إلا بالحصول على كل رغباته دون اكتفاء ، وبذلك هى تزيل الجشع والطمع المرزول ، وتضبط نوازع النفس ، لكى يعيش الإنسان فى واقع الحياة . « إرجع إلى كتاب العقل المتحرر » .

وهى لا تشوه الفهم من ناحية الإطلاق والوجود ، أو من ناحية الحقيقة الغيبية ، والحياة الدنيوية ، فهى لا تتنكر الحياة ، كما ينكرها البعض الذين يعتقدون أن الدنيا وهم وخيال وباطل ، ولكنها تتعامل مع الدنيا كوجود مؤقت ، له دلالته وفاعليته وتطوره ، فى ظل المفهوم الروحى للانسان ، والطاقة الكامنة فى الروح التى تدفع عجلة الحياة .

وهى تتعامل مع الدنيا ككل ، دون أن تلقى بالا للنظريات التى تبحث فى حقيقة الدنيا ، وهل هى خيال ووهم أو حقيقة ، وبذلك تعطى مطلق الحرية للانسان ، لكى يعمل دون معوقات فكرية ، أو مثبطات للهمم ، فالإنسان مسئول مسئولية كاملة عن حياته ، وبما جبل فيه من نور الحقيقة ، فهو الفاعل الأصلى للحياة ، بما قام فيه من قائم وقيومى الحياة ، دون أدنى شك . وأن على الإنسان أن يفحص الحياة بعمق ليرى ما يجرى فيها من تذمر ، وعصيان وتمرد ، وثورة ، ليعرف أن كل هذه المظاهر صادرة من النفس الأمارة بالسوء ، أما النفس المطمئنة ، فهى شعلة قدسية نورانية يمشى بها ذوى البصيرة فى الحياة ، فلا يعملون إلا كل خير لصالح المجموع ، ولصالح البشرية جمعاء .

وعلى الإنسان أن يغوص فى أعماق الحياة ، ليعرف ما هو حقيقى عما هو وهم وخداع ، وليحول خداع الحياة ، إلى عمل من أجل الحياة ، ومن أجل الحقيقة الروحية الدائمة .

ولكن تبلغ قمة المعرفة يلزمك حسن السلوك ، وهو السراط المستقيم ، ولكى تسير على هذا السراط ، يلزمك صادق الرؤيا ، وهى تبدأ بالتركيز (dhārāna) ،

ومن التركيز تنتقل إلى التأمل (dhyana) ، والتأمل هو لحظة الرؤيا الصادقة فى القلب، ثم تنتهى إلى اليقين ، وهو تمام المعرفة وهو مايسمى بالسمادى (samadhi).

واليقين يؤدى إلى نقاد السريرة ، وإنارة العقل ، ومعرفة النفس فى صورها المختلفة من نفس أمارة بالسوء ، إلى النفس اللوامة ، والنفس العقلية ، والنفس الراضية ، والنفس المطمئنة ، والنفس العارفة ، حيث يرى الإنسان حقيقته بوضوح وجلاء ، كما يرى صورته على سطح المرآة ، أو فوق سطح بحيرة ساكنة وشفافة. وهنا يتحدد عقله المستنير ، ويعتق من عبودية الرغبات الملحة ، وأوساخ النفس الأمارة ، ويخرج من الجهل إلى النور .

ولكن هذه الرؤيا غير كافية ، لأنه رأى نفسه المنظورة ، نفسه الظاهرة ، نفسه المدركة بالحواس ، ولكنه لم ير الباطن ، لم يعرف حقيقة الذات ، الحى القيوم .

وعلى أن يستكمل المعرفة ، يجب أن يتقدم أكثر عمقاً ، إلى الدرجة الرفيعة ، حيث يجتاز المعرفة العقلية ، وذلك أن للعقل حدودا ، فتختفى المرآة ، وتصبح الرؤيا نظرة ، فيعرف الإنسان حقيقة ذاته ، إنها ليست الصورة الظاهرة ، بل هى المتجلية فى الباطن ، وتسمى فى علم الراجا يوجا (Nirikalpa samadhi) وهى حالة البقاء بالله بعد فناء النفس .

وإلى هنا تكون الراجا يوجا قد وصلت إلى كمال المعرفة ، وأحاكت تصورها بمهارة . غير أن الراجا يوجا فى هذا المقام من معرفة الذات تقف إلى حالة من السكون والنقاء ، والتسامى ، ولكنها لا تبلغ الكمال فى تحقيق الذات من الناحية الديناميكية ، فلا تبلغ بالإنسان حالة من كينونة الاستقرار والرسوخ . ذلك أن ذكاء الإنسان لا يناسبه الخمول أو التوقف وهو يحاول دائما بتعاونه مع القدرة الخالقة أن يستمر فى التطور والإرتقاء .

ولكى نصل إلى ما هو أفضل ، وجب أن نكرس الجهود ، لكى نصل إلى معرفة أفضل ، وعلينا أن نعود لفهم ما قصده الخالق من حتمية الوجود .

ومع هذا النقص فى المفهوم الراجا يوجى ، إلا أنها طريق مبدع للسلام النفسى ، ولتهدئة العقل الشتيت ، وتثبيت النفس .

وإذا تعمقنا فى بحث المعتقد ، الذى يعتقده بعض المتدينون ، أو بعض سطحيوا الصوفية من حيث نكران الدنيا ، وعدم إعطاء الحياة قيمتها ، لوجدنا أن هذا التصرف مرفوض من الحقيقة ، ذلك أن الله غنى عن العباد ، وأن مراد الخالق من العباد ، هو العمل الدائم لصالح البشرية وتقدمها .

ونجد أن الإسلام ، قد أكد هذا فى مواطن كثيرة فى كتاب الله ، وفى أقوال الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومنها :

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » . « ليس للانسان إلا ما سعى ، إن سعيه سوف يرى » .

« فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة »

« وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً » .

« وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نكلف نفساً إلا وسعها »

« وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فى ما آتاكم » .

« إنا لانضيع أجر من أحسن عملا » .

« ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ، إن الله لغنى عن العالمين » .

وفى الحديث الشريف « ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ولا الآخرة للدنيا ، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه » .

ومن هذا نرى أن مراد الخالق من الإنسان هو العمل الدائم والمجاهدة ، والمجاهدة هنا كلمة شاملة لكل أنواع المجاهدة فى الحياة . والمجاهدة الجماعية خير من المجاهدة الفردية ، فالله سبحانه وتعالى يحب المشاركة والتعاون بين الناس على الخير والحب ، « فالناس بخير ما تعاونوا » ، ويوصى الله بأداء العمل فى اتقان ، وفى قوله « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه » .

وقد أوصت كل الأديان ، بالعمل ، ومساعدة الناس فقراؤهم وأغنياؤهم ، وأوصت بالجار ، وذوى الرحم ، وضرب الله الأمثال فى تجمع النحل ، وتجمع النمل ، وتآلف الطير ، وكيف يعمل كل منها كوحدة واحدة وأمة واحدة .

فبالتعاون بين الناس يمكن إنجاز الأعمال الكبار ، التى يعجز الفرد وحده أن يقوم بها ، فلو جمع شعب من الشعوب قرشا من كل مواطن ، لتجمعت ملايين الجنيهات كل شهر ، لانجاز مصنع ، أو زراعة أرض ، أو بناء عمارة سكنية ، فالحياة بطبعها إجتماعية والإنسانية تعتبر نفس واحدة ، لا فرق بين فرنسى وعربى فكلنا أبناء الأرض ، تلك النقطة الضئيلة المعلقة فى الوجود الكبير اللانهائى . فلو تجمعنا كبشرية واحدة فى محبة وصفاء وطهرنا قلوبنا من الأغيار ، لجعلنا من كوكبنا جنة فى عرض السماوات تحف بها الملائكة ، وتتلألأ أنوارها .

تانترك يوجا (Tantric Yoga)

التانترك يوجا فلسفة هندية قديمة تتعلق بعبادة الخالق ، ويسميها البعض (كابندالينى يوجا) ويدخل ضمن هذه الفلسفة الكثير من علم النفس .

وتفسر التانترك يوجا الوجود بأن له مظهران يكمل بعضهما البعض كالليل والنهار ، هما الذكورة والأنوثة . ويرمز للذكورة بكلمة سيفا (Siva) ، ويرمز للأنوثة بكلمة ساكتى (Sakti) . والذكورة (سيفا) هي كينونة صافية النقاء كاملة ، وتنبع منها الحكمة ، وفيها استمرار تواجد ، وفى معنى أعمق هى كلمة الله من الله .

والأنوثة (ساكتى) هى الأمومة المقدسة ، وهى محور الاستمرار فى الحياة ، أي هى حواء الموجودات ، بما حوته من أنواع الموجودات ، وأنسبابها المختلفة فى مطلق الوجود ، فما تواجد كائن من الكائنات الحية فى عالم النبات أو الحيوان إلا وعنها كان ، فهى تعبر عن أبدية الاستمرار والتطور لبلوغ الكمال عبر الزمن . وهى وسيط اللانهائى فى دوام ظهور مفرداته ، وهى وسيط عودة المحدود إلى المطلق ، أو عودة النهائي التواجد فى لا نهائي الوجود . فالأنوثة بمعنى الأمومة ، هى وسيلة بلوغ الكائن الحى إلى كماله ، فالأم هي المدرسة التي يتعلم فيها الكائن الحى ، حيث يتشرب خبرات الماضى كلها وتوجيهات المستقبل .

إن العالم الظاهر ، طاقة فعالة ، دائمة التواجد ، فى شكل نمطى ، لا يبطل ولا يخمد تكراره . فالحياة حركة وعمل ونشاط أينما كان مظهرها ، وجميعها منبثقة من القدرة الكونية الخالقة .

وهذه القدرة الكونية ذات وعى وبصيرة ، ولكنهما يختلفان عن الوعى

العقلى للانسان ، لأنه وعى أعلى وبلا حدود ، وبصيرة متميزة فى عمق واتساع وبلا نهاية .

هذه القدرة الكونية ، خلقت الإنسان ، وجعلته سكنا وبيتا معمورا لها ، ومركزا منيراً . وهذه الذرة الكامنة فى الإنسان ، هى المركز الحى القادر فى الإنسان ، ويسميها الهنود (السكنداليني) ويعبرون عنها بالقوة الحلزونية أو الثعبانية ، لأنها تكون كامنة فى أسفل الجسم فى حالة هدوء وملتفة كالثعبان فى بياته الشتوى . فإذا نشطت انفرجت ، واندفعت بطاقة وقوة عظيمة . وهى فى حالة الهدوء ذات مظهران ، أحدهما ثابت كامن ، والآخر منطلق فى صورة التنفس ، والهضم ، والإخصاب ، والطرد ، وحركة القلب ، وكلها مظاهر تعمل ذاتيا دون تدخل من الإنسان أى ذاتية الحركة ، دون وعى وتدخل ، وهى تعمل بنظام دقيق ودائم ليل نهار . وبجانب هذا فالأحاسيس ، والإدراك العقلى ، والانعكاسات ، والدوافع ، والعواطف ، كلها مظهراً لهذه الطاقة (السكنداليني) .

ولكى نزداد وضوحاً ، نشرح الذرة ، وهى عبارة عن نواة ، تتحرك حولها السكترونات سالبة ، أما النواة فموجبة الشحنة .

وهكذا جسم الإنسان ، بداخله نواة ثابتة وموجبة الشحنة ، (هى السكنداليني) ، وتدور حولها أشكال الحركة المختلفة .

وعلم التانترك يوجا (Tantricy) هو الفن الذى يفتق هذه الذرة الروحية فى الإنسان ، لكى تتحرك وتنطلق وتشع وتنير الهيكل . فإذا انطلق هذا المارد النورانى فى الإنسان ، ظهرت قوة ديناميكية ، تفوق الحدود المعروفة للانسان ، ويكتسب قدرات عقلية عظيمة ، وثقة بالنفس ، وعلم وفهم عظيم عن الأعلا ، وإدراك كبير لمعنى الحياة ، نابع من الأعماق . فيشعر الإنسان بمعية الله معه ،

وأن الله سبحانه وتعالى سندا له ، ويغمر نفسه قوة نابعة من الأعماق ، ويغمر قلبه نوع من الحب السامى ، حب من الله ، وحب فى الله ، وحب بالله مع سائر مكونات الوجود ، فلايتحرك إلا بالحب ، ولا يعمل إلا فى سبيله ، وتصاحبه نظرة استشراق ، وتألق ، ويشتغل قلبه تشوقاً للاعلا اللانهائى الوجود .

وتصاحبه رؤية فكرية ناضجة ، وتفتح عقلى كبير ، وتزداد مراقبته لنفسه ، ويتفتح إدراكه تفتحاً كبيراً ، ويصبح ذو زمرة فى بحثه وانطلاقه ، راسخ العلم والمعرفة ، غير مزعزع الأركان .

وتعتبر التانتراك يوجا قمة من قمم التصوف فى الهند، لأنها تزكى الروح، وتنظف السريرة ، وبانطلاق الكاندالينى ، يتطور الإنسان ، ويترقى فى معراج المعرفة .

على أن الإنسان السالك فى هذا الطريق ، يكون قد مر أولا بالكثير من مفاهيم الدين، ودخل فى صلوات ركيزة عميقه يغيب فيها عن نفسه، وقد عرف الكثير من المفاهيم بعمق وبلا سطحية ، وتخلص من شرور النفس ، ومزاق العقل ، وكانت معاملاته من خلال الخلق الكريم ، وهذا عزيز المنال فى هذه الأيام . .

فإذا بلغ الإنسان هذا المبلغ ، واعد نفسه ، وطهر قلبه من الأغيار ليدخل صافيا إلى علوم الروح ، فيرجع إلى ربه راضيا مرضيا .

وهذا الإنسان التقى النقى، إذا مارس تدريبات الكنداليني وحانت لحظة نضجه ، أنشقت فى داخله النواة ، وشع نورها ، وسطع بصيصها، وظهر الفجر فى وداخله ، أصبح ذو حظ عظيم ، وتولته العناية الروحية، وقامت فيه الأنوار يمشى بها فى الناس.

بعد ذلك تصبح تأملاته الروحية تلقائية ، ويصبح ذاتى النظرة دون جهد ، وينبع منه المعارف ، ويتسع إدراكه للحياة ، فيستمتع بها دون أن يخدش الحياء أو تخدش دوافعه وأحاسيسه .

ثم تتسع نفسه للكل دون حقد أو حسد أو ضغينة . وتتحول كل دوافعه فى

الحياة إلى التسامى . وفى النهاية تصبح كل أعماله فى سبيل الله فيكرس نفسه لخدمة الله فى خلق الله ، ومحبة فى الله .

ونهاية المطاف فى فلسفة التانترك ، هو التوحيد ، أى اتحاد السالب والموجب ، أو فى معانى اليوجا ، اتحاد (سيما) مع (سالق) ، وفى فلسفة التصوف اتحاد الساكن والمسكون ، أو اتحاد العامر والمعمور ، أو اتحاد القلب والقالب .

وتختلف التانترك عن المفهوم الغربى الثقافى والدينى ، الذى يضع بعض القواعد لتهذيب النفس وإعدادها أخلاقيا للحياة الأخرى ، سواء بالتخويف من عذاب النار أو القانون ، أو بأمل التواجد فى جنات النعيم .

وتعرف الأديان أن الحياة الأخرى هى حياة روحية وعقلية ، ولا مادة فيها أو جنس ، بل هى حياة روحانية وصفاء .

أما فلسفة التانتراك ، فهى ترمى إلى واقع هذه الحياة ، وترفية الإنسان فيها ، وترقية أخلاقياته ، حتى يصفو ، وترتفع قدراته للعمل الجاد ، وكسب معانى الحياة الكاملة ، فوق هذه الأرض ، حتى تتخذ وصف الجنة ، أو حتى يعيش الناس بالحب للوصول إلى حياة أفضل ، وأئمة هذه الفلسفة (التانترك) يعرفون أن الله محيط بالوجود ، وأنه مع الإنسان على دوام ، منذ بدء وحتى مالانهاية . فلماذا نفصل أنفسنا عنه ونخاصمه نخاصمه ، ولا نعرفه إلا بعد انتهاء الحياة الزمنية ، ولا نعرفه أيضاً ، لأن الجهل به فى هذه الحياة سوف يستمر معنا ، وهذه خسارة عظيمة لا يدركها الإنسان .

ولكن إذا تأملنا فى حياتنا اليومية ، وفى تصاريف الحياة ، وإذا تأملنا فى الآفاق وفى أنفسنا سوف نرى ملكوت الله .

وهنا تظهر عظمة الإسلام فى قوله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » .

« وفى أنفسكم أفلا تبصرون » — « معكم أينما كنتم » — « ما تناجى اثنين إلا وكان الله ثالثهما » . . . الخ .

فمن كان فى هذه الدنيا أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا « واذكر ربك فى نفسك تدرعاً وخيفة ، ودون الجهر من القول بالغدو والأوصال ولا تكن من الغافلين » .

وتقول التانترك يوجا ، أن الإنسان هو واقع الحياة ، وهو أيضاً مستقبل الحياة ، « والتانترك تؤهل الإنسان ، لكى يترقى روحياً ، وينشط عقليا ، حتى يصل إلى المستويات العليا من المعرفة الروحية ، فإذا انكشف له الغطاء ، عرف أنه من روح الله ، وهذه المعرفة ليست معرفة عقلية فقط ، أو معرفة قلبية ، ولكنها معرفة كاملة صادقة ، اتحاد كيانى ونفسى وروحى ، نوع من التزاوج بين النفس والروح ، امتزاج كامل ، وجود حق لا فرق فيه بين ظاهر وباطن ، تكامل بين الطاقة الفاعلة والوجود النقى .

فإذا تم هذا التكامل ، نبع عنه انشراح ذاتى ، وبهجة دائمة ، وغبطة تغمر العقل والجسد فى كل المستويات ، وتتابع أمواج من الابتهاج والسرور ، فى دوام وبغير حدود .

والتانترك يوجا ، تختلف عن الأنواع الأخرى من اليوجا ، أو من السلوك التصوفى القديم ، الذى يحض على النسك والزهد ، ونكران الذات ، والتقشف ، وقتل الرغبات ، للوصول إلى المعرفة الروحية .

« فالتانترك يوجا » لها وجهة نظر خاصة لبلوغ الكمال الروحى ، فهى تحتاج

إلى الذكاء والملاحظة . والتنظيم ، إنها تعمل على تنظيم الرغبات فى ظل أخلاقيات المجتمع ، وقوانينه السليمة ، وتواصى الأديان دون انحراف ، فهى تسلك طريق الفطرة الطبيعى وطريق الفطرة ليس فيها خلاف أو معاداة بين الطبيعة والروح : فطبيعة الوجود كقوة خلاقة للحياة ، تشمل الروح وظواهر الحياة . ولا يمكن لأى كان أن يلج مملكة الروح . دون المرور فى مزرعة الدنيا . وما كان النسك الزائد . وأخذ النفس بالصرامة والجدية وقتل النفس ، إلا هروب من واقع الحياة ، وهروب من طبيعة الإنسان ، ولكى نعرف حقيقة الحياة يجب أن نعيشها، ونجربها فى حدود الإتزان والتعقل .

ولكن إخماد الانفعالات بالعنف ، وقهر النفس بالقسوة والجوع قد يؤدى إلى متاهات وأمراض نفسية ، وضعف عقلى ، وجسمانى ، وشد وجذب نفسى خطير .

فإذا ما سلك الانسان سبيل الحق . بالنظرة السليمة ، والرجوع إلى فطرة الانسان ، والسير مع الحياة فى تعقل واتزان ، فإنه يسبح مع التيار ، دون مجابهة للعاصفة المدمرة ، حتى يصل إلى بر الأمان ، ويركب سفينة النجاة .

إن عبادة الله تحتاج إلى تقدير موقف الانسان من الله، أنها ليست بالأمر الهين البسيط ، كما يراها الجهلاء من عامة الناس ، أنها بحر غامض عميق القرار ، والانسان المتفتح الحكيم ، هو وحده الذى يرى حكمة الله فى الأمور ، وعظمته فى تبيان آياته فى الآفاق ، وفى الانسان .

إن المشاهد لهذه الآيات فى طبيعة الوجود الظاهر ، يرى دقة ، وقدرة وعظمة الله ، فى كل ما يحدث فى الكون الظاهر حوله ، يا لها من دقة ، ويا له من ذكاء حركة لا تتوقف ، وتقلب فى الطبيعة ، ونشوء وارتقاء ، فى غيرها !!

وأنت أيها الانسان . ألا تتأمل نفسك ، وتبصر ما فيك ، ألا ترى فى أعماقك

هذا الذكاء ؟ ألا ترى ما فيك من حكمة ؟ ألا ترى كيف يعمل جسدك دون وعي منك ، ودون توقف سواء غفلت ، أو صحوت ، شغلت ، أو لهوت ، مرضت أو فقدت عقلك ! ! !

إذا تأمل الإنسان نفسه ، بذكاء وفطنة ، ورأى هويته ، وكشف طبيعة تكوينه ، فلا بد من أنه سوف يرى !!! سيرى أنه جهاز معقد ، تديره قدرة تحكمه ، وتعمل به ، وهذه هي حقيقتك ، هذا هو ميراثك ، فخذ ما أعطيته بقوة ، إن الله قوى يحب الأقوياء .

فإذا عرفت أنك أنت المسئول الأول والأخير عن جهازك ، وعن نفسك ، فلا بد أنك سوف تعمل على صيانة هذا البيت الذى تسكنه وتقيم فيه ، فلن تدنسه ، ولن تهمله ، وسوف تحاسبه ، لكى يتبع الصراط المستقيم ، وسوف تحد من طغيانه ومن رزائله ، ومن جشعه ، ومن رغباته المهلكة ، وفى نفس الوقت سوف تعمل على رقيه ، ورفعة شأنه .

فإذا كان الله سبحانه وتعالى رفيع الدرجات ، متساميا ، متعاليا ، وله الأسماء الحسنى ، فسوف تعمل بصفاته الحسنى ، لتكون نعم المظهر ، لترى نفسك فى مرآة الحقيقة ، فى مثالية الصفات ! ! سوف يتلاشى تدريجياً ، تلك الصفات المرزولة ، وسوف تحل محلها صفات النبل .

فالطفل مثلا يبدأ اللعب بلعب مختلفة ، وعندما ينضج ، يترك هذا اللعب ، ويبدأ فى قراءة كتيب به أقاصيص ، فإذا نضج ، قام بأعمال أخرى ، وهكذا الإنسان ، يبدأ باللعب واللهو ، فإذا نضج ، اهتم باهتمامات أسرية وإذا نضج ، تفرغ للعمل الجاد ، وإذا نضج تفقه وإذا نضج عرف الحياة وإذا نضج تسامى بروحه واستقام فى الصفات الحسنى ، على مثالية صفات الله الحسنى ، وكما قال رسول الله صلى الله عله وسلم ، أدبنى ربى فأحسن تأديبى ، وتقول ابنته رضى الله عنها عندما سألها سائل عن صفات الرسول « كان خلقه القرآن » .

وتصف « التانترك يوجا » تشوق الإنسان للصلاه والعباده على أنها ـ نوازع في طبيعة النفس ، تماما كما هي سائر رغبات النفس الطبيعية ، شيء كامن في أعماق الروح .

والأمر المشكل في تلك النوازع المختلفه هو محاولة تنظيمها ، وتوجيهها بحذق وذكاء ، حتى تحصل النفس على غايتها ، دون المساس بكرامة الإنسان أو تحطيم معنوياته .

وإذا نظرنا إلى طبيعة خلق الجسد والنفس ، لرأينا أن الرغبات الجسمانية على إختلاف صفاتها هي شيء حادث في طبيعته الإنسان ، أو في قول آخر هي إرادة الخالق ، خلقنا وما فينا من نوازع وطبائع ورغبات ، فهي أمر طبيعي فينا ومعنى هذا أنها بتفويض من الخالق وقبول ، بل هي من قبيل النعم ، التي وجب علينا شكر الخالق عنها كلما اشبعناها ، ونحن نبتهل إلى الله أن يرزقنا الزوجة التي نحبها ، ويرزقنا منها الذريه الصالحه ويدخل في هذا ضمنيا اشباع الرغبة الجنسية وغيرها من الاحاسيس والتعاطف ، والرغبات الاخرى ...

ونحن نتضرع إلى الله أن يرزقنا المال والطعام فإذا رزقنا المال شكرناه على عطائه ، وإذا أكلنا حمدناه وهنا يجب أن نعرف ، أن مقصود الخالق من العطاء ، هو رغبته في إسعاد عباده ، ونحن نبادل الله في هذا حبا بحب ، وشكراً بشكر وحمدا بحمد ، إستنادا لقوله تعالى « وقليل من عبادى الشكور » .

والمطلوب من الإنسان أن ينظم رغباته ، وأن يحول الشبق الغريزى فيه إلى استمتاع ذو رونق روحاني في حدود القانون الوضعي ، وفي ظل التسامي ، وأن لايترك هذه الرغبات طليقة إلى الحد الذى يدمو الإنسان ويجعله عبداً لفجور « اللوبيدو » الكامن في الغريز الحيوانية .

نفس السم ، وإذا ذهبت إلى الطبيب وفى أذنك قطرة من الماء تضايقك ، فإنه يغسل أذنك بكمية من الماء تجذب معها الماء الراكد فيها :

وهكذا يمكن أن نداوى الرغبات الملحة ، بتنظيمها ، بالقدر المناسب دون كبت .

إن المفهوم الخاطئ للدين ، وكذلك مفهوم بعض المتزمتين ممن يسمون أنفسهم صوفية ، يعتقدون أن الرغبات والأحاسيس ، والطموح أشياء مكروهة ، وأن المؤانسة لإثارة الجنس وتنبيه الشهوة هى من فعل الشيطان ، وأن التشوق للحصول على المال والجاه ، والمراكز المرموقة فى السياسة والمجتمع هى وسوسة من الشيطان ... !!

وفى هذه الأفكار القديمة تعقيد الامور ، وخنوع ، وتكاسل ، وجبن ، وتقاعص ، وهروب من صميم الحياة وواقعها .

ولكن « التانترك يوجا » تنظر إلى الحياة نظرة تقدمية ، ونظرة تعقل وتعمق فهى تقول — كيف يخلق الله كل هذه النعم لنا ، يبسط الرزق لمن يشاء ، ويمنح الجمال لنستمتع به ، ويريد لنا البهجة فى الحياة ، ونحن نغمض اعيننا عن آياته الجميلة ، وندير ظهورنا لأنعمه ، ونحرم على أنفسنا ما أحله الله لنا ؟؟

والواجب علينا الا نحرم ماأنعم به الله علينا ، ولكن الرؤيا السليمة ، أن نزن الأمور ، ونعتدل ، فخير الأمور أوسطها ، لانجعل أيدينا مغلولة ، ولانبسطها كل البسيط ، وأن نستمتع بالأحاسيس فى الحدود التى رسمها الله ، وشرحها لنا الرسل .

وفى هذا المجال ، أرى أن الدين الإسلامى ، هو دين دنيا وآخرة ، فقد أوصى بالعمل فى الدنيا ، والتمتع بانعم الله ، وأوصى بالعمل للاخرة فى نفس الوقت مصداقا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم .

« ليس خيركم من ترك الدنيا للاخرة ، ولا الاخرة للدنيا ، ولكن خيركم من اخذ من هذه وهذه » .

وفى الحقيقة أن الإنسان كلما طرق سبل الرقى ، يتجمع ليكون مصدر قوة ، تدفع عجله التقدم البشرى ، وكلما سلك الإنسان طريق الرقى كلما تخلص من شوائب النفس ورزائل الغريزه ومعوقاتها ، فالتمدن يغسل الشعوب ، وينظف الغرائز ، ويحول الإنسان من مخلوق معجب بذاته ، إلى مخلوق ناضج الفكر ، معجب بالجمال فى كل معانيه ، وفى أرقى صوره ، فيتحول من مخلوق بدائى وحيوانى، إلى مخلوق متسامى روحانى الصفات ، فاعلا للخيرات .

ولنلق نظرة على أرقى شعوب العالم ، وهى الدول الشمالية فى أوروبا ، فإننا نجدهم شعوبا مهذبة مؤدبة ، إذا تكلم أحدهم استمع له الآخرون ، وإذا عمل عملا أتقنه وأحسنه ، وإذا تعامل مع الناس لايكذب ، أو يغش ، ونجد بلادهم نظيفة ، وطرقاتهم مبهجة ، وميادينهم كلها جمال ، ولايتكلمون بأصوات مرتفعة مزعجة ، ولا يفتحون المزياع فى أعلا نبراته ، ويعطفون على الحيوانات ، وإذا مر أحدهم راجلا استخدم جانب الطريق ، وإذا مر راكبا وصادفه أنوار المرور وقف تماما حتى تتبدل الإشارة ، ولايحاول اقتحام الطريق مهما كان خاليا، إنهم أقوام على خلق وكل يوم عندهم وقت مجيد وعمل جديد ، وفكر سديد .

والشعوب البدائية أو المتخلفة ، نجدها متمسكة بقشور الدين ، وشكلياته ، بل تفسر الدين على هواها ، بمفهوم بدائى ضيق الأركان ، وبالرغم من ذلك التمسك ، فهم فى الغالبية مخادعون ، نمامون ، حاسدون تغلب فى معاملاتهم صفة الغش والكذب لايحسنون أعمالهم ، ولايتعاطفون ، ولايعطفون ، غلاظ مع بعضهم البعض، كغلظتهم مع الحيوانات التى يتعاملون معها ، ولارحمة فى قلوبهم !!

الأقذار تملأ البيوت والأركان ، والطرقات وحتى أنفسهم لاينظفون . !!

يعيشون فى فوضى الحياة ، ولاينعمون بنعم الله ، يصيحون بأنكر الأصوات ويتصايحون على كل تافه من الأمور ، ويقولون نحن المصلحون ويعلم الله أنهم المفسدون ولكنهم لايعلمون ..

وإذا نظرنا إلى فلسفة « التانترك يوجا » نظرة عمق ، لوجدنا أنها تحوى أفكارا قيمة بالنسبة لأهداف الحياة ، ولصالح التقدم البشري . فهى إن عارضت أفكار المتطرفين من الزهاد والنساك ، وذوى الميول التقشفيه . واعتبرتهم موتى الحياة ، لأنهم ينكرون الدنيا وأنعمها ويعيشون فى خمول وكسل ، بالرغم من أن الدنيا هى مزرعة عمل ، وأنها المظهر المتجلى لديناميكيه الروح ، وأن كل ما فى الحياة هو من فضل الله وانعمه ، وعطائه ، فلماذا ترفض عطاء الله ، ولماذا نحارب نعمته علينا !!

وما الحياة الدنيا الا التعبير والتشكيل للحقيقة الأصيلة ، وفى رؤيا إسلامية هى وجه الله ، كما جاء فى قوله تعالى « أينما وليت فثم وجه الله » .

والتانترك يوجا ، ترى أن خير الأمور أوسطها ، وعلى الإنسان أن يكون متزنا فى الحياة ، ولا ينغمس فى مفاتن الحياة حتى الثمالة .

وقد جاء الإسلام فى أحكامه بالأمر الوسط ، فهو دين ، رفض النسك فى صورة الرهبنه ، فلا رهبنه فى الدين ، ورفض الكبائر من الموبقات ، وحلل ما دون ذلك فكل الطعام حلال الا ما حرمه الدين ، وشرع النكاح فى حدود الله ، وأعطى الفرصة فى أكثر من زوجة ، ولكن تحت ظروف معينة ، ووصف الدنيا بلهو ولعب ولكن الباقيات الصالحات خير عند ربك وأبقى ...

وفلسفة التصوف فى « التانترك يوجا » توضح نفس هذه الفلسفة الإسلامية ، فهى تعطى من الدنيا بالقدر الصالح للانسان ، حتى لا ينغمس بكليته فيتوه فى مسالك الرزيله ، ومزالق الشيطان ، وترتفع بالإنسان إلى عظمة الروح ، وصفاءها وأنوارها وقدسيتها .

« والتانترك يوجا » هى علم الحياة ، وهى طريق مؤكد للنجاح فى الدنيا ، وسلوك قديم للاخرة ، ولكنها تختلف فى الأهداف الأخيرة من التصوف بوصفه القديم ، فهى فى سلوكها إلى الأعلا ، لا تقف مكتوفة اليديين ، أو فى حالة سكون وفناء ، فى اللانهائى الوجود ، كما يفعل الزهاد قديما ، حيث كانوا يعتقدون أن قمة السعادة

هى المعرفة عن ذات الإنسان ، وعن علاقة هذه الذاتية ، بقدسية الله فهى بذلك تسلك سبل الحياة ، بفهم سليم ، ونظرة هادفة .

ومن أقوال فلاسفة « اليوجا » إذا كانت الكندالنى فى حالة سكون وغيبة ، فالإنسان قائم بحضوره ، وإذا نشطت « الكندالين » وأثارت ، أختفت الأنا الصغرى أو النفس » .

ويذكرنا هذا القول بقول سيدنا الإمام على بن أبى طالب فى قوله « إذ إغيبت حضر ، وإذا حضر غيبنى » وسبق أن عرفنا أن الكندالين هى الشعلة المقدسة فى القلب أو هى نفحة الخالق من روحه .

فإذا أشرقت هذه النفحة وأثارت بصيرة الإنسان ، اتصف بالصفات العليه واستقام فى الصفات الحسنى ، وهو فى نفس الوقت مندرج فى الحياة .

ولكن التصوف القديم ، يرى أن ختام المطاف هو الزهد والتقشف ، ونبذ الحياة والفناء فى الله . وبذلك يصل إلى طريق مسدود ، هو طريق العدم ، والبيات ، والسكون .

ولكن هذه المفاهيم ، هى مفهوم التصوف القديم ، وهى ليست نهاية المطاف ، فجميع الأولياء عليهم السلام ، سلكوا طريق الزهد سنوات ، وتعبدوا فى المغارات والكهوف وفوق قمم الجبال ، فى سكون وتأمل ، ولكن بعد أن فتح الله عليهم ، وأنارت صدورهم ، وتفتحت بصيرتهم ، انكشف لهم الأمر ، فعادوا إلى الدنيا ، ودخلوا الحياة ، واندمجوا مع الناس يفلوهم ويعايشوهم ، ويأكلون ويتزوجون ، ويشرعون للحياة ...

وهكذا ظهرت فلسفة « التانترك يوجا » وكأنها التصوف ، بمفهومه الجديد القويم ، وهو الجمع بين مباهج الحياة ، وبين احترام الإنسان لنفسه ، وتبجيل روح الله القائمة على كل نفس ، والتشبه بصفات الله الحسنى ، وجمع هذا الشتيت فى قيام

مجيد جديد ، قام فيه الإنسان كأمر وسط ، جامع للمفهوم الأعلا ، فى قيام أدنى خليفة لله فى أرض الله ، وهنا يصبح الإنسان قاب قوسين بين الأعلا وبين الحياة

إن الاتحاد الكامل مع اللانهائى فى تصور « التانترك يوجا » هو الكشف عن المعنى الخفى وراء هذا الاتحاد ، وأعانة الفرد على هذه المعرفة .

فالإتحاد مع الله هو تصور صعب الفهم ، والتانترك توضح هذا الاتحاد،فى صورة التكامل مع الوجود ؛والوجود كلمة شاملة ، وتشمل الكون والعالم ، والكون يشمل أشكال من الموجودات ، والعالم يشمل الخلائق والأحياء من مختلف الكائنات والوجود يشمل أيضاً صفات الجمال والجلال ، والجلال يشمل الحضرة العليا والدنيا، والأحياء العليا ، والأحياء الدنيا .. الخ .

والتكامل مع الوجود ، يحدث بالتفكر ودوام المراقبة ، والحب الخالص .

وبتحليل أنفسنا ، نعرف أننا من كيان فيزيقى ومن الشعور ، واللاشعور ، وحقيقة كامنة ، وأنه يجب علينا أن نوقظ اللاشعور ، ونحركه إلى الوعى الكامل، فيحدث الإتحاد بين الظاهر والباطن ، بين اللاوعى والوعى ، بين الأدنى والأعلا بين الظلام والنور ، بين المعتم والمنير ، بين الحجاب والمحجوب،بين السالب والموجب بين الواحد والموحد ، بين القوى ومن لا حول له ، بين المؤمن والمهيمن ، بين المالك والمملوك .

ومع كل هذا الوصف الشكلى أو الفكرى ، فإن التكامل والاتحاد لايكون كاملا ، فالإنسان جزء من الوجود الكلى ، والإنسان محدود الصفات ، هو مقيد فى هذه الصفات ، ومقيد بما حوله من أشكال والوان من الحياة ، ومقيد بكثافته ، وبالقوانين الوضعية ، وقوانين الطبيعة ، ومقيد بما وضعته الأديان التى جاءت فى العصور السابقة من التاريخ ، والتى قسمت الحياة إلى حياة دنيويه وحياة أخروية دائمة وبلانهاية ، ولم تعط فهما واضحا ، لسنة النشوء والإرتقاء المستمر مع الزمن ،

منذ بدء الحياة ، إلى مالا نهاية ولم تتعرض لعلم الكائنات ، ولم تكشف أولية الحياة أو علوم الروح .

ومن خلال نظرة « ميتافيزيقية » ذهنية ، تر « التانتركيوجا » أن الإتحاد يحدث بين الإنسان كوجود ، وبين الإنسان كروح دائم لا تجسيم له . فإذا استيقظت هذه الطاقة الكامنة فى داخله وأنفعل بها الإنسان بكل جوارحه ، أنار قلبه بنور الحقيقة ؛ وصفت نفسه وتسامى ودخل جنة المأوى .

ومع هذا الفهم عن الاتحاد ، فإننا مازلنا بمنأى عن التوحيد الخالص . لأن الآخرة لاتكمل الا بالأولى ، والأعلى لاتكمل الا فى مظلة النشوء والارتقاء المستمر فى الحياة الدنيا .

فعملية الخلق مستمرة دون إنقطاع ، ففى كل لحظة من لحظات الحياة ، سيل من الخلق رهيب فى كل الوجود ، عاليه ودانيه ، دون توقف ، وهذه هى طبيعة الخالق منه وإليه ، فهو الأول وهو الآخر ، بلاأولية ، وبلا آخرية ، أنها سنة الوجود ، سيل لاينقطع .

وإذا كانت سنة الوجود الدوام ، فعلى الإنسان أن يركب سفينة النجاة فى بحر الحياة المتلاطم ، ولكى يصل إلى المرفأ فى أمان ، وجب عليه أن يتخذ موقفا إيجابيا كالربان الماهر . وإذا تأملنا الحياة لرأى كل واحد منا أنه مركز طاقة فاعله فى الوجود .

وأن الله سبحانه وتعالى ، قد خلقنا فى هذه الصورة البشرية ، وأعطانا نفخة الحياة ، وهيأنا لكى نسعى فى الدنيا ونمشى فى مناكبها ، عاملين بكل ماأعطانا من قوة لكى نمهد الحياة علي خير وجه ، ونبنى المجتمع الصالح ، متضامنين ، ومتشاركين متعاونين ، حتى نصل بالدنيا إلى المستوى الذى أراده الله ، جنة وارفة الظلال ، تعبر عن عظمة الخالق .

وهنا ترى « الناترك يوجا » أن الاتحاد لايتم الا باتحاد البشرية وتكاملها ، كنفس واحدة فى الله الأكبر ، وبهذا الاتحاد مع الدائم ، تصل البشرية جمعاء إلى الحكمة من وجودها ، ويعيش الناس سواسيه كاسنان المشط فى فرح واستمتاع ومحبة وسلام دائم .

ومع أن الحكمة لاتنبع إلا من التأمل ، والسرور لاينتج عن الحركة ، والحب أمر معنوى كان على الإنسان أن يعرف الله ، ومعرفة الله هى فى محبة الله ، ومحبة الله أمر معنوى هو فى القيام بخدمة الله ، وكيف نخدم الله ونحن لانلمسه ولا نعرفه حق المعرفة .

وماقدرناه حق قدره !!

إذا لكى نحب الله يجب أن نحبه فى خلقه ، وهو الأمر الظاهر لنا فيه، ولكى نخدم الله ، يجب أن نتفانى فى خدمة خلقه ، بكل أنواع التفانى ، وفى شتى المجالات وفى جميع المخلوقات .

وهذه هى إرادة الله ، وهذه هى عظمة الله فى الدنيا . ولما كان الله هو الطاقة الخلاقة ، وهو القائم فى كل الوجود ، وقائم على كل نفس ، ففى خدمة هذا الوجود هى خدمة لله ومن أجل الله ، الحى فيها والحية به ، والقائم فيها ، والقائمة به ، فى دوام واستمرار ، وتطور إلى ماشاء الله ..

والتنوير ، هو واجب كل عارف ، لكل من جهل .

ونور الله فى كل الحياة ، ووراء كل مظهر ، بل هو أساس كل موجود ، وأساس كل شيء فى الوجود .

نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشاء ، أى يهدى لحكمته من يشاء ، وإن كل الا آتى الرحمن عبداً .

والتصوف الإسلامى يرى هذه الحقائق ، ويرى الاتحاد ، فى شهود أنوار الله

فى كل مخلوقاته ، وشهود وجود الحق الواحد المطلق الذى الكل به موجود ، فيتحد به الكل من حيث كون كل شىء موجودا به معدوما بنفسه فخدمة الإنسانية هى خدمة لله وفى سبيل الله ، وخدمة كل محتاج هى خدمة لله الذى أعطى من ملكة لجمل هناك غنى يعطف على الفقير ويعطيه ، ومنح الطبيب علما ، يقدمه إلى المريض والله هو الشافى .

فلا يجب أو يتغالى الطبيب فى طلب اتعابه ، لأن الشافى هو الله والمعطى هو الله وعلى الجار أن يقدم كل خدمة لجاره ، وقد أوصى الرسول صلى الله عليه وسلم بالجار حتى كاد يورثه ... هكذا كانت التعاليم المنزلة ، على مر العصور منذ بدأت الخليقة ، هى الخدمة الدائمة . فالأرض هى أرض الله ، وعلينا أن نقوم بخدمتها وزراعتها وحصادها . فهذه إرادة الله ؛ فى هذه الدنيا ، أن نتعاون جميعا ؛ لخدمة ملك الله ، ونظهر عظمته ، فهو الذى منحنا الحياة ، ونحن عباده العاملين .

وفلسفة التاتراك تحث على التعاون بين البشر ، وتحض على العمل ، وتقديم الخدمة ؛ والمحبة الخالصة ، ومن خلال هذه الصفات الجميلة ، تكون خدمة الله ، هى فى خدمة مفرداته ، أو بمعنى آخر آحاده ، وآحاده هم إجمال وحدانيته ، ففى عالم الظاهر ، مفردات آحاد وأشكال مختلفة ، وكأنهم على خلاف صورهم مختلفون متفرقون ، ولكن المتصوف المستنير يرى كل هذه المظاهر ، وحـــدة واحده ، تجمعها روح واحدة وأرض واحدة والله من ورائهم محيط .

الفصل الثانى

طريق المعرفه

المعرفة وسائل مختلفة ، وأهم هذه الوسائل العقل البشرى . ففى طبيعة العقل البشرى ، منذ النشأة الأولى ، التشوق إلى المعرفة .

وقمة التشوق إلى المعرفة ، هى الرغبة فى معرفة الغيب ، فكل ماهو غيب وخفاء عنا ، نجد فى انفسنا وفى فطارتنا رغبة لمعرفته ، وهذه الرغبة مطلب عالمى ، ويشمل كل الجنس البشرى .

غير أن الناس طبائع مختلفه ، فمن الناس من يولد وينشأ منذ سنواته الأولى ، باحثا ومدققا ومتأملا ، ومنهم من يتأخر ، حتى توقظه أحداث الحياة وظروفها ، على أن أكثر الناس من الغافلين ، غير أن الغفله ليست كاملة ... ! !

ويمكننا حصر أبواب المعرفه فى سبع أبواب :

١ — التبصر والتميز .

٢ — الفصل والتفريد .

٣ — تهذيب النفس .

٤ — التشوق إلى الحرية فكرا وموضوعا .

٥ — السمع والاصغاء للعارفين والملهمين .

٦ — الانعكاسات المختلفة حول الإنسان .

٧ — التركيز ، والتأمل فى الحياة .

فالتبصر هو استخدام العقل الواعى ، بحصافة ودقة ، ثم فحص مايراه العقل

بعمق ، وبذلك يمكننا التميز بين ماهو تافه، وبين ، ماهوغث وسمين ، وبين ماهو حق ، وماهو باطل بين ما هو دائم وبين ماهو وقتى وسريع الزوال .

إنها لمحة من الفراهة للتفرقة بين الحقيقه والخيال ، وتأمل نفسك فى دراسة وعمق حتى تعرف نفسك الحقيقيه ، ونفسك الزائفة بومسكوناتها .

إن كل آلآم الحياة ، ومنغصاتها ، نشأت عن رغبات النفس الزائفة ، وفى معنى أحق ، عن جهل أنفسنا ، عن جهل حقيقتنا ، عن جهل مركز وجودنا الحقيقى .

إن هذا التنافر ، وهذا التباعد ، حدث نتيجة للجهل المطبق المسيطر على أغلبنا وهذا « الحجاب » هو الذى يجعلنا نرى الأمور على غير حقيقتها ، ونرى الأشياء على غير طبيعتها فيختلط علينا الأمر ، ونتعلق بالخيال وبكل ما هو زائل أو بكل ماله بريق ، كالأطفال عندما توضع أمامهم اللعبة ذات الألوان يتعلقون بها دون غيرها من نفيس الأشياء . أو كالغلام الذى يرى فراشة ملونه فيجرى خلفها فى مشقة ، فإذا تصيدها لايلبث أن يزهدها ثم يبحث عن شىء آخر .

وقد وهبنا الله نعمة التمييز ، وعلينا أن نستخدمها فى الفصل والتنويه والتقييم بين حقائق الوجود ، وبين ما هو فان . وعندئذ ننطلق إلى كنف الباقيات الصالحات ، ولانحفل بماهو زائل . وهذه هى الصخوة من الغفله التى يرى منها السالك فى طريق المعرفة إن المال وسائر مقتنيات المادة ، ليست هى الهدف من الحياة ، ولكنها بريق الخلق الخادع للغافلين .

وبالتميز يعرف الإنسان أن الأحاسيس الناجمة عن امتلاك الأشياء ما هى الا أحاسيس وقتيه ، وأن السعادة التى تغمر الإنسان عند امتلاك مبلغ من المال ،أو امرأة جميلة ، ماهى الاسعادة زائلة وقتية ولايلبث المرء بعد قضاء حاجته من المرأة أن يزهدها ، وإذا أفاق شعر بتفاهة الجنس ، وإذا عرف أن المال لايجلب السعادة الحقيقية ، فلا يأبه له الا بقدر الحاجه ، ولايعنى هذا أن يعيش الإنسان زاهدا ، بل يعمل فى الحياة ويجتهد ؛ ويحصل على كل ما يريد ، ولكن بوعى صحيح

وبقدر ، فلايكون عبدا للجنس ؛ أو المال ، أو حب التملك أو غير ذلك من شئون الحياة ، الا بالقدر المطلوب والمناسب للحياة :

وإذا زاد وعى الإنسان وتفتق تميزه ، رأى الدينا فى زوال ، وحق الجنة بوصفها المادى ، وما فيها من متاع وحور ، وبسط سندسيه ، وفاكهة قطوفها دانية ، يراها نوع من الغرور والمتاع ، ويتطلع إلى شيء آخر يروى ظمأ روحه المتعطشه إلى الحقيقة العليا المجردة ، والله يقول «كل الجمالات منى فلاتنشغل بها عنى»

والحقيقة أن الناس فى الغالبية العظمى ، ترتسع فى ضلال المادة ، وقليل جدا من البشر ، لهم عين فى الجنة وعين فى النار ، وزبدة من البشر هم العارفون الذين نعدهم من ذوى التميز ، والذين يطلبون وجه الله . .

أما تهذيب النفس ، فهو من الأمور الصعبة على النفس ، لأنه جهاد للنفس ، بل هو اكبر من جهاد الحرب .

وتهذيب النفس يحتاج إلى سلوك خاص ، فأولا يحتاج إلى ضبط النفس ، وضبط النفس هو الامتناع عن الغضب فى جميع صوره ، وتهذيب النفس يعنى أيضاً كبح جماحها ، وهو اتزانها التام ؛ وتهذيب النفس يعنى نسكران الذات ، وتهذيب النفس يعني أن يتصف الإنسان بالحلم ، ويعنى أيضا تطهير النفس ، طهارة خارجية وطهارة داخلية ، وطهارة فسكرية وقلبيه ، ويتوج تهذيب النفس الإيمان بالحقيقة .

إن العقل البشرى لايهدأ فهو دائم الحركة ، دائم التفكير : دائم الرغبة ، دائم التغير ، فهو كالقرد النطاط من شجرة إلى شجرة ، بحثا عن ثمرة يشبع بها بطنه ولا يشبع . وضبط النفس هو عقل العقل .

ولتهدئة العقل ، لايكفى أن يتفهم الإنسان تفاهة الرغبات والأحاسيس الملحة بل على الأنسان دوام كبح جماح العقل الغريزى وتهذيبه ، ، بإنسكار ذاته .

وبهذا نرى ، أن تهذيب النفس ليس بالأمر الهين . بل كثيراً مايحدث

الارتباك ، والاضطراب العقلى نتيجة لهذه الضغوط ولهذا الكبت ، لأن الإنسان لايعيش وحده ، بل هـو محاط بـكل أنواع الإغواء والإغراء ، والعالم مليىء بالضوضاء والأحداث ، والعقل معرض لقبول بعض الإيحاءات من الناس ، ومن وسائل الإعلام المختلفة . وعلى العاقل أن يحمى نفسه من كل تلك الإغواءات وهذا هو الكبح ، أى كبح إعضاء الحس من كل الأغواء الخارجى ، وهذا من نـكران الذات .

فإذا كنت راغبا فى طريق المعرفه ، أو طريق التصوف ، أو الـكمال ، عليك أن تلق بـكل هذا خلفك ، بل عليك أن لاتتملق تعلقا كبيراً بالأهل ، والزوجة والأطفال ، والجنس وهذا طريق صعب ، قد لايقدر عليه الاناسك أو زاهد يعيش فى مغار أو جبل ، أو فى الغاب أو الصحراء .

وهنا يختلف الإسلام عن هذا الطريق ، فلا رهبنة فى الدين ، ولـكن قوة الإسلام فى سلوك الإنسان ، هو فى غمرة الحياة ، باعتدال وتعقل وتسامى كما فعل الرسول عليه الصلاة والسلام ، وصحابته الـكرام ، وضربوا المثل العليا بالعمل الصادق ، الجاد والاشتراكية الحقة ، والمحبة الخالصة بين المؤمنين من الأنصار والمهاجرين ، كما أن طبيعة شبه الجزيرة العربية ، فى ذلك الوقت كانت توحى بالصفاء والهدوء والتأمل ..

إن الطريق الروحى ، غير مفروش بالورود ، بالرغم مما فيه من سمور روحى وهو يحتاج إلى صبر وكفاح وكلما تقدم المريد خطوة ، يجب أن يغير من مساره ويعدل من أفـكاره ، ويعدل من سلوكه فى الحياة .

إن تسبيح اللسان وحده ، لايؤثر التأثير المطلوب ، فقد يلعب اللسان طوال اليوم مسبحا ، والعقل فى دنياه وشروده ، وأفعال الإنسان فى سلب ونهب ، ولهو وغرور . وقد يلهج الإنسان بالحمد والشكر ، وقلبه غير راض عن حاله ، أو أن

كل شكره ومديحه لمال 'و فضل آتاه من طريق حرام ، أو غير مشروع ، أو كسب زائد فى تجارة ...

وقد يظهر الإنسان فى صورة العاشق لله ، وهو فى الحقيقة ، عاشق لصورة يتوهمها ، وهو بعيد كل البعد عن الحقيقة .

وقد يعيش إنسان فى الحياة ، وهو يحاسب نفسه ، كل يوم حسابا عسيرا ، وقد يحرم نفسه من أشياء كثيره ، ويؤنب الناس على أفعالهم ، والحقيقة أنه يرى الأمور بمنظار مختلف عن الصحيح ، وفى إعتقاده أن هذا هو الصحيح ، ولكن اختلط عليه الأمر ، فهو يرى الأمور من زاويته الضيقه السطحية ، ولا يرى بالأفق الأعلا ، وفى قصص القرآن أمثال وأمثال .

وبالرغم من إقدام السالك فى طريق الحقيقة ، وبالرغم من شجاعته ومثابرته إلا أنه كثيراً ما تنتابه لحظات يأس وقنوط وأو قات إظلام ، ويهتز إيمانه ويتزعزع وتكتنفه سحابة من الغيوم ، تلفه بدوامة من الشك والريبة ، والتشاؤم .

وهنا قد تتزعزع عقيدته ، ويعتقد أنه سائر إلى وهم وخيال ، وأضغاث أحلام

وهذه الأوقات العصيبه ، لايجتازها إلا المؤمن الصادق العقيدة ، أو السالك المتابع لمعلم صادق ينير له الطريق ، فالطريق إلى الله يحتاج إلى المرشد الخبير ، كما يحتاج البحارة إلى قبطان عالم بأعالى البحار ، حتى تصل السفينه إلى المرفأ .

وبعد إزالة الشكوك والمخاوف ، تسقط الأغيار ، ويرسخ الباحث السالك فى طريقه ، فقد تطهرت أفكاره وتطهرت نفسه ، وتطهر قلبه ، فلا سقوط اوتزول أوعدول عن مطلوبه ، وهذه هى حقيقه الطهارة أو حقيقة الوضوء الداخلى ، فإن كان الوضوء قبل الصلاة لإزالة أو ساخ الجسد (الجوارح) ، فالوضوء الداخلى هو إزالة أو ساخ الفكر ، والنفس ، والقلب ، أى طهارتها من الأغيار الزائفة فيدخل السالك مرحلة التأكيد والإتمام .

قد يمارس أحيانا ، بعض الناس ، طريق المعرفة بغرض التفوق على الغير وقد يسلك فى الطريق أناس ذوى رغبات دنيويه ، يرغبون تحقيقها عن هذا الطريق أو لجذب الأنظار ، أو للشهرة ؛ وقد يسلك فى الطريق راغب صادق ، ولكن دون وعى منه ، يسكون فى أعماقه دافع لبلوغ قدر من القوة ، أو التفوق على أقرانه ، أو يعمل المعجزات ، أو يحقق كسبا ما أو يغذوا عالمه فى خطفة من الزمن أو يكتشف عملا من أعمال السحر ، أو طريق للتعيش من هذا القبيل . وأمثال هؤلاء من البشر هم من الضالين ، ولن يبلغوا مأربهم الأسمى .

ولكن السالك اصادق الأمين ، إذا تطهرت نفسه والدم السلوك الحق ، فهو بالغ أمره ، سوف يولد من جديد ، وستضىء فى قلبه الشعله القدسية ، ولن يبق فى قلبه غير حب الله ، ولن يرض بغير هذا بديلا حتى ولو دانت له الدنيا وما فيها من متاع .

والله فى الفكر الصوفى ، ليس كمثله شىء ، فهو وراء كل فكر أو تعبير أو شكل ، والعقل عاجز عن احتوائه ، ولكن روح الله هى حقيقة فى ذواتنا ، يمكن شهودها فى لحظة سكون وتامل ، وهى شمولية فى الكل .

والعارف بالله ، الذى استنار قلبه وأفاق ، لديه القدره على مساعدة المريد الصادق ، وإفاقته من غفلته .

والمريد الصادق فى بحثه ، لابد أن يعثر على المعلم الصادق ، وعندما يلتقيان يتطهر المريد من كل أفكاره القديمة ، ويسلم نفسه للمعلم تسليما تاما ، وعندئذ ينقل المعلم أنواره إلى المريد ، حتى يتحقق فى المعرفة .

ولا يمكن أن يتحقق المريد ، الا إذا كان إنصاته بالقلب ، وبالروح فالمعرفة العقلية فقط ، هى معرفة سطحية ، لاتحقق ، ولكن الاستماع من الروح إلى الروح هى المعرفة المحققه وهى التى تشعل المشكاة فيضىء مصباح القلب من الروح

إن كتاب « الفيدانتا » فى الهندوكيه ، يصف روح الإنسان فى اسما وجودها ونقاءها ، كفطرة من روح الله الكلية ، هى شعلة مقدسة من نفس قدسية الله ولكنها فى حالة استرخاء بسبب حجاب الجسد ، فإذا أيقظها المعلم من ثباتها أضاءت واشتعلت ، ويتلو ذلك تنسيق ينعكس من المعلم إلى المريد :

وكلما تعمق المريد وقوى إيمانه ، تولد فى عقله ، طاقات وقوى ، تبيد ماحوله من ظلام ، وتنفى كل شك . وكلما ظهرت فى عقل المريد السالك أفكار عسيرة ، أو تناقضات ، أزالها المعلم ، ثم يأتى الوقت الذى يبحر فيه المريد فى سفينته ، كربان ماهر ، مسدعم ومسلح بالسلوك القويم ، وتصبح الحكمة من خصائصه ، وفى نهاية المطاف يتخلق بخلق الله ..

نعود فى حديثنا عن « الجناتا يوجا » إلى ما بدأناه ، حيث شرحنا أعمدتها المختلفة ، ونختم الحديث فيها بالعمود السابع ، إلا وهو طريق التأمل ، والتأمل هو نوع من التفكر العميق المصحوب بالتركيز ، والتأمل قادر على تحويل المفهوم العقلى إلى مفهوم الواقع ، ثم إلى التحقيق . والتأمل ، يترجم الأفكار الفلسفيه إلى حقائق روحيه ، بل هو المدخل إلى الحكمة .

وإذا بحثنا فى أمر العقل ، لوجدناه دائما فى حالة عدم استقرار ، وهو دائم الأخذ والعطاء ، والتردد بين التصديق والتكذيب ، وهو ثنائى التفكير ، نزاع إلى عبادة أشياء كثيرة ، نزاع إلى الحرص والتملك ، وكثرة الرغبات ، ومن طبيعته القلق ، والقلق ، والدوران .

ولكى ندخل طريق التأمل ، يجب أن توقف العقل ، حتى يهدأ .

ولكى نـدخل فى طريق مراقبة النفس ، نلاحظ أنها تتكون من مجموعة أفكار وأحاسيس والعقل وحده لايمكنه أن يؤكد ، ماهو الظاهر والباطن ولا ما هو الحدس أو البديهى ، وقاصر عن تحديد العارف والمعروف ، ولا ماهية العلاقة بينهما .

ولكن بالتأمل وحـــده ، يمكن تخطى الرؤية الثنائية التى يراها العقل . وبالتأمل وحدة ، نصل إلى حالة الصحو ، التى ترى من خلالها ، وندرك ، العلاقة بين الظاهر والباطن ، ووحدانيتهما كوجود غير منفصل .

وبلوغ مرحلة الوعى المتسامى، يعرف فى الهندوكية باسم « نيرفيكالباساماادى Nirvikalpa, Samadi ويعرف فى الصوفية ، بالمعرفة الأحدية ، وهو يمثل الهدف النهائى لطريق المعرفة .

وإذا بلغ الإنسان هذا الدرجة من النقاء والصفاء ، دخل فى مفهوم الأحدية وعرف نفسية ، وحقق وجوده ، وتحرر من عبودية المادة ، ومن قيد الجسد ، وزالت منه كل المخاوف ، وامتنع عليه القلق ، وزال من فكره كل شـــك ، ومن قلبه كل يأس أو قنوط .

إن « الجنانايوجا » التى هى « يوجا المعرفة » لايشبرغـــورها فى المعارف الروحية ، منذ قديم الأديان ، وهى طريق قويم يأخذ المريد من المعرفة الثنائية إلى المعرفة الأحدية والتوحيد التام ، حيث لاموجود إلا الله وحده لاشريك له .

إنها تأخذ السالك فى طريقها إلى أعلادرجات المعرفة ، إلى الذروة فى معرفة الغيب ، وذلك باستخدام طريق المراقبة ، وهو طبيعى فى فطره الإنسان .

ومع الأسف ، كانت هناك فترة من الزمن ، عبر التاريخ ، دخل على هذه الفلسفة التصوفيه ، آراء عقيمة ، أوجدها رهبان المعابد ووضعوا لها قواعد صارمة فى الزهد والتقشف ، ونكران الحياة ، مماجعل الناس يذهدون فى معرفة الحقيقة وابتعد الناس عن النسك ، وانهمكوا فى الحياة المادية إلى الأذقان ، حتى شاء الله ، أن يعيد إلى هذه الطرق التصوفيه مجدها التالد ، فظهر معلمون جدد ، من خيرة السالكين العارفين ، فأزالوا القشارة عن تلك الأفكار العقيمة من الطريق وعلموا الناس كيف يكون التصوف الحديث ، غير مشوب بالترهات القديمة والخزعبلات البالية ، وانتشروا فى الأقاليم ، يعلمون الناس الحقائق الغيبية ، بطريق سهل ميسر

لاعسر فية ، ولا تعقيد ، ومن ثم خرجوا عبر البحار إلى الولايات المتحدة والمملكة المتحدة ، وأوروبا ينشرون أفكارهم الجديدة عن التصوف ، واندفع الشباب والشيوخ فى تعطشر إلى الاستماع اليهم واتباع تعاليمهم ، وانتشرت المصنفات التى كتبها هؤلاء العارفين ، فلا تجد دار كتب الأوبها عشرات المجلدات

وكان الأجدر بنا وبرجال الأزهر ، وقد أصبح فيهم المثقف والحاصل على شهادة العالمية والدكتوراه ولديهم المعرفة عن حقيقة التصوف الاسلامى ، والبعض منهم يعرف اللغات الفرنسية والانجليزية ، إن ينزلوا إلى الميدان ، فيكتبوا للشباب منهجاً للحياة فى ظل هذه المعرفة ذات السلوك والخلق القويم ..

حتى يعرف الغرب عن حقيقة الإسلام وحقيقة التصوف الإسلامى بغير انحراف

وفى كلمة أخيره عن فلسفة الجناتا ، أقول أن العقيدة الهندية، قد تحررت الآن من الأفكار البالية ، التى زرعها فيها بعض الجهلاء ، الذين أنكروا الحياة ، واعتبروها من قبيل الخيال ، وإنه لاحقيقة لها بتاتا، وأن الخير للناس فى زهدها وتركها ونكرانها ، وهذه الأفكار ، جعلت من الهند فى ذلك الوقت دولة مغلوبه على أمرها ، وتمكن الاستعمار من استنزاف خيراتها ، والناس قاعدون زاهدون فى خيرات بلادهم العظيمة ، ومتفرجون سلبيون ..

ولما ظهر جيل جديد متفتح من المعلمين ، أفهموا الناس حقيقة الدين وحقيقة الدنيا ، وأن الدين لا يمكن أن يتعارض مع الدنيا ، وأن الله سبحانة وتعالى أوجد الدنيا لخير الناس ، واوجد الناس لخير الدنيا ، وتعميرها لخير البشرية جمعاء ، وأن معرفة الله هى فى معرفة آياته ، وفى البحث العلمى تظهر عظمة الله ، وأن العمل عبادة ، وكلما اتقن الإنسان عمله كلما زاد أجره عند الله فى الدنيا والآخرة . .

وأن الرغبة الجنسية ليست بالشىء المرزول القبيح ، طالما أنها كانت فى حدود الشرع والتشريع .

(اليوجا)

وأن الحياة يجب أن تأخذ طريقها فى التعمير والبناء ، لصالح الجميع ، ولصالح البشر ، وأن على كل فرد أن يعمل بكل جهد ، واضعا نصب عينيه خشية الله فى كل تصرفاته ، دون أن يتكالب على الدنيا لتكون له وحده ، وأن لا يصل إلى بقيته على اعنان الناس ، أو يدوسهم فى طريقه إلى المجد أو المال .

وأن الزهد لا يكون بمعنى الكسل والتقاعس ونكران الدنيا ، وإنما الزهد هو الرؤية الصادقة ، أن نرى الله فى كل أعمالنا ، وأن نشعر أنه معنا يسمع ويرى يرى سعينا ، ويبارك جهدنا فى العمل البناء .

والآن وقد تغير المفهوم الدينى فى الهند ، فقد تغيرت الهند ، وتقدمت فى المجالات السياسيه والصناعية والإجتماعية ، والإقتصادية ، فى ظل التاخى والتعاون بين الجميع ، لصالح الوطن ، الذى يتعايش فيه الجميع .

وقد تغنى شاعر الهند العظيم طاغور فى اغانيه بهذا المفهوم الجديد ، وتكلم عن الله كحقيقة قائمة يراها فى كل مجال من مجالات الحياة ، وهى خلف كل عمل مجيد ، ومع كل إنسان فى غدوه ورواحه وسبحانه ، القائل كيفما تكونوا أكون .

وعلينا أن نفتح أعيننا ، لنخرج من جهالتنا الدينيه ، ونعمل جادين لإعادة مجد الإسلام ، الذى كان منارة للعلوم ، فى شتى انواع العلوم والمعارف ، وأن نبنى بلادنا بسواعدنا القوية وأن ، نزيل الغشاوة عن أعيننا ، ولا نتمسك بقشور الدين وبشكلياته مما نراه فى الموالد ، أو نتواكل ، ونلقى بالأحمال على «الغائب» وهو القائل لايغير الله مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ؟

الفصل الثالث

مناهج اليوجا فى الحب الصوفى

تنقسم مناهج اليوجا الرئيسية إلى ثلاثة أقسام : —

« البهاكتى bhakti » « والكارما karma » « والبورنا purna » ،

وهى تتكلم عن الحب ... وتشرح البهاكتى الحب، مبتدئه من المشاعر والأحاسيس الأولية للقلب . فهناك حب النفس ، وحب المحبوب ، وحب الوالدين ، وحب الأبناء وحب الأزواج ، وهذه هى الأنواع الغالبة فى حب الناس .

وهدف البهاكتى من الحب ، هو تحويل كل هذه الأنواع من الحب إلى حب سامى ، إلى حب فى سبيل الله ، وهذا هو الأساس فى الحب على هذه الأرض، فإذا تحول مفهوم الحب إلى الفكر السامى ، كانت مشاعر الحب أقوى وأبقى .

فحب النفس ، وهو أقوى أنواع الحب فى الإنسان ، يهدف إلى حماية الإنسان وبقاء النوع ، كما يهدف إلى حرية النفس ، وتأمينها ، ويهدف إلى رغبة الإنسان فى السعادة ، وحبه للظهور ، وهذه هى مظاهر حب النفس . ولكن إذا هذبنا حب النفس ، ورفعناه من المستوى الغريزى إلى المشاعر السامية ، تحول إلى حب ربانى. وإذا كان الخالق سبحانه وتعالى هو الحقيقة وراء كل الموجودات، فالحب هنا شامل للنفس ولكل الموجودات .

إن رغبة الإنسان فى تقديم خدمة ، هى أساس من أسس الحب الكامنة فى النفس البشرية ، فعندما يقدم الإنسان خدمة للغير ، يشعر فى قلبه أنه جواد فاعل للخير ، ويحس أنه المحسن المجير ، وكلما فعل الخير كلما أحس بالسعادة تغمر قلبه ،

ولكن إذا حول هذا النوع من الفعل ، إلى خدمة لله ، وعرف أن الله سبحانه وتعالى هو الجواد والمحسن للكل ، كانت هذه الصفات الحميدة صفاته ، أى أنه أصبح يعمل بصفات الله ، وتخلق بخلق الله ، وهذا هو الدين .

إن الرجل التقى الورع ، يلجأ دائماً إلى الله ، يحتمى بحماه ، لأنه يعرف أن الله وحده هو صاحب الملك والسلطان ، ويرى فى نفسه أنه الخادم ، والعبد لله العلى العظيم . وهذه أعظم سعادة فى نفسه .

وهناك حب الأصدقاء والمعارف ، وهذا الحب إذا حولناه إلى محبة فى الله ، بمعنى أن يكون حبنا للصديق هو حب أخوى روحى ، وأن الله سبحانه وتعالى هو الجامع بين الأحباء ، وأنه ماتناجى أثنين إلا وكان الله ثالثهما . وأن فى اعتماد كل صديق على صديقه ، هو اعتماد على الله الذى لايخذل من أرتكن إليه ، ولايخاف من اتخذ الله خليلا . . .

وإذا رأينا الله ، وراعيناه فى محبة الوالد لولده ، والولد لوالده ، والوالدة لوليدها لأحببنا الله فى الأبناء ، لأن الله سبحانه هو العاطى للولد ، وهو مانح الروح لكل البشر ، وهو غامر القلوب بالمحبة ، ومن خلال هذه النظرة المتسامية ، يكون حب الأبناء وحب الآباء حبا إلا هيا رفيع الدرجات ، وذو عاطفة ربانية تربط بين أفراد الأسرة الواحدة ، ورب الأسرة الذى هو فى حكم راعيها ، كمايقول الإسلام كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته .

وفى الهند القديمة ، كان لرب الأسره ، ولربتها ، قدسيتها . وكانت محبة الأولاد وخدمتهم ، هى خدمة لروح الله فى بنوة الأبناء ، واستمرارا للوجود ، وتجديدا للحياة وتدفقها من الآزل إلى الأبد دون توقف .

وإذا عدنا لألوان الحب المختلفة ، لوجدنا أن الحب الجنسى ، هو أطغى أنواع الحب ، ويظل الإنسان متنقلا فيه باحثا عما يشبع غلمته ، ومهما ذاق من الجنس فهو لايشبع غلمته ، وقليل من البشر من ذاق الذروة فى الجنس ، والكثير من البشر أزلهم الجنس وأعماهم .

ولهذا نجد أن الأديان كلها أشارت إلى الجنس ، وأرشدت الناس فيه ، فالعفه في البوذية من الأسس الدينية ، والعفه في المسيحية أوصى بها السيد المسيـــح ، والإسلام شرع في النـكاح ، وأوقع الجزاء على الزانى والزانية ، وطلب التعفف لغير القادر على النـكاح ، وحث على كبح جماح الشيطان بالصوم ، ومنع الإختلاط في صور مختلفة وأعمار مختلفة للذكر والأنثى ، حتى بين الأقارب .

ومع كل هذا التوجيه الديني ، في مشارق الأرض ومغاربها للحد من طغيان الشهوة الجنسية ، الا أننا نجد الفساد في كل مكان ، وخلف كل حائط ، بل نراه في الـكثير من وسائل العرض والإعلام .

« والبها كتى يوجا » توجه هذه الغريزة الطاغية ، توجيها متساميا ، إذ تحض الرجل الغير متزوج ، والمرأة الغير متزوجة إلى الطهارة والعفة ، والدخول في كنف الله خالق هذه الطاقه ، لـكى يعصمنا من الزلل ، ثم الدخول في حب وعشق وشوق إلى الله ، يبدأ يتزاوج بين الجسد والروح ، فإذا تم هذا التزاوج هدأت أحاسيس الجسد الطاغية ، وأصبح الإنسان أقرب إلى الله ، بل أصبح الجسد مسبح الروح ، وسلم تسليما لها ، فلا يبق في جسده شعرة من شعيرات الشيطان ، وبذلك يتحرر من عبودية الجنس ، بل يتحرر من عبودية الدنيا بأسرها ، وعن هـذا الفهم ، وبهذا العشق يصل الإنسان إلى الله ، كما فعل السيد المسيح ، وسائر الرسل .

وقد أوصى الإسلام بأنواع مختلفة من الحب ، بالوالدين احسانا ، والجار ذو القربى ، وذوى الرحم ، والوطن ، والزوجة ، والأخوة في البشرية في قوله « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه » وقالت المسيحية « الله محبة » وهى جملة قاطعة لمعانى الحب وسموه ، إذا فهمها الناس ، وقاموا فيها .

الباب الرابع

الإنسان والله الفكر الصوفى

الفصل الأول

الإنسان والله فى الفكر الصوفى

إذا كان الحب ، إحساس قوى فى مشاعر الإنسان ، فأولى بالإنسان ، أن يوجه هذا الحب القلبى العميق إلى الخالق . ولكن الإنسان فى طبيعته ، يحب أنه إذا أعطى شيئا فلابد أن يحصل على المقابل ، فهو إذا أعطى أنفاسه ، أخذ بديلا عنها أنفاس أخرى ، فإذا كان هذا فى طبيعة تكوينه ، فهو دائما حريص على الكسب ، وهذا حال الإنسان فى معاملاته فى الدنيا .

ولم يتخلص الإنسان من هذه الطبيعة ، فى معاملاته مع الله ، فهو يفعل الخير ، ليكسب مقابلة عند الله ، وهو يعبد الله خوفا من ناره ، أوحبا فى جنته ، وهو يصنع الحسنة ليحصل على عشرة أمثالها ، فهو يتعامل بالربا مع الله ، راغبا فى الكسب والاستيلاء .

ومع هذا ، فهناك ندرة من الناس ، تتعامل مع الله ، على الخضوع والتسليم ، إنهم قوم من الصفوة ، يبذلون ولا يأخذون ، ويعملون حبا فى الله وتضحية فى سبيله وهم كذلك فى معاملاتهم مع البشر ، يبذلون أنفسهم فى خدمة الغير دون مقابل بل يبذلون انفسهم فى خدمة الحيوان ، والنبات ، لخدمة البشرية ، بل يبذلون طاقاتهم ، فى صخور الأرض وجبالها ، يقصدون بذلك تقدم البشرية ، وتجميل الحياة ، دون انتظار كسب أو مديح . يبذلون فى سبيل الله ، ولو بهم خصاصة ، ويعتبرون ذلك نوع من العبادة ، هؤلاء هم صفوة الصوفيين .

إنهم يرون الله ، وكأنه بحر من العسل المصفى ، لاينضب له معين ، ويحضون الناس على أن يتذوقوا حلاوته . أو يرون الله وكأنه كنز لايفنى ، ويساعدون

الناس لكى يأخذ كل منهم حاجته ، فهم يعملون كشافون لكنوز الله وأنعمه ، ليأخذ كل مجتهد نصيبه من مملكة السماء ، وملك الله فى الأرض ، وثمن كل هذه الأنعم ، هو الحب المتبادل بين العبد والرب ، وحب الله للانسان حب دائم ،لامقت فيه ، فإذا فتح الإنسان قلبه لمحبة الله ، غمرة الله بحب يملأ قلبه ، ويفيض ،وإعطاه الله ماريد ، ومايزيد .

إن مذهب أهل الباطن فى الهند ، يقر إمكانية الوحدة مع الله. كماتقره المذاهب الصوفية فى الفناء .

ولكن المتقدات الدينية ، التى تتكلم عن الربوبية ، كاليهوديه والمسيحية والإسلام ، تجفل وترتاب فى هذا التفسير ، القائل بإمكانية الاتحاد المباشر مع الله ، وهى تصمم على ضرورة وجود وسيط بين الانسان والله ، هذا الوسيط هو نبى تلك الأمة ، فاليهودية تعترف بالنبى موسى كوسيط ، ينقل عن الله إلى الانسان ، والمسيحية ترى فى المسيح بنوة الله ووساطته لخلاص البشرية

والإسلام يرى فى النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، أنه رسول الله إلى الناس ، وترى هذة الأديان أن الله سبحانه وتعالى ، مطلق ، ولانهائى ، ومتعالى ، ودائم ، وكامل ... الخ من صفات الله ، فكيف يتحد مع الفانى ، وكيف لغير الكامل أن يتعالى ليتحد مع الكامل ، وكيف للعاصى أن يتجاسر ليدخل فى عصمة الله ويتحد معه ، وكيف يتحد مع الله من هو موجو ديه معدوم بنفسه .

الصوفى يفسر الاتحاد مع الله ، فى التخلق الفعلى بمكارم وأخلاق الله ، والايثار و إنكار الذات ، يرى الغزالى أن عين القلب تستطيع أن ترى الله ، ويفسر علماء الدين هذه الرؤية على أنها رؤية مجازية ، وأن الغزالى يقصد ، رؤية الله متجليا بأسمائه وصفاته فى الموجودات على إختلافها ، وحاضرا مع الإنسان فى كل آن لقوله تعالى « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » .

والتصوف فى صدر الإسلام كان يسمى علم السلوك ، كما جاء فى قول «ابن القيم» « مدارج السالكين » — وأجمع أهل العلم على أن التصوف هو التخلق والسلوك ،

والاستقامة مع الله ، والحب الأسمى ، والعمل بالكتاب والسنة ، والسبق إلى الخيرات .

ويفسر علماء الصوفية من المسلمين ، أن الصوفى الذى يشير بالألغاز إلى الاتحاد مع الله ، أن مراده بالاتحاد ، هو شهود وجود الحق الواحد المطلق الذى الكل به موجود ، فيتحد به الكل من حيث كون كل شىء موجودا به معدوما بنفسه ، لا من حيث أن له وجودا خاصا اتحد به فإنه محال ، ولهذا الموجود الواحد ظهور ، وهو العالم بما يحويه .

ويقول السيد عبد الكريم بن إبراهيم الجيلانى ، فى كتابه « النوادر العينية فى البوادر الغيبية ، الكثير من الأشعار ، والألغاز نذكر منها قوله :

أقوم أصلى أى أقوم على الوفا
بأنك فرد ، واحد الحسن جامع
صيامى: هو الإمساك عن رؤية السوى
وفطرى : أنى نحو وجهك أرجع
فما ثم من شىء سوى الله فى الورى
ولا ثم من مسموع ولا ثم سامع
فأوصافه والإسم والأثر الذى
هو الكون — عين الذ ت ، والله جامع
وفى فيه ، من روحى نفخت كفاته
هل الروح إلا عينه يامنازع
ونزه عن حكم الحلول فما له
سوى . وإلى توحيده الأمر راجع
فيا أحدى الذات فى عين كثرة
ويا واحد الأشياه ذاتك شائع

وما الخلق فى التمثال إلا كثلجة
وأنت بها الماء الذى هو نابع
ولكن يذوب الثلج يرفع حكمه
ويوضع حكم الماء والأمر واقع .

ونعود إلى الفكر الهندى فى التصوف ، حيث يرى صوفى الهنود ، أن الإنسان معرض دائما للخطأ ، ولكنه إذا استرحم ربه وكفر عن سيئاته ، فالله غفور رحيم وإذا ندم الإنسان أشد الندم علي مافعل ، وتاب إلى الله توبة نصوح،ودفع كفارة خطأه ، ورجع إلى الله بقلب سليم ، ونفس راضية ، فإن الله سبحانه وتعالى يقبل التوبة ، ويغفر الذنوب جميعها ، لأنه واسع المغفرة ، ورحيم بعباده .

ولما كانت كل الأنفس سائره إلى الله، فالله يقبل عبده التائب ويدخله فى محتواه ولما كان الإنسان روح وجسد ، فإن اتحاده مع الله يكون بالروح لا بالجسد ، فإذا كانت روح الله هى النور الكلى ، فروح الإنسان هى قبس من هذا النور ،وبذلك يمكن للعابد الصادق ، الفانى عن جسده ونفسه ، والمقيم الصلاة الروحية الدائمة ، أن يكون فى حضرة الله ، وأن يتلاقى قبس النور مع النور ، كما يتلاقى النهر فى مصبه مع المحيط .

فالنهر ينبع من ماء المحيط المتبخر والمتساقط فوق جبال وهضاب المنبع ، ويعود ليصب فى المحيط ، منه وإليه . وهكذا الإنسان انبثقت روحه من روح الله ، فإذا أزال كل الحجب والعوائق ، حدث انجذاب فورى بين النور الكلى وجزيئاته ، وانخطف الجزء إلى الكل ، أو الأصغر إلى الأكبر ، كما تنجذب ذرات الحديد فى المجال المغناطيسى للقطب .

وما كان المسيح عليه السلام ، وما كانت الأنبياء منذ الأزل ، الا تعبير ظاهر لنور الحق ، ورحمه للعالمين .

وما كان واجب الرسل منذ الأزل ، الا كونهم معلمون عظام استنارت قلوبهم

بنور الحق ، وأصبحوا مراكز للمعرفة . تتجمع حولهم قلوب المؤمنين ،ليخرجوهم من ظلمات الجهل إلى نور المعرفة واليقين . فمن آمن من صحابته حق الإيمان ، دخل فى حق اليقين وأصبح عين اليقين .

أما عامة الناس ، الذين لم تؤهلهم درجاتهم فى المعرفة إلى درجة الإيمان فالرسول يؤهلهم إلى المعرفة التى تقربهم من الله ، وذلك باتباع مناهج الدين ، والعبادات ، ولكل مجتهد نصيب ...

ولكل رسول درجات من المعرفة ، حسب ماوصل إليه فى معراجه مع الله ، وقد أعطى، الله سبحانه وتعالى ، الرسل ، علوما كثيرة منها ماهو مشاع لعامة الناس ومنها ما هو للخاصة والصحابة ، ومنها علوم الأسرار الكونية ، التى يحتفظ بها الرسل لأنفسهم ، لأنها فوق طاقة عامة الناس .

فالعلوم التى يعطيها الرسول لقومه ، هى علوم التشريع ، والسلوك الحسن ،ومخافة الله ، وترك المعاصى ، والندم على كل الأفعال السيئة ، ومحاولة التقرب إلى الله بفعل الخيرات ، وكل هذه العبادات بدنية .

أما علوم الخاصة والصحابة ، فهى علوم المعرفة عن الحق ، ومراقبة النفس ، والتأمل والمشاهدة بنور الإيمان ، والأعمال فى هذا المقام أعمال قلبية . والذكر قلبى ، وزاد السالكين فى هذا المجال هو التقوى ، ودوام الذكر القلبى،والمشاهدة والحب الصادق .

وفى هذا المجال ، أذكر قول رسول الله محمداً صلى الله عليه وسلم ، عندما قالت الأعراب آمنا ، فأجابهم بل قولوا اسلمنا ، ولم يدخل الإيمان إلى قلوبكم بعد « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم » .

« إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ،وجاهدوا بأموالهم أنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون » .

والتصوف في الفكر الهندي ، يرى أن الاتحاد مع الحقيقة له عدة طرائق ، أو أبعاد .

فهو يرى أنه في إمكان المريد ، أن يعيش في ظل رحمه الله ، فكرا ، وعملا ، وبصفة دائمة ، وأنه مغمور دائما برحمة الله ، وأن مافيه من حياة هي منحة من الله دائم الحياة .

أو أنه يعيش في ظل الله االلطيف بعباده ، فهو بين يدى لطف الله على الدوام ، بين أصابع الرحمن ، كما يعرف المؤمنون .

أو يرى أن كل أعماله هي في ظل قانون إرادة الله ، وأنه لاحول ولاقوة له إلا بالله .

ومنهم من يعمل على اكتساب القوى الخارقة ، وعمل المعجزات ، ليعبر عن قدرة الله .

ومنهم من يتوحد بدخوله في حالة مشاهدة للحقيقة في نفسه ، وفي كل وجه من وجوه الحياة .

ومنهم من يرى التوحد مع الله في أداء خدمات للغير ،دون أن يرجو من وراءها نفع لنفسه ، بل يسخر نفسه في خدمة الله بخدمة خلق الله ، ويرى في هذا كل سعادته .

وفي كل هذه المواقف ، يكون غرض السالك في طريق الله ، هو اكتساب فضل الله وكرمه وبركاته وإحسانه .

ولا يدخل في هذا الطريق ، إلا كل محب لله ، وزاهد في ماديات الحياة بطبعه ونشأته ، المحب الذي لا قصد له ولاغرض ، ولايرجو من وراء ذلك منفعه شخصية بل الحب لذات الله ، وهذا الحب هو زاده في الحياة ، وهو كل سعادتــه من الدنيـــا .

ويصاحب هذا الحب ، رغبة أكيدة فى التعرف إلى الله ، واكتساب المعرفة عن حقيقة الله ، بكثرة التأمل بشغف فى حقائق الوجود وعلاقتها بالموجود الحق . والبحث عن المعلم الخبير ، الذى يستقى عنه المعرفة .

ومن الصعب على الإنسان أن يصل إلى معرفة حقيقة الله مهما تأمل وحده فى آيات الله ، فالله سبحانه وتعالى ليس فى مركز الأبوة كما تراه بعض الأديان ،وهو ليس فى مركز الأمومه ، كما يراه بعض طوائف الهند ، وهو ليس كمثله شىء ، وهو لا يمكن تجزيئه ، ولا حصره ، ولا الإحاطة به :

ولكنه هو المحيط بكل شىء ، وهو حقيقة كل شىء ، وكل الناس فى نظرة الله سواسية كأسنان المشط ، « وشعب الله المختار » هو أمر من اختراع البشر ،فكل طائفة تدعى أنها هى الطائفة المميزة والمحبوبه عند الله ، وهذا يخالف الحقيقة ، فالناس سواسيه كأسنان المشط .

وكل ما يجول بخاطر الإنسان من صور عن ذات الله وحقيقته ،فهى رجم بالغيب وكفر وضلال .

فذات الله وحقيقته أمر لا نهائى ، وأمر بغير حدود وبغير تشبيه ، وبغير صوره وبغير نهاية .

كما يجب على الإنسان إلا يفاخر فى تعظيم رسول عن رسول آخر ، والا يكذب دين من الأديان ، فكلها نابعة من نفس المصدر ، ويجب احترامها جميعاوتقديسها وفهمها على حقيقتها .

إن أعظم الأديان التى ظهرت على هذه الأرض ، لم تصف ذات الله الا بوصفه الخالق ، وأن هذا الخالق العظيم ، ليس بطاقة عمياء ، أوطاقةميكانيكية،ولكنها قدرة عليا ذكية بغير حدود ، وأن هذه القدرة شغوفة بإظهاروقدرتها الخلاقة فى أشكال وصور بغير حدود ، وهذه الصور فى تطور مستمر ، ومع هذافوصف الخالق

بأنه قدرة خلاقة فيه تحديد للمطلق ، لأن المطلق ، وراء الطاقات والأفعال ، بل ذات جلالية متعاليه هيلولية الوجود .

وجميع الأديان من يهودية ، ومسيحية ، وهندوسية ؛ ومجوسية وإسلامية ، وغيرها ، تقف عند حد لاتتعداه ، ولم تصف هذه الأديان ، هذا المطلق وصفا يروى ظمأ العطشان . بل كل ماوصفته الأديان هو اسماء وصفيه لله ، وكما وصفها الإسلام بالأسماء الحسنى ، وسواء كانت هذه الأسماء أو الأوصاف ٩٩ إسما أو أكثر فهى قاصرة لغويا عن وصف المطلق .

لأن كل هذه الأسماء هي صفات . والصفات أمور تدخل فى حكم الإنسان فالإنسان من صفاته ، أنه كريم ، وقادر ، وحى ، ومؤمن ، وجبار ، ومصور ، ومذل ، وخبير ، ومنتقم ، وضار ، ونافع الخ من الصفات المشتركة .

وتفسر بعض الأديان ذلك ، بأن الله سبحانه وتعالى عظم الإنسان فأعطاه من صفاته . وأديان أخرى ترى بأن الإنسان هو روح الله ، كما أن أشعة الشمس تمثل روح الشمس .

وترى بعض الأفكار ، والفلسفات ، أن الأنبياء يمثلون الوجود الإلاهى فى الأرض ، وأن كل منهم ظهر يعبر عن جزء من الحقيقة فى عصر من العصور ، ولكن الحقيقة الكاملةوالحكمة المطلقة لم تتضح بعد .

إن لكل دين من الأديان ، رسول يكرس نفسه لنشر هذا الدين ، ولكل دين اتباع ومريدين ، يدافعون عنه ، ويخلصون له ، وليس هناك أدنى شك ، فى أن بعض الأتباع من خاصة المؤمنين بهذا الدين ، يبلغون درجات رفيعه من المعرفة الروحية . كما أنه يتبع ظهور كل دين جديد نهضة فكرية وثقافية ، ونهضة اجتماعية وإنتفاضة قوية فى جبهة من الجبهات تدعم وتقوى الأخلاقيات ، والمثل العليا . الا أن هناك عيب ظاهر ، فى الكثيرين من متابعى تلك الأديان ، الا وهو تسفيه آراء الأديان

والإقلال من شأنها ، أو تفضيل رسول دينى عن رسول آخر ، أو التفاخر بنبى معين على أنه سيد الأنبياء ، وهذا التفكير مرذول وغير مقبول ، ذلك أن الكل يستقى من مصدر واحد ، ولا يجب أن تفرق بين كتب الله ورسله ، ولو شاء الحق لجعل الناس أمة واحدة ، أما التفضيل فأمر يخص الله .

ولكننا ، إذا تأملنا فى مختلف الأديان، لوجدنا هذا التزمت والإظلام الفكرى والذى من أجله قد نشأت الحروب الضروس منذ القدم حتى يومنا هذا .

وإذا لم نحاول تغير هذه الأفكار ، وتنوير الشعوب ، فالسلام بعيد المنال مهما حاولنا من الأسباب .

وقد نشأت فى السنوات الأخيرة ، جماعات تدعو للاخاء بين المسيحية والإسلام أذكر على سبيل المثال جمعية (الإخاء الدينى ويرأسها الدكتور عبده محمود سلام) وهى تضم فضيلة الشيخ الباقورى والأستاذ يوسف حلمى المصرى مدير مدارس سانت جورج ، ونخبة من المسلمين والمسيحيين ، وترمى إلى التآخى بين الأديان، إلا أن صوتها لم يخرج من بين الجدران ونأمل أن يكون لها نشاط فى أوساط المجتمع ، ودور الإعلام .

كما نأمل فى إيجاد رباط بين الأزهر والكنيسة يتسم بالحكمة ، ويسوده الحب وهذه هى رغبة الخالق أن تتعارف الأمم وتتحاب . .

وهناك نقد ، يوجه من الراسخين فى علوم الحقيقة، إلى مايقوم به بعض المتدينين من إرهاصات وحركات واهتزازات ، وإصدار أصوات وصرخات ، وتمايل ذات اليمين وذات الشمال ، حتى يدخلون فى حالات من الإنجذاب الوقتى ، والانتشاء ومنهم من يسقط مغشيا عليه ، وكأن بهم مس من الجن ، يتساقط منهم العرق ، وترتعش فرائضهم .

ومع كل هذا الصخب . والتعب ، والنصب ، لا يخرجون بجديد من المعرفة ، ولكنهم يخرجون منهكوا القوى ، زائغوا البصر ، ولكنهم سعداء . . .

(اليوجا)

ولكن طريق المعرفة الحقيقى ، يحتاج إلى الهدوء والتأمل ، وأن يكون المريد محتفظا بحيويته ، ونشاطه ، وهدوء نفسه ، ليشاهد من خلال تأملاته ، بصيص من النور ، يضفى عليه فيضا من المعرفة ، يقوى ويثبت إيمانه وولائه ، ويغمره بالسلام النفسى ، والمحبة لإخوانه فى العقيدة ، وعلى أن يستمر بمجلسته التأملية فى ملاحظة نفسه وحكمها ، فيرى من خلال بحثه ، أن الإنسان بما أودع فيه من روح الحياة ، وهو حامل الصفات الكريمة ، الشفوق المحسن ، الخير الدمث الخلق ، الرقيق العاطفة الرحيم ، الفعال لما يريد فى حدود التيسير ، وهو الحى بما أودع فيه من روح الحياة ، وهو المؤمن بما وعى من الحقيقة .

ولكن ذلك الصخب الذى نراه فى الموالد ، ودق الدفوف ، وارتداء الملابس المرقعة أو الملوثة بألوان زاهية ، والصرخات التى تصدر من البعض ، كلها خزعبلات دخيلة على أهل الطريق القويم ، وهى لاتغنى ولاتسمن من جوع ، فهى شكليات جوفاء .

هذه الطاقات الضائعة ، والإنفعالات الشاذة ، بعيدة كل البعد عن جوهر المعرفة والحقيقة .

والمعرفة تحتاج إلى الهدوء ، والتركيز ، والتأمل ، والتفكر ، والمشاهدة . والكون مليء بالآيات البينات ، والإنسان نفسه هو أعظم آية يرى من خلالها الحقيقة ، فمن عرف نفسه فقد عرف ربه ، وقال سبحانه وتعالى « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق » .

أما العبث الذى نراه فى الموالد وفى بعض حلقات الذكر ، فما هو إلا جهد ضائع ، وقد يراه البعض أنه من قبيل الذكر بالجوارح ، ولكنه لايفتح القلوب المغلقة والعقول التى ران عليها صدأ الجهالة .

ولكن الرغبة الصادقة فى المعرفة ، تحتاج إلى التبصر بذكاء ، والاستماع إلى المعلم الروحى الصادق ، وتحتاج إلى جلسات هادئة فى خلوة للتأمل وذكر القلب ، والحضور فى الحضرة الإلاهية ، وهو القائل « معكم أينما كنتم » هذه النظرة ،

وهذه الفكرة ، وهذه الحضرة ، هى أسرع السبل ، وأقصر الطرق إلى معرفة الحق سبحانه وتعالى « فلا تكن من الغافلين » .

ولكن لا بد من مصاحبة هذه الأحوال ، سلوك قويم فى الحياة ، ومعاملة طيبة مع الناس ، وعلى الراغب فى هذا السلوك أن يبدأ بتقويم نفسه أولا ثم بمن يعول من أهل بيته . .

وأن يذكر الله فى كل لحظات الحياة عملا بقوله « واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين » .

الفصل الثانى

العبودية

إن طبيعة الحياة هى الحركة ، والموت هو السكون .

والحياة إرادة وفعل وعمل ، وقد خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان ، لـكى يعمل فى هذه الدنيا بكل مافيه من طاقة ، وأمره أن يحسن العمل ، والله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه ، ومامن مخلوق إلا وهو راغب فى الحياة ، ومامن إنسان ألا وفى أعماقه الأمل لـكى يحقق مايصبوا إليه حتى آخر نسمة من نسمات الحياة ، وهذه هى عبوديتنا . لله دوام العمل بإخلاص .

لقد وضعت القدرة العلية فى كل شىء رغبة فى الوصول إلى الـكمال ، وهـــذه الرغبة هى القوة الدافعة التى دفعت الإنسان إلى الـكشف والبحث ، ودوام التغير والتبديل، حتى وضع قدمه فوق سطح القمر، وهو الآن فى سبيله إلى كشف ما هو أبعد من ذلك . . .

والعقل الفارغ من البحث والعلم والمعرفة ، هو عقل راكد غافل يسكنه الشيطان وفى قول مأثور « العقل الفارغ هو معمل للشيطان » .

وكثيرا مايحتاج الإنسان إلى الانسحاب بعض الوقت من صخب الحياة ، ويغلق على نفسه الغرفة ، ومع هذا يظل فى تقلب فـكرى ، ويسير على هواه ، وقد يدخل فى سيال من أحلام اليقظة، أو يحلق بأفـكاره فوق السحاب، وقد يجلس فى هواجسه يجتر الماضى ، أو يتحسر على مافات ، وفى لحظة يرى أنه كان مقصرا ، وأنه لم

يبذل كل الجهد ، وأنه توانى وتواكل ، وأنه كان واجبا عليه أن يعمل كذا وكذا ولكنه تخاذل ، ولم يكن من أصحاب الهمم . فيخرج من تأملاته مستخلصا عظة، أو عبرة تفيده فى حاضره ، أو مستقبل أيامه ، أو مستقبل أولاده ، وهذا عمل لا بأس به . وأحيانا يجلس وحده ليفكر فى بحث ، أو ينجز عملا ، أو يبعث إلى الوجود إختراعا جديدا أو علماً نافعا ، وهذا أحسن ..

وأحيانا يترك الإنسان الحياة ، ويذهب إلى الجبل هاربا من معترك الحياة ، ولكنه فى الحقيقة يحمل فوق أكتافه منغصات الحياة التى أراد أن يهرب منها ، فهى ما زالت تحتل عقله أينما توجه ، وأينما اختفى أو ترهب .

وتمتاز اليوجا ، فى مثل هذه الأحوال بمساعدة الإنسان ، وتسمى هذه الفلسفة اليوجية بالكارمايوجا .

والكارمايوجا علاج للعقول المنهكة ، وعلاج لرجال العمل ، لأنها تنظم حياة الإنسان، وتوجه العقول وتضبطها بوسائل روحية تضفى على الإنسان الهدوء النفسى، وتحرر العقل من متاهات القلق والشرود .

ولنبدأ بالسؤال التقليدى ، ماهو المقصود بالعمل ؟

وتجيب الكارمايوجا ، بأن العمل أنواع ثلاث .

١ — العمل الروحى ، ويشمل المناسك والعبادات ، وإحياء علوم الدين ، والاهتمام بإحياء المناسبات الدينية ، وأداء الفرائض ، كما شرحها الدين ، وإتباع وصايا الانبياء ، وماجاء فى كتبهم المقدسة من أوامر ونواهى ، على لسان الله سبحانه وتعالى ، وهذا من أولويات العبودية . والإنسان المتدين ، التقى الورع ، يسخر نفسه لأداء خدمات مختلفة ، فى سبيل كسب رضاء الله .

فهو يقدم المعونات المالية للمحتاج (الذكاة) ، ويطعم الجائع ، ويكسى العريان ، ويأوى

من لا مأوى له ، ويدافع عن الضعيف ، إلى غير ذلك من سبل الخدمة ..

ويختلف هدف الرجل المتدين ، من أداء مثل هذه الخدمات ، فمنهم من يرجو المغفرة ، ومنهم من يفعل ذلك طلبا لدخول الجنة ، ومنهم من يفعل ذلك ليكسب رضاء المجتمع ، ومنهم من يفعل ذلك لإشباع غروره ، ومن يفعل ذلك تنفيذا لأوامر الكتاب المقدس ، أو خوفا من غضب الله .

وهذه تجارة بائرة ، لأن كلا منهم ، يفعل لقصد أو غرض ، أو مثوبه ، أو برجاء دخول الجنة بعد موته ، فهو يشبع نواياه الدنيوية برجاء كسب الجذاء ، فهو يرجو أن يعطيه الله ، المال والجاه والصحة ، نتيجة أعماله ، وينتظر أيضاً المكافأة بعد الموت فى دخول الجنة ، ليحيى فيها حياة سعيدة مديدة خالدة .

ولكن ، كثيرا مالا يحقق أمثال هؤلاء الناس شيئامن المثوبةفى الحياةالدنيوية أما بالنسبة للاخرة ، فلا يدخل الإنسان الجنه نتيجة عمله ، بل بفضل الله عليه إذا تغمده برحمته ، ومن المأثورات عن الرسول ، عليه الصلاةوالسلام أنه قال « لايدخل أحدكم الجنة بعمله ، فسألوه « حتى أنت يارسول الله !! » فقال « حتى أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمته » !! .

ولكن أحسن العمل ، أن يعمل الإنسان الخير من أجل الخير ، ومن أجل خدمة البشرية والإنسانية ، دون انتظار المكافأة الدنيوية ، أو المثوبه الأخروية ، فيفعل الخير رغبة فى الخير ، ولأنه يرى أن ذلك للصالح العام ، وأنه من الواجب عليه أن يعمل ذلك العمل ، لأن أخ له فى الإنسانية يحتاج إلى المعونه ، وقد قيل « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحبه لنفسه » والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » .

وهذا هو الواجب الذى يجب أن يفعله كل إنسان ، فالبشرية وحدة واحدة متكامله ، ونسف واحدة كاية ، إذا اشتكى فيها مجتمع تداعت له سائر المجتمعات وهذا هو معنى التضحية ، ذبح النفس فى سبيل خير المجتمع ، والنفس أمارة بالسوء

ومحبة لذاتها ، فهى تطمع فى الحصول على كل ماتشتهيه ، وقد تحطم الغير فى سبيل أطماعها ، وذبح النفس هو قتل أطماعها ، وترويضها للعمل الصالح ، فى سبيل الغير كلما أمكن ذلك ، فى سبيل إعلاء كلمة الله ، وقصة الذبيح التى وردت فى سورة الصافات ، عن رؤيا إبراهيم عليه السلام أنه يذبح ابنه ، ماهى الا كناية عن أقصى أنواع التضحية .

فإذا خرجت التضحية عن نطاق الطقوس . وعن نطاق المبادلة التجارية مع الله للكسب من وراءها ، كانت مظهرا شفافا للفضيلة ، ومعنى ساميامن معانى الحب الذى فيه العطاء خالصا لوجه المحبوب ، وهذه هى المحبة التى يترنم بها الإخوة المسيحيون « الله محبة » « وسلام ».

وهذا هو العمل الصالح الدائم ، الذى يجب على كل إنسان أن يؤديه ، وهذا هو الذكر الحكيم ، إنما ترديد أذكار باللسان دون عمل جاد ، فهو ذكر الغفلة .

٢ — العمل الثانى هو تكريس النفس لخدمة المجتمع ، وخدمة البشرية ككل حتى تبلغ أوجها ، وأن يعمل الناس جميعا للصالح العام ، متعاونين متكاتفين .

سواء كان هذا التعاون من خلال تجمعات تعمل لصالح المجتمع الذى تعيش فيه أو إتفاقيات دولية لصالح الشعوب المتخلفة أو الفقيرة ، ونشر التعليم بين الأميين ، ورفع مستوى المعيشة وعلى الإنسان أن ينظر بإمعان فى المجتمع ، ليرى أى الضروريات أحق بالخدمة ، وهكذا على التوالى ...

ويجب علينا قبل أن ندخل فى الخدمة العامة ، أن نقوم أولا بتنظيف أنفسنا من الشوائب ، وأن نعمل على زيادة قدراتنا ، وأن نجتهد لنكون مثاليات يحتذى بها ، وأن نحاول دائما اتقان كل عمل يسند إلينا ، وأن نطور أنفسنا كل يوم إلى ما هو أحسن .

وأن يقدم كل من يملك فائض من المال ، شيئاً من ماله لتحسين أحوال الفير . أو لعمل المشروعات التى تحتاجها الناس . من صناعية ، وزراعية ، وخدمات عامة . . .

٣ — والعمل الثالث . أن نعمل على حفظ المجتمع من الفساد . سواء كان هذا الفساد فى المجتمع ، أو فساد فى الرأي أو حرب دهماء . ولكى ننجح فى ذلك ، يجب أن توجه كل أسرة أفراد أسرتها ، وأن يكون الآباء والأمهات أمثلة صادقة للابناء وعند اختيار التعليم للاولاد ، ترى السكارمايوجا أن يختار القسيس أو رجل الدين لإبنه أن يكون محاربا أو ضابطا ، فيعمل على معاملة الجنود بقلب رحيم، وأن يعمل بقدر الإمكان على السلام ، الذى تطبع ونشأ فيه فى الأسرة المتدينة ، وأن يشتغل ابن رجل الحرب فى الأعمال الدينية وأن يوجه الإبن الذى خرج من أسرة فوضوية إلى العمل بالشرطة حتى تتهذب أخلاقه ويعمل على حفظ النظام ، والذى ولد فى أسرة بورجوازيه يوجه للعمل فى الشئون الاجتماعية ، وأن يوجه أولاد الحكام للعمل فى أعمال تتعلق بالشعب ومتاعب الشعب وهكذا يحدث إندماج وتفاهم وتغير إلى ما هو أحسن ، دون المساس بشخصية الفرد وحريته فى اختيار ما يشاء إذا أراد غير ذلك .

وكلما اتجه المجتمع إلى الاشتراكية الصحيحة ، وكلما نجح نجاحا عظيما ، ولدينا المثل الأعلا فى صدر الإسلام حيث كانت الاشتراكية حقيقة واقعـــة ، أما الآن فالاشتراكية أسماء جوفاء ، يزداد كل يوم عدد أصحاب الملايين ، ويحاول الغنى أن يزداد غنى ، ومن يشتغل بالتجارة ، لا يكفيه المكسب المناسب ولكنه يحاول ذبح المشترى ، ليحصل على أضعاف أرباحه ، لكى يقفز إلى قمة الثروة فى أقصر وقت . والحاكم يعيش فى القصور، وأفراد من الشعب لاتجـــد المأوى ، والوزير يركب العربات الفخيمة من أملاك الدولة ، والناس تحشر فى المواصلات، ولا حرية للصحافه فى معظم بلاد العالم ، والصحافه لاتقبل الرأى المخالف لنظام الحكم ، ولا تقبل النقد مهما كان لصالح الشعب ، ورئيس التحرير تشتريه الحكومة بالمرتب الضخم ، حتى يوجه صحيفته إلى ماتحبه الحكومة وترضاه ، لدوام بقائها . وشتان

بين الاشتراكية التى قامت فى صدر الإسلام وأنواع الاشتراكية التى يتشدق بها حكام الدول الإسلامية أو غيرها من دول العالم.

والعمل الروحانى . هو تكريس النفس لصالح المجتمع العام ،وإنكار الإنسان لذاته ، فالبذل دائما يكون فى سبيل نصرة الحق ، وفى سبيل نهضة البلاد ، وبذل الجهد فى سبيل توجيه أفراد الشعب بالعلم والمعرفة ، والتخلق بالخلق القويم. والرجل الروحانى يجب أن يبدأ بنفسه أولا ؛ فيطهرها ويعلمها ويذكيها ، ويتخلق بخلق الله ، ومن ثم يخرج إلى المجتمع مكرسا نفسه للخدمة العامة ، والخدمة العامة ذات أشكال وألوان ، وضروب وصنوف ، فمنها خدمة المريض والمحتاج ، ورعاية الجار وإكرم الضيف ورعايته ، وتعليم الجاهل ، وتثقيف للمتعلم ، وهداية العاصى ، والدفاع عن الضعيف ، وإطعام الجائع ، وكسوة العريان ، وتهذيب من لا خلاق له، ونظافة الدار ، ونظافة الطريق ، ونظافة الملبس والمأكل ، ونظافة الجسم ، ونظافة اللسان من كل دنس ، ونظافة البلد الذى نعيش فيه ، ومحاولة تجميل كل ركن من أركان المدينة ، والضرب على أيدى المفسدين والمستغلين ، ومحاربة الفسادو الرشوة والاختلاس ، ورفع مستوى الإنتاج ، ومحاربة التاجر الجشع ، والعمل بجهد لزيادة المشروعات الإنتاجية ، التى تعود على البلاد بصفة عامة بالخير العميم، إلى غير ذلك من الأعمال مهما كانت صغيرة ، فهى فى المجموع أعمال ضخمة ، فالصحروات مجموعة من الرمال الصغيرة .

والمحيطات هى قطرات من الماء ، والعمل الجماعى خير من العمل الفردى ، والعمل الفردى خير من البقاء فى سلبية ، والثرثرة فى ما لا ينفع .

والعمل الروحى يشمل رعاية الإنسان ورعاية الجماد ورعاية الحيوان ، ورعاية النبات ورعاية الجماد هى فى لمحافظة على تراث البلاد ، وعدم تخريب للمتلكات ، سواء كنا نملكهاأو يملكها لغير،أو تملكها الدولة،ففى الحفاظ عليها ثروة وثواب.

ورعاية الحيوان فضل كبير ، سواء كانت من الحيوانات التى تستخدم للطعام ، أو الخدمة العامة ، أو الزينة ، أو حيوانات الطريق الهائمة إلى غير ذلك من الخدمات .

ونخرج من هذا إلى أن العبودية شامله لاتتوقف على العمل الروحى ولاتتوقف على الصلاة والصوم والعبادة فقط ، لأن الله غني عن العباد ،ولكن العمل الروحى هو عمل شامل للعبادات ، والمساعدات فى سبيل المجتمع ، وفى سبيل أزدهار البلاد بكل ما وهبنا الله من قوى عقلية وجسمانية،وما كانت المناسك والعبادات الا لتطهير الأنفس وإصلاحها وإعدادها للعمل الجاد فى سبيل المجتمع ، وفى سبيل الحياة ككل فالأرض وحدة واحدة ونفس واحدة ، وبشرية واحدة ، والعمل الروحى ، عمل خالص لوجه الله وفى سبيل الله ، اينما تواجدت مخلوقات الله،وايثما كانت أرض الله والجزاء من جنس العمل ، فإذا لم تؤد العبادات إلى ذلك فهى غير مقبولة .

والرجل الروحى هو الرجل الزاهد ، الذى يقيم زهده بفعله فى شتى المجالات. وليس الرجل الزاهد بالرجل السلبى الذى يتقوقع فى نفسه كالمنبت لا إرضا قطع ولا ظهرا أبقى ، أو كأعجاز النخل الخاوية .

أما العابد الذى يقيم عبادته على المناسك فقط ، أو على أذكار اللسان فقط ، فهو المتزهد الغافل عن الحقيقة .

كما أن الجهاد فى سبيل الله، هوليس فقط القتال فى الحرب، بل هو يتسع مجاله فى كل موقع من مواقع وجود الأمة المادى والمعنوى ، بالعمل الجاد المخلص للاسرة، والمجتمع ، والأمة ، ثم للبشرية جمعاء ، دون التطلع إلى شهرة أو كسب مادى ، بل يضع نفسه فى تواضع كأداه، أو كروح من روح الله ، الذى يملك الأنام ويملك الوجود ، وهو المصدر العام لكل فعل أو جهد أو عمل و حياة ..

وتقول السكارمايوجا أن فى تكريس الإنسان نفسه لخدمة المجتمع ، فيه الخلاص ، والعتق من النار ، وبها يبلغ الإنسان حد الكمال ، لأن الهدف فيها هو خدمة الله فى خلق الله ، والمثل يقول (خادم القوم سيدهم) ، وفى خدمة الناس كسب للمعرفة ، وتحرير للنفس من حب النفس ، لأن تكريس الإنسان نفسه

لخدمة الغير يخلصه من عبودية ذاته، ويحرره من حب نفسه وطغيانها ، وإذا تحرر الإنسان من حب ذاته ، أصبح سيداً وحراً ، ومن سلك طريق الخدمة سلك الطريق إلى الله . . .

إن انطلاق الروح وحريتها ، لايعنى تجريدها وخلاصها كما لا يعنى التسامى بها إلى السماء العلا ، والروح الأقدس لا يمكن تصوره أو تخيله ولا يمكن فصله ووضعه فى جانب محدود ، كما أنه لايوضع تحت الاختبار والمجهر ، وهو لايوصف كمعلومات ، عامة ، كما أن التكريس والولاء والعبادة لا تعطينا كل الحقيقة . ولكن معرفة الروح، ومعرفة الله تتطلب جماع من العلوم والمعارف، وقوة الملاحظة وعمق الإدراك ، والمحبة الخالصة التى يسميها المتصوف بالعشق ، ويتوج كل هذا العمل المثمر ، والفعل المخصب .

وجماع هذه الصفات ، تخلق فى الإنسان الحكمة ؛ التى بها يعرف المتعبد ، العلاقة بين الحياة وبين العالم الدنيوى، فيرى أن الدنيا مزرعة الاخرة : وإن العالم بأسره ما هو الا صورة معبرة عن اللانهائى ، وظهور أزلى أبدى سر مدى للدائم الصمد . وأن الإنسان ، هو محصلة التطور والتقدم ، وبلوغ أوج الحضارة ، بالحب الخالص بين البشر ، وبما قام فى الإنسان من قدرة قادرة على خلق كل ماهو جديد وبما تأصل فى الإنسان من حب الجمال والكمال ؛ فهو يعمل بوحى من أصالته، وبما وضعه فيه الخالق من صفاته الحسنى والجمالية؛ تلك الصفات هى صفات الروح، وليست من صفات الجسد، لأن الجسد هو الهيكل ، فإذا أنارت الروح هذا الهيكل، ظهرت الشخصية الحقيقية ذات البصيرة ، وأصبح هذا الإنسان من الحكماء وأهل الرأى ، وأصحاب النهى والإدراك السامى ، الفاره الأريب ، وأصبح من أصحاب العواطف النبيلة، ومن ذوى الارادة والعزم والقدرة الفائقة ، إنه فى خلق جديد ، أنه مجلى وظهور ووجه للحقيقة .

فإذا مابلغ هذا الانسان تلك الأصالة، وذلك التحرر، دخل فى حصن لا إله إلا الله حصن التوحيد ، وأصبح طابعه الرحمة ، والشفقة ، والحنان ، وقام بالحب، وانطبق

عليه القول « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحبه لنفسه » إنه أصبح كلمة المؤمن حقا، الحى بالحب، إنه طابع الصالحين ، العاملين فى خدمة الانسانية ككل، نور يمشى فى الناس على مكث، لا يخبو ، ولا ينقطع، يريدون أن يطفئوا نور الله والله متم نوره ، ولو كره الكافرون ...

هذه هى إرادة الخالق من خلقه ، وهذه هى العبودية الحقيقية لله فى أرض الله وهذا هو الحب الصادق .

الفصل الثالث

الإنسانية نفس واحدة

كم من البشر فى هذه الأيام ، يجـــول بخاطرهم أن كل هذه الملايين من البشر إخوة ؟؟؟ .

لقد ألهانا التكاثر ؛ فلم نعد نذكر أننا جميعا أولاد آدم ؛ وبالرغم من أن كل الأديان ، عرفتنا بنوتنا لآدم ، وأننا كلنا من آدم ، وأن آدم خلقه الله من تراب ، وأحياه بروح منه ، وأن ابانا آدم بارك الله فيه وفى زريته ، فأصبحت زريته تملأ مشارق الأرض ومغاربها ، حتى كادت تضيق الكرة الأرضية عن احتواء أولاد آدم !!

هل يشعر الرجل الإنجليزى أن له أخ صينى ؟

وهل يعرف الرجل الأمريكى ، أن له أخ زنجى يعيش فى اواسط أفريقيا ؟

وهل يحس الرجل الأوروبى أن له شقيق فى اليابان ، أو فى الهند ؟

هل يشعر الرجل الفرنسى الذى يعيش فى باريس أن له أخ يعيش فى مرسيليا ؟

هل يرى الإنسان المصرى الذى يعيش فى القاهرة أن أخاه فى الإسكندريه أو فى أسوان ؟

بل أكثر من ذلك ، إن هناك من الأسر القديمة يحملون نفس الإسم ولا يعرف أبناؤهم من الأجيال الجديدة ، أنهم أقارب ، أو ذوى رحم وذوى عصب ! !

ولهذا السبب حثت جميع الأديان على الإخاء والمحبة ، وعرفتنا أن كل هذه البشرية من نفس واحدة ، وأسهبت الأديان فى شرح هذه الأخوة ، وحثيت على

محبة الجار ، فى الدار ، وفى العمل ، وفى التجارة ، وفى كل مشارق الحياة .

ولما انتشر أولاد آدم فى مشارق الأرض ومغاربها ، أصبح لكل فرع لغة ، وصفات ومميزات ، ودين ، وأصبحت الإنسانية ، تشمل كل الصفات ، ففيها الطيب والخبيث ، وفيها الأبيض والأسمر والأسود ، والغنى والفقير ، والعالم والجاهل ، واللص والأمين ، والمتدين ومن لادين له ، والسليم والمريض ، والقوى والضعيف .

كانت الحياة فى بدأها على الفطرة ، كان فيها تجمع ومحبة وتعاطف أسروى . فلما تكاثر الناس ، نسوا فطرتهم ، ونسوا وداعتهم وأخواتهم ، وظهر الفساد فى الأرض ، فنشأ الطمع والجشع ، والإستغلال ، والكراهية ، والطغيان ، وقامت الحروب ، واستعمر القوى الضعيف ، واستعبد الإنسان أخيه الإنسان ، حتى انتقم الأخ من أخيه أبشع انتقام ، وكانت القنبلة الذرية التى ألقيت على هيروشيما ونجازاكى صورة غير مشرفة للانسانية ، بل صورة تعبر عن القسوة والهمجية ، فى أبشع صورها .

أفاقت الشعوب ، وعرف الغالب أنه كالمغلوب ، كلاهما فقد إنسانيته ، وكلاهما فقد كرامته ، وقامت جمعية الأمم بدور من التعاطف بين الشعوب .

وظهرت صحوة واعية ، وتغيرت نظرة الشعوب القوية إلى الشعوب النامية ، وقامت المنظمات المختلفة منبثقة عن هيئة الأمم ، للاهتمام بالشعوب الفقيرة ، والشعوب التى انهكها الإستعمار .

وظهر زعماء روحانيون ؛ ينشرون الحب ، والإخاء ، وتهافت عليهم المتعبون ، يرجون الخلاص .

والحقيقة أن هذه الصحوة ، قد بدأت ، عند ظهور المسيحية ، ثم تلاها الإسلام ثم مرت سنوات طويلة حدثت فيها كبوات .

ثم ظهر زعماء سياسيون كان لهم أكبر الأثر فى تغير الأمور ، أمثال الزعيم

غاندى ، وأمثال جورج واشنجتون ، الذى حرر العبيد ، وجاء الرئيس أيزنهاور عقب الحرب العالمية ، مد يده إلى الشعوب المتخلفة ، وظهر الزعيم تيتو ، الذى غير سياسة بلاده ، وسيمون بوليفار فحرر دول أمريكا اللاتينية ، وقام الرئيس المؤمن أنور السادات ، فغير المسار فى منطقة الشرق الأوسط ، وقام الرئيس نميرى فوحد السودان الشمالى والجنوبى وآخى بينهما .

وانتشرت فى أوروبا وأمريكا المفاهيم الروحية ، بفضل انتشار معلموا الهنود الروحيون ، فى أنحاء العالم ، وبدأت حركة فكرية روحية جديدة ، ونظرة عالمية طيبة ، هى فى الواقع نظرة تصوفيه حديثة ، فيها تميز وتبصر :

وتهدف كل هذه الأفكار ، والتجمعات إلى انتشال العالم من هوة السقوط ، فى بحر الحقد ، والجشع ، والمادية المدمرة ، وانتشال العالم من ويلات الحروب الذرية المدمرة . والحروب الاقتصادية ، التى هزت كيان الشعوب ، وقيام دول البترول ، بالتحكم فى أسعاره ، الأمر الذى أشعل الغلاء فى العالم ، وجعل الناس تزحف على بطونهـــا ..

وإن لم تتآخى الشعوب ، وتنظر نظرة صادقة ، ويفتح الزعماء السياسيون والاقتصاديون ، أعينهم فسوف يدمر العالم نفسه بنفسه ، كما قالها من قبل (شمشون) « على وعلى أعدائى » .

إن قدرة الله ، والكامنة فى روح الحياة ، والمحيطة بكل شىء ، هدفها الوصول إلى الكمال فى هذه الأرض . ولكى يسير العالم إلى هذا الكمال المنشود ، يجب أن يكون هناك عمل جاد بين زعماء الشعوب ، يسوده الحب والرغبة فى السلام الشامل الحقيقى ، والتصرف بحكمة ، بعيدة عن العنصرية ، فى الدين ، والجنس ، أو اللون ، أو الشعوبية ، لبلوغ الهدف فى خلق إنسانية متكاملة ، تحل محل هذه الإنسانية الممزقة بوحشية وصلف وغرور .

(اليوجا)

وهــذه المبادىء الإنسانية ، يجب أن تتلازم ، وتتضـافر بين كل الشعوب ، و « لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » . « إدفع بالتى هى أحسن» « فـكأن الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » وبهذا يسود أفراد الشعوب الحب المتبادل، والإشتراكية الحقيقية ، التى ترمى إلى إطعام كل فم ،وإعداد المسكن الملائم للانسان ، فقد خلق الله الناس سواسية كأسنان المشط .

ويجب على كل زعيم أن يعمل فى وطنه ، لتقارب الناس فى معيشتهم ولا يكون هناك ذلك الفارق الضخم بين الأغنياء والفقراء . وعلى كل فرد من أفراد الشعب أن يبذل أقصى جهده فى العمل الجاد المثمر ، فالعامل يتقن عمله ويرعى الله فى أجره والفلاح يجتهد فى أرضه ، وفى أنتظاره للمحصول ، لاينام ، بل يجتهد فى عمل آخر مثمر يرفع من دخله ، فإذا سارت الحياة هذا المسار ، بلغ كل شعب درجة من التـكامل والوعى ؛ جعلته يتقارب مع باقى الشعوب ، وعندئذ يمـكن قيام اتحـاد قومى فى كل قارة من القارات الخمس ، لـكل منها ثقافتها ، واقتصادياتها ، وعملتها الموحدة ، وكما أن للدولار الامريكى قوته ، يكون للجنيه الأفريقى قدرتـه ، وتتحد الدول الأوربية فى معاملاتها وعملتها ، ويقوم اتحـاد آسيوى على نفس النمط .

وبعد استقرار هذه النظم ، يمـكن قيام إتحاد شامل عالمى، بين جميع شعوب الأرض ، يهدف إلى توحيد البشرية وتـكاملها ، فتصبح الأرض كلها بشرية واحدة وأخوة واحدة ، ونفس واحدة .

هذا هو هدف الخالق فى هذه الأرض ، فى قوله سبحانه وتعالى « وخلقناكم شعوبا وقبائل ، لتعارفوا » و « تعاونوا على البر والتقوى » و « لا تعاونوا على الإثم والعدوان » « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه » فإذا بلغت شعوب الأرض هذا المأرب ، وأخذت الحياة زخرفها ، وورونقها الجميل، الا تـكون هى جنة المأوى ، يتبوأ فيها كل إنسان رغد العيش ، والهناء المنشود .

وإذا نظرنا بعمق ، فى الحياة ، قديمها وحديثها ، لوجدنا أن أسباب الشقاء والبؤس ، هو فى هذه الإنعزالية والانفصالية ، بين أفراد الناس وبين الشعوب وبعضها وبين الحكومات ، وبين الزعماء والحكام من ذوى الميول المتطرفة .

ولكى ننزع من القلوب ، تلك الأحقاد المتوارثة ، يجب أن نزرع المحبة فى القلوب ، تماما كما نزرع شجرة من التفاح ، تثمر وتعطى أكلها كل حين .

تبدأ أولا بزراعة حبوب الحب فى قلوب الصغار من أطفال الشعوب ، بالتعارف والتلاقى والتزاور ، من خلال خلق هوايات فنية ، تجمع بين الأطفال كالرسم ، والموسيقى ، والغناء ، والفنون المسرحية ، وسائر أنواع الفنون المشتركة ، والعلوم وتبادل الأفكار ، والملابس ، والهوايات ، والألعاب الرياضية ، وتبادل الهدايا ، والسياحة والتعرف على الأسر ، وتبادل طوابع البريد والنقود ، وغيرها من المعلومات والثقافات ، التى تمهد لهم سبل التعارف والتحاب . ثم تبادل شباب الجامعات لينهل كل من ثقافات الدولة الأخرى ، ويتحاب الشباب ، مع الإكثار من بيوت الشباب التى تسهل الترحال ، وتستقبل الشباب بأجور رمزية .

ثم تبادل العمال للتعرف على الصناعات فى كل بلد ، وتبادل الفلاحين للتعرف على أمثالهم ، فيتعلم كل منهم مايدور فى بلد الآخر ، ويتذوق كل منهم طعام الاخر ، وإذواقهم ، وأفكارهم ، وهواياتهم ، وفنونهم ، ولغاتهم ، حتى ينهل كل شعب من معارف الشعب الاخر ، ويتعارف الناس ، ويتآخوا ، ويتوادوا ، ويتحابوا .

ثم يأتى دور الحكومات فى التلاقى والتشاور ، وتبادل الزيارات ، والمؤتمرات والتعاون فى شتى الاتجاهات ، حتى ينشأ وعى عالمى ، وتقارب يمهد إلى التطابق المنشود ، بعيدا عن الاثرة . وحب النفس ؛ والتعالى بين الشعوب ، وكل ما يدخل فى نطاق العنصرية .

وليكن الحب هو الفرس الأساسى المتبادل : بين كل الشعوب . أفراد وحكومات .

وأن نسمح بالمصاهرة ، والتزاوج ، بين أفراد الشعوب مهما اختلفت ألوانها .

يجب أن يعلم كل أب أبناؤه كيف يحبون أولاد الجيران ، وأولاد الشعوب المختلفة ، وأن تقدم جميع وسائل الأعلام من تلفزيون وراديو وسينما ، قصص تنم عن المحبة والتآخي وتقوم الصحف بنشر المقالات والصور ، المعبرة عن الحب والتلاقي والتآخي .

وقد بدأ الإسلام ، بوضع الأساس الأول، فى التآخى بين المهاجرين والأنصار ثم نشر الاسلام فى المشارق والمغارب الحب والتعاطف بين الناس ثم جمعهم فى الحج لباس أبيض ، وجعلهم سواسيه كأسنان المشط ، وجمعهم على قبلة واحدة ، ولم يفرق بين العربى والأعجمى .

فإذا ساد هذا الحب البشرية كلها ، وملا القلوب ، وعمر العقول، ظهرت الحكمة وأختفى الضلال ، واختفت الحروب والمنازعات ، وتحرر الإنسان من العنصرية والحقد ، وتوحدت البشرية فى الظاهر ، كما هى موحدة فى الباطن بقيام روح الله فى الكل ، وبإحاطته بالكل .

إن المقصود بكلمة الحب ، ليس المظهر الحسى أو العاطفى الذى يتعامل به إنسان مع الجنس الآخر . أو الحب الذى يخضع فيه المحب للمحبوب ، أو الحب الذى يخنق المحب فى دائرة المحبوب ، أو يقهر الرجل ويذله فى حب امرأة ، أو العكس .

ولكن الحب فى هذا المجال العالمى ، هو نوع من الحب المتسامى ، يفيض بالعطاء ، ويخرج الإنسان عن أنانيته ، ويدخله فى حب أخوى شامل للوجود بما احتواه من بشرية وحيوانية، وجمال الطبيعة، حب فوق مستوى الغرائز والأحاسيس والعواطف . حب فناء فى الله ، حب الله فى مرآة وجوده ...

ويرى العارفون ، أن هذا الحب المتسامى ، هو الذى يقربنا من الله ،ويدخلنا فى حصنه (ويعتق الرقاب .

وأنه إذا اجتمع للانسان الحب ، والعلم ، والمعرفة ، والعمل الجاد ، تحول من تدانية وتثاقلة إلى الأرض ، إلى روح شفاف مستنير ، تغمره الحكمة ، ويمشى فى الناس بأنواره ، ينشر أفكار المحبة والخير ، لصالح المجتمع وصالح البشرية ، وتغمره معرفة ذاتية نابعة من أعماقه ، وفهم كامل ووعى روحى للوجود الإنسانى ، وللنفس الواحدة بما فيها من إمكانيات ، وبما فيها من حلوها ومرها ، فهى واقع الحياة فى هذا الوجود . وبهذه النظرة المستنيرة يلتزم العقل بالهدوء النفسى ، وبالرغم من قيامه فى معترك الحياة .

فالمعرفة الصحيحة للحياة ، هى التى تجمع بين الواقع فى شتى مظاهره ، وبين السلام النفس ، والسمو الفكرى ، والحب المتسامى .

وجاءت الأديان منذ قديم الأزل تحض على العمل الصالح ، ومحبة الناس ، وتزيل غشاوة الجهل عن أعين الناس من الغافلين .

وجاء الإسلام ، يروى أنباء ماسبقه من الأنبياء ، ويذكر الناس بالقديم والحديث وقام الإسلام ليجمع بين الدنيا والدين ، فنظم مناسك العبادة ، ووضع القواعد والمناهج المثلى ، ودخل من مدخل الدين إلى مدخل الدنيا ، ولم يفصل بين الدين والدنيا ، فأمر بالصلاة فى مواعيدها الموقوتة ، وأمر بالعمل وحض على إتقان العمل وربط بين إتقان العمل ومحبة الله فى قوله « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » .

وحض على الكثير من معاملات الناس ، فيما بينهم ، وعرف التجارة والربا والميزان ، والزواج وتفصيلات الحياة الزوجية ، والمباشرة بين الأزواج ، وحكم الطلاق . وتكلم عن الرضاعة ، ومعاملة الجار ، وحسن الجوار

والزكاة وأنواعها ، سواء كانت زكاة عن المال أو الزراعة ، أو عن النفس إلى غير ذلك من أنواع المعاملات الإنسانية ، ولم يترك صغيرة أو كبيرة فى معاملات

الناس ، وأحكام القانون ، وهذا هو لب الدين . وقد حض أيضاً على التفكير ، وأمر بالعلم ، ونزلت أول أياته فى قوله سبحانه وتعالى « إقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم . . .

فأدمج مع القراءة علم القلم ، وعلم المعرفة والبحث فى خلق الله ، وما خلق من علق ، ثم جاء فى آيات أخرى ، ذكر التفكير والتأمل ، لأن فى التفكير زيادة المعرفة وتفتح العقل ، وفى التأمل زيادة التركيز وعمق الفهم ، والكشف ، وفى التأمل الصحيح يتصل الفكر الإنسانى بالفكر الكلى أو العقل الكلى ، فيعلم الإنسان من الله ما لم يكن يعلم ، وهكذا يقول سبحانه « اتقوا الله ويعلمكم الله » .

وقد حض الإسلام على حب العمل ، واتقان العمل ، فقال » « أعملوا فسيرى الله عملكم » .

وقال « من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

فوضع قانون الحياة ودستورها ، فى هذه الآيات الشريفة ، وليس المقصود هنا من فعل الخير هو إعطاء القروش إلى الفقير وحسب ، فهذا أمرا فى الحياة ؛ ولكن المقصود بفعل الخير هنا ، هو كل فعل يؤثر فى صالح البشرية وتقدمها ، وفى صالح الشعوب ؛ وفى صالح الأسرة ، ولو أخذنا فى تفسير الأعمال الصالحة لما فرغنا من الكتابة ، مصداقا لقوله تعالى لو اتخذنا من البحر مداد النفذ البحر قبل أن تنفذ كلمات الله ولو جئنا بمثله مددا .. الخ .

فإنشاء المصانع من أعمال الخير ، وإقامة المنشآت والمبانى ، من أعمال الخير ، وزراعة الأرض ، من أعمال الخير ، والأعمال الحرفية ، من أعمال الخير ، والعمل الحكومى ، من أعمال الخير ، وكل ما يساهم فى نهضة المجتمع وتقدمه ورفاهيته ، فهو من أعمال الخير ، ويشترط فى كل هذا ، الإتقان التام ، ودوام التطوير إلى ماهو أحسن ، فدوام الحال من المحال ، كما يشترط أيضاً مراعاة الله فى كل ما يفعله الإنسان

ففي قوله « ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، ليس المقصود بها إيذاء الناس أو قتلهم فقط ، ولكن المقصود هو إيذاء الناس في أرزاقهم ، والكسب غير المشروع ، والطمع في الكسب ، والتكاسل في العمل ، وعدم أداء واجب الوظيفة ،والاضرار بالناس في أي صورة من صور الإضرار ، بالامتناع أو بالفعل ، أو باتخاذ المواقف السلبية ، وفي كبت حريات الناس ، وفي الإثراء على أكتاف الغير ، واستغلال صاحب العمل للناس، وليس الربا هو إعطاء المال بالفائظ فقط ، ولكن الربا أيضاً هو إستغلال الناس في البيع والشراء ، واستغلال البائع للانسان عندما يشترى حاجاته ، فهو في حاجة إليها وقد يكون فقيرا أو محتاجا ، وأولاده في حاجه ودخله محدود ، فقد يذهب موظف غير ميسور الحال لشراء حاجياته من الطعام، فيجد الأسعار فوق طاقته ، فهذا من أعمال الربا ، وتكاسل موظفي التموين عن الإشراف الدائم من أعمال الشر ، والإهمال في أداء الواجب .

وحصول أصحاب الحرف علي أجور مرتفعة، وتغالبهم في تقدير أجورهم جذافا هو من أعمال الشرور وفي نفس الوقت من أعمال الربا ..

فكل هذه الأمثلة وهي لجة في المحيط ، تعرفنا أن الله سبحانه وتعالى يضع دستوره في كلمات ، ولكنها كلمات تحتوى من المعاني والمفاهيم ، مالا حصر له ، ولكن عقولنا هي الضيقة وأفكارنا هي المحدودة ، وتمسكنا بالتفسير القديم الذي وضعه أناس في عصور قد خلت ، هو سجن لأفكارنا ، وحجاب لعيوننا ، وكبت لعقولنا .

وإذا سارت البشرية علي نسق هذا الدستور ، فهي في طريقها إلى الخلاص،وفي طريقها إلى الله ، وهذا هو طريق الصراط المستقيم .

كما أن التعاون من أعمال الخير ، وتعاونوا على البر والتقوى .. ولا تعاونوا على الإثم والعدوان .

والتعاون هنا ليس هو فقط فى إنشاء الجمعيات التعاونية ، ولكن التعاون غير محدود ، ونذكر على سبيل المثال ، تعاون الجار مع الجار ، تعاون أفراد الأسرة ، تعاون أهل الحى ، لنظافة حيهم ، وتعاونهم لإنشاء المساكن ، وللتجارة ، والتعليم ، وتعاون الأغنياء مع الفقراء ؛ فى إنشاء المصانع ، ولإقامة المستشفيات ولتجميل الحى ومساعدة الفقير والمريض ، ومحو أمية أهل الحى ، وإنشاء صندوق مال للحى يتبرع فيه كل غنى وقادر ، وتجمع فيه أموال الزكاة ، وتصرف فى صالح الحى ، وإنشاء مراكز صناعية تصرف أرباحها لمساعدة الفقراء ، أو تدريب الأسر الفقيرة على أعمال تدر عليهم أرباحاً تحسن أحوالهم .

كما يجب نبذ كل تجمع للعدوان فى أى شكل من أشكاله أو صوره ، كقوله تعالى « ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » .

ففى التعاون يفقد الفرد أنانيته فى سبيل المجموع ، ويعمل بكل طاقته فى سبيل المجموع ، ويعمل بكل طاقته فى سبيل المجتمع ، وهذه رغبة الخالق فى قوله « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه » « والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » .

فهل حقق المجتمع الإسلامى الآن هذه الرغبة الإلاهية ؟؟ بالرغم من أن الإسلام جاء لينشر هذه المبادىء ، مبادىء المجتمع الإشتراكى التعاونى المتحاب ، الذى كان فيه المسلم يؤثر أخيه المسلم عن نفسه ولوكانت به خصاصة ...

والقصص عن صدر الإسلام ، وتآخى الأنصار والمهاجرين ، فيه زخيرة كبيرة لو رجعنا إليها ونشرناها فى العالم الإسلامى المتفكك المتباغض ، لأثمرت وأفادت البعض ، فقد عاش المهاجرون والأنصار ، حياة المشاركة الحقيقية ، وكانت نتيجة تلك الحياة الرشيدة نهضة عظيمة ، وقوة ، بلغت بها الفتوحات الإسلامية مشارف الصين شرقاً ، وإسبانيا غرباً ...

ونجد مثل هذه الأفكار الإسلامية فى فلسفة اليوجا ، فهى تحض اليوجى

ليشارك الغير فى كل مايجب ، وأن يبذل العطاء لكل محتاج ، وأن يكون فى خدمة المجتمع والخير المجتمع ، فهو شعله مضيئه لمن هم حوله ، ومعان للخير .

ونجد فى البوذيه أن الإنسان لايتحرر ، إلا إذا إرتفع فوق أنانيته ، وقدجاء فى كتابهم المقدس من الوصايا والنصائح القدر الوفير الذى يحض على العمل الصالح ، وأعمال الخير ، وأداء الواجب ، ولما كانت الروح من أمر الله ونفحة من روحه فهى تتصف بصفات الكمال ، وهى محصنة من كل دنس ، وذات بصيرة وتأمل وهى راغبة فى بلوغ الكمال ...

وكانت الأفكار القديمة ، أن الإنسان كروح وجسد مقيد، وأنه لن يتحرر إلا إذا انفصل الروح عن الجسد وأن هناك برزخ يفصل بين عالم الروح وعالم المادة، وأن التفاهم بين الروح والجسد من الأمور العسيرة ، والعراك والمخاصمة بين الروح والجسد ، يؤدى إلى الأمراض العصبية والنفسية وعدم الاستقرار .

ورأى قدماء الكهنوت فى معظم الاديان ، أن الإنسان إدا أراد أن يتحرر ، عليه أن يعتكف، وأن يعذب الجسد لكى يطهره، وأن يذهد فى الدنيا، ويعتبرها وهم وخيال ، وأن يهرب من الحياة إلى مكان قصى ، فى غابة أو صحراء،أو يأوى إلى كهف فى الجبل ، أو ينام على فراش من الشوك ، إلى غير ذلك من الأفكار البالية ، زاعما أن فى ذلك يكون نصرة الروح وفوزها . وكانت سعادة الإنسان ، تعتبر فى حكم اللهو والعبث البعيد عن الدين .

وتطورت هذه الأفكار القديمة، ونشأت فلسفة جديدة فى أفكار اليوجا ورأت اليوجا الحديثة أن تحرير الإنسان، يجب أن يكون فى إطار الحياة وفى خضمها، وأن الخلاص لا يكون فى هروب الإنسان إلى كهف يأويه ، أو صحراء قاحلة،أو تعذيب النفس وقهرها ، بل يجب على الإنسان أن يدخل الحياة ، وأن يتأمل فى الحياة بدلا من أن يتأمل فى الموت ، فالتأمل فى الموت يجعل الإنسان سقيما فى حياته ، وتعيسا فى المجتمع ، ولكن الدخول إلى الحياة ، والتبصر فيها ، والمشاركة فى حياة المجتمع

ومحاولة إسعاد الناس ، هي خير وسيلة لإسعاد النفس وتحررها ، فقد خلقنا الله لكي نستمتع بالحياة ، ولكي يكون لنا نصيب من الدنيا ، نرى جمالها فى كل وجه من الوجوه الطبيعة المزدهرة بالخضرة ، وجمال الزهور اليانعة ، وألوانها الباهية ، وروائحها المعطرة ، فى نظرة متأملة إلى البحر والوانه اللازوردية ، فى نظرة متطلعه إلى السماء ، ومافيها من جمال وجلال ، وإلى وجوه البشر النضرة ، إلى براءة الأطفال ، إلى كل آيات الله التى خلقها لكى نتبصر فيها ونرى عظمته ، وهو القائل ، سنريهم آياتنا فى الافاق وفى أنفسهم ...

فخلاص الإنسان ليس فى هروبه من الحياة ، ولكن خلاصة فى رؤياه السليمة وتبصره فى شتى أنواع الحياة ، وأن تعامله مع الناس ، ومحبته لله هو فى محبة وجوه الحياة ، وآيات الله التى أبدعها وأحسن تصويرها . وبهجه الحياة هى فى الوجود وليست فى العدم ، وهى فى البناء ، وليست فى الهدم ، هى فى الهناء ، وليست فى الشقاء ، هى الإيجابية وليست السلبية ، هى فى البسمة ، وفى خفقة القلب عندما يهفو إلى لقاء الأحبه .

وفى التسامح والغفران للغير .

إن الزاهد فى الحياة هو رجل سلبى كسول ، يرى الحياة عبء ثقيل على نفسه ، لأنه لم يختبرها ، ويرى أن جسمه عبىء ثقيل ، له احتياجات ومطالب لاقبل له بها ، ولكنه إذا دقق النظر ، وأخذ من الدنيا بالقدر المناسب دون طمع أو جشع ، وأعطى أحاسيسه بالقدر المهذب ، وجعل من نفسه نقطة انطلاق فى الحياة ، وجعل من أعماقه ينبوعا وسبيلا لإسعاد الاخرين ، لوجد أن كل فعل له رد فعل ، فإذا زرع الخير وجد الخير ، وإذا زرع الحب جنى الحب ، وإذا زرع الحياة استمتع بالحياة . .

لقد رأت بعض الأديان أن الجنس رزيلة ، وأن الاستمتاع بالحياة هو رجس من عمل الشيطان ، وأن شهى الطعام شىء بغيض ، وحرمت القليل من متاع الحياة فهل نهج الاسلام هذا المنهاج ؟

لقد ظهر الإسلام كدين ودنيا ، فجمع بين العمل للدنيا والعمل للاخرة ، فحث على الصلاة كعمل روحانى ، وحث على الذكاة كعمل دنيوى وأخروى ، وشرع للمسلمين نظماً كثيرة لخير دنياهم ، وقال « ولاتنس نصيبك من الدنيا » وقال « اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله » .

ومع ذلك فقد اتفقت جميع الأديان على أن الزنا معصية ، وأن كثرة الجماع ، وإن كانت فى حدود الشرع الا أنها أمر غير مرغوب فيه ، وأنها مصيدة الشيطان، ذلك أن الشيطان يجرى من الانسان مجرى الدم فى الشرايين ، والاشتهاء الزائد يجعل الانسان عبداً لغريزته متثاقلا إلى الأرض،وإذا لاحظنا مركزالشهوة وجدناه أسفل الجسم ، فى المركز الأدنى ، وكلما ارتفعنا عن الغرائز من المركز الجنسى إلى المركز الهضمى ثم مركز الأحاسيس حول القلب ، ثم ارتفعنا إلى أعلا حيث المركز الفكرى والعقل كلما زاد وعى الانسان وزاد نموه الروحى .

وكذلك الطعام فى منزلة الشهوة ، إذا كان بقصد اللذة ، والاكثار منه يجلب التخمة ، ولكن التذوق والاعتدال فى الطعام يجعل الجسم أكثر صلاحية ، ولا يرهق أجهزة الهضم والقلب ، وقيل « جوعوا تصحوا » « والمعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء » .

وإذا اعتدل الناس فى طعامهم ، عم الخير للجميع ، والمثل العامى يقول « اللقمة الهنية تكفى مائة » .

إن العقل دائما يحاول أن يفرق بين الانسان وبين الله ، فالانسان مخلوق من جسد ونفس وعقل وروح ، والنفس دائما أمارة بالسوء ، وهى دائما تحاول إثبات وجودها واستقلالها عن روح ، بل لا تكاد النفس تشعر أنها قائمة بالروح ،والعقل يحاول دائما أن يقارن ويجادل ، ويقارع ، ويبحث ، ويستقصى ، ويجول ويصول ، والعقل يوجه الأحاسيس ، والمشاعر ، والأطماع ، فهو يجادل فى الله وفى آيات الله وإذا انضوى تحت دين من الأديان ، كانت رؤياه ثنائية ، فهو يرى النفس ، ويرى

الله رؤية فكرية ، ولكن إذا ارتفع الانسان فوق هذا المستوى الفكرى،ورأى بالبصيرة ، وكان من أولى الألباب ، عرف وحدانية الله ، ورأى أنه بيت معمور بالروح ، وقلب مغمور بفيض من نور الله ؛ وأنه جزء من الكل قلبا وقالبا .

والانسان فى محاولة للوصول إلى المعرفة ، يمر بمراحل مختلفة ، فهو يرى ، أن دوافع العقل الغريزى ، رجز من عمل الشيطان ، فيحاول التغلب على هذه الدوافع بقهر الجسم ، وقمع الشهوات ، وإماتة الأحاسيس ، ظناً منه أن الروح غير راضية، وهو يبيت ليله ساهدا عابدا حتى يضنى جسده ، دون رحمة أو هوادة، ويصوم دهره تجويعا للجسم ، دون أن يرى الحكمة من الصوم ، فالناس تصوم بحكم العادة ، أو بسيطرة الدين ، ولكن هل تبصر صائم ليعرف ماهى الحقيقة ؟ .

وقد لازمت الانسان فى هذا العصر أمراض مختلفة منها قرحة المعدة،والسرطان والربو ، والأمراض النفسية ، نتيجة لعدم الاستقرار النفسى ، وللكبت السياسى والاجتماعى ، فالحصول على المسكن والمأكل أصبح مشكلة ، وطغيان المجتمع وطبقاته أرهق المحتاج والفقير ، وأصبح رجل الأسرة الكادحة والموظف البسيط فى أتون من النار .

فالانسان الشريف لايجد قوت يومه إلا بكل عسر ، والشاب المستقيم ،والراغب فى الزواج ، لايجد المسكن بل وأن وجده، لايجد ما يكفى لتأثيثه،والفتاة لها مطالب جسام فى الملبس ، والعطور ، والمباهج المختلفة .

ونتيجة لكل هذه المتاعب والمطالب، أصبحت الروح حبيسة فى جسد لايعطيها الحياة ، فتنافرت الأرواح مع الأبدان ، ونتيجة لهذا التنافر زاد الشقاء، وانحرفت الناس عن الطريق القويم ، وزاد تعداد المنتحرين ، والمجانين، وأصبحت الدنيا بما رحبت سجن بغيض ، وأصبح الجسم زنزانه للروح، وإذا استمر الحال بضع سموات على هذا الكبت، فسوف تنفجر الناس، رغبة منهم فى الخلاص، إما بثورات عارمة تحطم الحياة ، أو حرب ضروس تأكل الناس ، وتأكل الأخضر واليابس .

وترى فلسفة اليوجا للخلاص من هذا الحال ؛ زيادة المعرفة والعلم ، حتى يعرف الانسان نفسه ، ويعرف روحه ، ويحاول أن يوائم بين الروح والجسد ، وينغم بينهما ، فيتوازن الانسان ، فإذا نضج المجتمع روحيا ، تعاون على البر ، وتعاون على خلق حياة إجتماعية نظيفة وخيرة ..

والخلق اليوجي والصوفي يرمي إلى سمو النفس ورقيها ، وإلى تهذيب الغرائز ، ورقي الفكر وتساميه ، وفي نفس الوقت يرمي إلى العناية بالجسم ونظافته وتقويته وإلى فهم الروح وتغذيتها بعطاء من الفضائل والكمال ، حتى تسير هذه المجموعة ـ الروح والجسم والنفس والعقل متوائمة .

والحقيقية ، أن الله سبحانه وتعالى ، قد خلق الانسان بصفاته مجتمعه ، وخلق له البيئة المحيطة ، لكي ينعم بها في الحدود التي رسمها له الله ، والله جميل يحب الجمال كريم يحب كل كريم ، وقد أخفى الله الروح في أحضانه .

لكي نبحث عنها في أنفسنا ، ونعرف أن لنا ميراث من روح الله العظيم ، ونعمل على شاكلته متصفين بصفاته الحميدة ، متنورين بأنواره ، وما كان تطور الانسان إلى ما هو عليه الآن الا بفضل الروح ، ونهجها إلى الكمال الذى هي نبع منه .

وإذا نظرنا إلى الطفل في تطوره ، نجده بحكم الغريزة وبالفطرة ، يبدأ في تناول ثدي أمه دون تدريب ، ثم يتعلم كيف يبكي أو يضحك بالفطرة التي فطره الله عليها ، ويلعب العابا يخترعها بغريزته .

وإذا وضعنا أمامه سبيكة من الذهب ولعبه صغيرة ، إختار اللعبة وترك سبيكة الذهب ، وإذا حرمناه من اللعب ، وعاملناه معاملة الرجال ، يمرض وتنتابه الحالات النفسية التي قد تؤثر عليه طول حياته . ولكن إذا تركناه في تطوره الطبيعي ،

سرعان ما يترك لعبته إلى اهتمامات أكبر ، وهكذا يظل عام بعد عام ، يتحول من حال إلى حال ، حتى يبلغ مبلغ الشباب ، فيهتم بملاقاته مع الجنس الاخر ، فإذا كبتناه إنحرف ، ثم يظل فى تعاوره فيكون أسرة ، يهتم باهتمامات الأسرة ، ثم العمل الجاد فى سبيل مستقبله ، ثم يتجه إلى الفكر الدينى والسمو الروحى ، وفى هذا دليل قوى على أن فى الانسان نزعة طبيعية إلى معرفة الله ، وهذه النزعة تكون قوية فى بعض الناس منذ الصغر ، وتزداد مع الأيام عمقا ودأبا فى البحث عن الحقيقة ....

الباب الخامس

طريق الكمال

الفصل الأول

طريق الكمال

يولد الإنسان ، ويعيش فى الحياة الدنيا ، ثم ينتقل إلى حياة أخرى وهو لا يعرف ما هو الغرض من تواجده فى هذه الحياة .

ولكن أهل المعرفة ، قالوا أن هذه الحياة قنطرة نمر عليها ، لكى نفهم وتعرف وتتأمل ، ولكى نتعلم ، وكانت أولى آيات التنزيل تقول « إقرأ » - إقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم ...

ثم توالت الآيات والسور التى تحض على العلم والمعرفة ، والتأمل والتبصر ، والعمل الجاد ، والسعى . . . الخ فالإنسان تواجد على هذه الأرض لكى يتعلم ويعرف ، فقد بدأ من نطفة من علق ، ثم استوى كإنسان ، ولكنه إنسان هيكلى فهو من غير العلم والمعرفة ، كأعجاز النخل الخاوية ، ولكنه إذا تعلم وعرف ، تبدل حاله من أعجاز نخل خاوية إلى إنسان عاقل ، تتعلم منه الملائكة وتسجد له ، فبالعلم والمعرفة أصبح شيئا مذكورا ، أصبح روحا مطهرة ، فإذا أجتاز هذا الاختبار عتق رقبته من عبودية الجهل ، وأصبح كلمة ، أصبح يتصف بصفه من صفات الكمال ليرجع إلى خالقه وقد عرف نفسه قلبا وقالبا ، ظاهرا وباطنا ..

- الكمال النفسى -

الكمال النفسى ، هو ترنيم وتنغيم شخصية الانسان مع المجتمع والبيئة ، ومؤانسه العقل للجسم ، وتواؤم الجسم والعقل مع الروح ، فالانسان مكون من كل هذه العناصر ، فهو جزء من الشكل المادى ، وهو جزء من الشكل العقلى ، وهو جزء من الشكل الروحى .

فإذا ترنم وتنغم مع كل هذه القوى، أصبحت له إرادة فاعلة، وأصبح «كالمايسترو» الذى يدير فرقة كبيرة من أصحاب الآلات المختلفة، ينغمها كلها فتتوافق الأصوات، ويصدر عنها شدو يطرب .

أما الإنسان الذى لم تكتمل شخصيته، فهو كالريشة فى مهب الرياح، لا إرادة له ولا قدرة، ضائع فى الحياة ..

ويقول العلماء، أن للعقل الباطن قدرات لاحدود لهـا، فهو الطاقة المحركة لكل ذرة فى هيكل الجسم، وهو الطاقة الخالقة لتكاثر الحيوانات المنويه، والمنبه لنبضات الجنس التى تعمل على استمرار النوع، وهو دائب العمل لتحسين الجنس البشرى ورقيه، وتكاثره . وهو الإرادة الكامنه فى الإنسان التى تؤكد شخصيته وهو مركز الرغبات الجسميه والنفسية، وهو موطن العادات، وخالق القدرات . كما أنه فى الحقيقة موطن « أفعال الشيطان » بمعنى المبتذل من الأفعال الخسيسه والحيوانية، وفى نفس الوقت هو بيت السمو والرفعه، وخالق العظمة فى الإنسان، فهو المذل للانسان إذا تدانى وسفل فى أفعاله، وهو المعز للانسان إذا ترفع وتسامى ففيه يكمن الشيطان والملاك جنبا إلى جنب، وفيه النور والنار؛ وفيه حالك الظلام وغشاوته؛ وتكمن فيه البصيرة .

فإذا عرف الإنسان نفسه، وحقيقة تكوينه، ومركز وجوده، أمكنه أن يبدل حالك الليل إلى نهار، وأمكنة أن يحول النار إلى النور، وأن يسكن الجنة، ويتبوأ من الأرض حيث يشاء ...

وفى هذا العقل الباطن سجل محفوظ، مسجل فيه حياة الإنسان منـذ النشأة الأولى للجنس البشرى، وما مر فيه من تطور عجيب دقيق .

ويكمن فى هذا العقل شعلة من الطاقة الخلاقة، التى بيدها التكوين، النور الكامن، المصباح المنير المضاء من نور القدس، المضاء من الشجرة النورانية، ليصبح آدم الحياة .

وإذا لاحظنا تكوين جسم الإنسان ؛ لوجدنا فيه مايمثل الزواحف ، وهو العمود الفقرى ، وهو مضروب مشترك فى معظم المخلوقات الفقارية ، كما أن فى تكوين الذراعين مايماثل جناحى الطيور ، ونجد فى العقل الباطن للانسان رغبة قديمة للتحليق فى الجو والارتفاع ، ونجد فى طبائع البشر ، رغبة دفينه فى الإندفاع ، والتعدى ؛ والاستفزاز وهى البقية الباقية مما كان فينا من حياة الغاب .

ومازال — تترسب فى عقولنا ـ بعض أفكار الشر ، جنبا إلى جنب مع أفكار الخير ، فنحن عجينة من الشيطان والرحمن من الخير والشر من النور والنار ، وفينا من أحوال الجنة والنار ؛ وعلينا أن تطور أنفسنا إلى صورة من صور الكمال وهذا هو المنشود من وجودنا فى هذه الأرض ، فهى مزرعة الآخرة ؛ وعلينا أن نتعلم فيها فن الحياة .

وقد وهبنا الله عقلا واعيا يجب أن نستخدمه بحذق ، حتى نسيطر على العقل الباطن (الغريزى) دون تدميره أو تدمير نفسيتنا . لأن العقل الغريزى جبار مندفع فإذا تركناه طليقا فعل كل مايحلو له ، ومايشتهيه . وعلينا أن نصده باحتراس ، وأن نخمد شهواته فى رفق ولين ، وأن نستميله بحذق ، حتى لايدمرنا ...

وعن طريق هذا الكفاح ، نتحول من الحيوان إلى الإنسان ، ومنه إلى الكمال إلى الإنسان الكامل الذى يتصف بصفات الله الحسنى ، مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى ، « كونوا ربانين » وعندئذ سنتخلص من كل الشوائب ، ومن كل الصفات المدمرة ، ونسمو بعقولنا ونتسامى بأرواحنا .

وكلما حدث تداخل بين العقل الواعى والعقل الغريزى ، ظهرت المتاعب النفسية وإذا لم يتمكن الشخص من حسم النزاع ، إزدادت هذه العوارض . وأصبح الشخص مريضا نفسيا أو عصبيا .

وهناك أشخاص ، يتخلصون من ذلك التداخل ، بمسايرة العقل الغريزى ، دون التحكم فيه ودون مراعاة آداب المجتمع ، الذى يعيشون فيه ، فيتبعون كل أهوائهم

مصداقا لمذهب « اللذة غاية الحياة » ، فيأكلون مالذ وطاب حتى يتخمون ويمرضون ويشربون كل ماتشتهيه بطونهم من الشراب ؛ ويمرحون حتى الثمالة ، ويتذوقون ما لذ وطاب من النساء ، دون مراعاة لحرمة جارا وصديق أو دين . وفى النهاية تنهار عقولهم وقواهم ، إنهم الخاسرون ، لقد عاشوا فى عماء كالريشة فى مهب الرياح بغير هدف ، فإذا أفاقوا من غفلتهم ، وجدوا كل ماعملوا كسراب ، فقد ذهبت اللذة وبقيت الحسرة ،

أما الذين أتقوا ، وأخذوا طريق الكمال والمعرفة ، وتمكنوا من مغالبة النفس فلهم فى النهاية أجورهم ... والذين يتبعون طريق مغالبة النفس ، فريقان ، فريق ، يتبع معلما روحيا ، يتخذه رائدا له ، ويسير على نهجه ، ويرتبط معه بكلمة شرف وعهد ، و ويعطيه الشيخ ، أو المعلم الروحى ، كلمات تسمى فى المشيخة بالورد ، أو التسابيح ، يتلوها الطالب عقب صلاة الفجرة ، وعقب صلاة العصر ، وهى تعتبر رباط قوى بين المعلم والتلميذ ، ويحسن أن يتصور الطالب شيخه فى أثناء هـــذه التسابيح .

وبقدر انتظـــام الطالب فى تسابيحه ، وحضوره جلسات العلم يكتب له النجاح ...

والفريق الآخر يرتبط بمعلم دون الإرتباط بكلمة ، أو عهد ، فهو يطلب المعرفة من أجل المعرفة ...

وفريق آخر من الناس يسلك بصفته الشخصية دون الإرتباط بمعلم ، فهو يطلب العلم فى أى وجه ، وفى أى مكان ، أو عن طريق كتاب دينى ، أو تلاوة الكتاب المقدس فحسب ، وهنا يكمن بعض الخطر ، فقد ينجه وجهة خاطئة ، أو يفسر لنفسه آيات الكتاب تفسيراً على هواه ، أو يظل فى موقفه دون تقدم روحى ، وقـد ينحرف فى سلوكه فى المجتمع ، أو يخمد فى نفسه روح الحياة والعصر ، أو يفقد عقله واتزانه فيعتقد معتقدا سلبيا ويصبح فى حالة عداء مع المجتمع ، فالمجتمع فى نظره

كافر وهو وحده على صواب ، وقـد يخدع بعض ضعاف العقل ، ويتحكم فى تصرفاتهم ، ويوجههم وجهات خاطئه ، فيتصرفون بعداء مع المجتمع ...

نصبح هـذه الفئه من الناس بعدم التشدد أو الولوج فى متاهات العقل حتى لاينحرفوا فى حياتهم ، أو يدخلون فى حالات من الزهد الخاطىء ، الذى يضيع حياتهم سدى ، دون فكر ، أو عمل ، أو إنتاج ، أو خدمه للمحتاج ، ويتركون الحياة صرعى بأفكارهم الشاذة ، ومعتقداتهم الخاطئه :

إن مغالية المجتمع ، وإنكار الحياة ، بشكل من أشكال الزهد المنحرف ، فيه تشويش للعقل ، وكبت لإحتياجات الحياة السليمه الصحيحة ...

ولذلك نصح كل مريد لسلوك طريق الحكمة ، أن يتبع المعلم ويشترط فى هذا المعلم أن يكون مشهوداله بالحكمة والمعرفة والإعتدال ، وأن تكون تعاليمه على مسمع من الجميع ، حتى يناقشها الكل دون إنحراف ، وأن يرى فيه الجميع التقى والورع ، فلا يتكلم الابالحكمة ، ولا يأمر إلا بالخير ، فيكون رسول رحمة ، وفكر ، وسلام ، وأن يشعر المريد فى جواره بالطمأنية ، وأن يرى فى نفسه التغير المستمر ، إلى الأحسن والأكمل فى حياته ، إجتماعيا وروحيا ، فيرتفع عن حثالة الأرض ، إلى سمو الروح ، وكما قيل « مالكم كاما نوديتم إلى السماء تثاقلتم إلى الأرض » ؟؟

أما المعلم الضعيف ، أو السطحى ، أو المشوش ، فقد يشعر معه البعض بارتفاع مفاجىء ثم لايلبث أن يسقط فى النهاية ، دون عودة ....

والتقدم الروحى يضفى على الإنسان شخصية وديعه فى قوة ، وسلام عقلى ، ونمو فى الفكر ، وقوة فى التفكير ، وبصيرة ذات تأمل ، وعمـق فى الرؤية وإتزان فى الأداء ، وتحكم فى الغرائز الجوهرية ، والسلوك النفسى ، وفى النهاية يصل السالك فى طريق الحكمة والروحية ، إلى التوحيد ، بمعنى توحيد الجانب اللاشعورى من النفس والحاوى لجميع الدوافع الغريزية العمياء ، والخاضع لمبدأ

اللذة ، والناشىء من الطين والمادة ، مع الجانب الواعى من الذات ، مـــع الأنا الحقيقية ، الأنا العليا ، فيـكتشف الإنسان ذاته الحقيقية ، ذاته التى هى فى المركز ، فى العمق ، ذاته الأحدية ، فيعرف من هو الوجود الحقيقى ، وماهى الصورة ، ويعرف الإنسان أصله ومصدره ومنشأه ، فإذا عرف نفسه العليا ، نفسه الأسمى عرف ربه .

وفى هذا المجال ، سيعمل السالك حتى لاتطغى نفسه المتدانيه على نفسه العليا ، ولايطغى الجسد بقوته الجسمانية على سمو العقل ونـــوه ، وتساميه ، ولاتطغى الأحاسيس والغرائز ، على المشاعر الساميه . ولاتطغو المشاعر على سداد الرأى ، فلاتتحـكم العواطف فى الأحـكام السليمة .

ولاتطغى مطالب المجتمع الفاسدة ، على الإحتياجات اللازمة والضرورية لنموه وتطوره ، ولاتغمر الأوهام والأحلام عقول الشباب فتفسدها . ولاتثور العامة من أهل الرأى الفاسد ، على الخاصية من ذوى الرأى والفضل والمعرفة ، ولايستبد حاكم فاسد طاغ بشعب جبان أو ضعيف .

وعلى أهل الرأى والحـكمة ، الوقوف فى وجه ذلك الفساد ، فى شق صوره وتقديم المعرفه ، والمشورة الدائمة ، فى شجاعة وقوة ، حتى يتطور المجتمع إلى المعانى الإنسانيه ، إلى الـكمال فى طريقه الصحيح ومعراجه إلى الأعلا ....

ولما كانت الإنسانية مـكونه من المجتمع ومايحتويه من الأنفس ، ولما كانت النفوس مختلفة المشارب ، وأنه لا انفصال بين الناس والمجتمع ، كان على المفـكرين أن يأخذوا فى الإعتبار ، إحتياجات المجتمع الـكفيله بنمو الأنفس . وكان على الحاكم ومعاونوه ، أن يتبصروا فى أعماق المجتمع ، ليعرفوا المعيار المتوسط الذى بمقتضاه يضعوا قوانينهم الجنائية ، والماليه ، والزراعية ، والإقتصادية ، والعلمية ، وسائر اللوائح التى تنظم هـــذا المجتمع فى حالته الراهنه ، دون النظر إلى قوانين المجتمعات الأخرى الأكثر نموا ، أو الأقل تخلفا ، وكلما حدث تطور ، عليهم

أن يعيدوا النظر ، فى إحداث التغير القانونى ، الذى يعيد الأمور إلى نصابها ، فى ظل التطور الجديد .

وليس علينا أن نتمسك بقوانين ولوائح عفا عليهما الزمن وأصبحت فى خبر كان ، فمهما كانت قوتها ومهما كان مصدرها . ومهما كانت شرعيتها ، فلا نكن من المتزمتين .

وقد نزلت منذ آلاف السنين الكتب السماوية ، وهى تحوى تشريعات كانت لازمة فى عهودها ، فلما تطور المجتمع ، أصبح لزاما على أصحاب الرأى ، أن يضعوا القوانين التى تناسب المجتمع الجديد ، ومما لاشك فيه أن الله سبحانه وتعالى كان موجـــودا فى تلك العهود ، كما هو موجود الآن ، وهو الذى يرى تقلب المجتمع ، وتطوره ، وهو الذى بحكمته صارت الأمــــور ، ومازالت حكمته تسير الأمور ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ...

ولنتبصر فى القول المأثور — كل يوم هو فى شأن — فشأن المجتمعات منذ الآف السنين ، ليس ، هو شأنهم اليوم ، وعلى المتزمتين أن يفهموا ذلك ! !

ولكن هناك مبادىء ثابتة لرقى المجتمع ، هذه المبادىء قائمة فى النفس ، فإذا صلحت الأنفس صلح المجتمع ككل . فقديما جاءت الأديان لتقويم الأنفس المعوجه بالتخويف والترهيب من النار ، والترغيب فى الجنة ، فإذا نضجت الشعوب ، عرفت أن الحياة تتطلب الاستقامة ، والاستقامة بمعناها الكبير تشمل كل النواهى التى نهت عنها الأديان ، والصفات المثلى التى يجب أن يتصف بها المؤمن الصالح . وعندمـــا قال الرسول صلى الله عليه وسلم « جئت لكى أتمم مكارم الأخلاق » كان هذا هو الفرض الأساسى من الدين ، هو تقويم الاخلاق ، فالدين هو حسن المعامله بين الناس والناس سواسية كأسنان المشط ، جاءوا من نفس واحدة ، فهم إخوة ولا يجب إن يطغى الاخ على أخيه ، والله فى عون الناس ، ماداموا فى عون أنفسهم وفى عون بعضهم البعض .

وعندما يلتفت الإمام للمصلين خلفه ويقول « استقيموا يرحمكم الله ، إن الله لاينظر إلى الصف الأعوج » فإنما يذكر الناس بالاستقامة ، فظاهر القول هو استقامة الصف ، ولكن المعنى الباطنى الذى يراه المؤمن ، أن المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضا ، وأن وحدة الصف أساس وحدة الجماعة ، ووحدة الجماعة ، فى وحدة المجتمع ، ووحدة المجتمع ، تنطوى على المحبة والإخوة فى السراء والضراء فلايؤمن أحدكم حتى يحب لاخية مايحب لنفسه ، ولينظر الإنسان ويتأمل فى حب النفس ، فهى تحب أن تحصل على كذا وكذا وكذا ممالا حصرله من متاع الدنيا فهل رأى أحدنا أن يفضل أخيه على نفسه ، أو هل رأى أنسان أن يساوى نفسه بأخيه فى المجتمع ، فهل استقمنا فى الحياة كاستقامتنا فى الصف ، وهل تعلمنا النظام فى أحوالنا ، وهل استقمنا فى صف الجمعيات والمواصلات ، وسائر امور حياتنا المعوجه

والإستقامة بمعنى أشمل فى البشرية ، هى قيام إنسانيه واحدة فى هذه الأرض ، لافرق بين دين ودين أو لون ولون ؛ أو وطن ووطن ، فالإنسان هو ابن الارض والله سبحان وتعالى هو الذى يزرأنا فى الارض ، فنحن نولد فى مكان ما ، وهذا الميلاد هو الذى يحدد جنسيتنا ، ولكن إرادة الله أن نتقابل ونتعارف ونتعامل ، وإذا تأملنا فى الحج نرى إن إرادته سبحانه وتعالى ، أن يترك كل حاج وطنه وعشيرته ، وأن يلبس جميع الحجاج لباس واحد ، وأن يلتفت الجميع حول هدف واحد متراصين كأسنان المشط ، والكعبة تمثل قلب الامم الإسلامية ، بل قلب من سبقهم من الامم منذ أن أقام سيدنا إبراهيم قوائم البيت ، وكان إبراهيم مسلما حنيفا .

إذا ليس الدين هو مايراه الناس فى ظاهره من شكليات المناسك والصلاة والصوم ، فهذه رموز سطحيه ، والله غنى عن العباد ، ولكن حقيقة الدين هى الهدف وراء هذه المناسك المعبرة عن الحقيقة ، فوراء كل المناسك هدف ، هذا الهدف هو معرفة الإنسان لحقيقته ، معرفة الإنسان لإنسانيته لأحديته التى تكاثرت فى وحدانيتة ، والتى أساسها المحبة (حتى يحب لأخيه مايحبه لنفسه) فالله محبه

والإنسانية محبة ، والوجود محبة ، « أحببت أن أعرف فخلقت الخلق » فما أجمل الحب إذا كان خالصا من كل الشوائب . « إخوانا على سرر متقابلين » .

وما أتعسه وأحقره إن كان يهدف إلى الشيئيات ، والرغبات ، والأحاسيس والأطماع ، والأغراض . . .

ولكن ، هل وصل مجتمع من المجتمعات ، فى هذه الارض ، إلى هذا الصفاء الروحى ، بالرغم من نزول كل هذه الرسالات ، وبالرغم من تهديد أئمة المساجد فى كل خطبه من أيام الجمع بالوعيد والنار ، وبالرغم من قيام كل قسيس وواعظ فى أيام الآحاد ، ومناداة الاحبار فى أيام السبت من كل اسبوع ، ووعظ الوعاظ فى سائر الاديان والمعابد ؟؟

والحقيقة أن فى كل إنسان جذوة من النار تسمى الشيطان ، وفيه أيضاً قبضة من النور ، أو قبس من نور الرحمن ، فى النفس فجورها وتقواها .

فإذا كانت القاعدة العريضه فى المجتمع يتملكها الشيطان فالمجتمع فاسد ، وقادته من المفسدين ، « فكيفما تكونوا يولى عليكم » . والقلة الصالحة فى مثل هذا المجتمع الفاسد تراها مبلبلة الأفكار مشوشة فى تصرفاتها ، بلا حول ولاقوة ، فالحكم للرعاع ، والقانون فى أجازة . . .

أما إذا كانت القاعدة العريضه من الشعب من ذوى التقوى والصلاح ، ولاأقصد هنا بالتقوى والصلاح ، التقوى والصلاح الدينى بمفهومه السطحى ولكنى أقصد بالتقوى والصلاح ، تقوى الأخلاق والمعاملات ، وصحوة الفكر ، وثاقب النظرة ، وعمق الفكرة ، والرأى السديد ، والصلاح هو صلاح العمل الدينى ، والدنيوى ، وخدمة المجتمع ، بصالح الأعمال ، والمشروعات العظيمة ، التى تعود على الإنسانية بالرخاء ، وأداء واجب الوظيفه وحقها خير أداء ، وزيادة الإنتاج مع إتقان المنتجات وتطوير الصناعات لخدمة المجتمع ، ورفع مستوى المعيشه ، وبتر العضو الفاسد ، فى كل هيئه ، أو وظيفة ، أو مصنع ، أوقرية ، أو جماعة ، أوبيت

وفى مثل هذا المجتمع لايجرأ الحاكم على الرعية ، بل يسير بهديها ، ويخشاها ، لأنه إذا إنحرف بتره الشعب الصالح فورا ، فهذا المجتمع يعرف أن الحاكم أجير عنده ، وهذا مانراه فى الدول العظمى المتقدمة لايحكمها خوف من الدين ، أو خوف من الحاكم ، انما يسود مجتماتها ، العلم والمعرفة ، والبحث والإختراع ، لرفع مستوى شعوبها ، بل لصالح البشرية جمعاء .

وهذا مايريده الخالق من الخلق ، فقد أعطى كل نفس فجورها وتقواها ، ويقول للانسان هـــذه نفسك وأنت تملكها ، وأنت حر فى أن تجعلها فى أسفل سافلين ، أوترفعها فى أعلا علين ، فانت تملك الخيار ، وقد أفلح من ذكاها ، ففى إذكاء النفس ، عتقها وحريتها ، عتقها من تسلط الشيطان وجنوده ، والشيطان هنا يعنى كل ماسفل من الأفعال والعرائز ، والنوايا والأفكار ، والدنايا ، من الموبقات والمحرمات والرزائل ، والا أخلاقيات فى شتى صورها الفكريه أوالمادية

وقديما كان يختفى الصالح من الناس ويبتعد عن المجتمع الفاسد ، ويعتكف فى غار ، أو غاب ، أو بجوار النهر ، أو بعيدا فى شواطىء البحار ، لعله يجد السلام ، ولكنه كان يحمل معه متاعب قومه ، ويظل فى معبده البعيد بجسمه ، ولكن عقله وفكره ، يؤوب إلى الناس بين الفينه والفنية ، وذلك لأن المجتمع جزء من روح الحياة ، مابقى الإنسان حيا ، فهو فى واقع الحياة وجزء منها أمهما ابتعد عنها ، وذلك فى ظل قانون أحدية الوجود ، وكما سبق أن ذكرنا إن فى كل قلب جذوة من الحب ، والإنسان بطبعة مخلوق ليعيش فى المجتمع ، وأول مجتمع الطفل هو أمه ، وأول جذوة من الحب هى حبه لأمه ، وكما قال رسول الإسلام عندما سأله سائل عمن يحب ؟ فأجابه » أمك ، فلما كرر سؤاله ثم من قال أمك !!! وظل يكررها مرات ثم قال « ثم أبوك » فالحب عنصر أساسى فى القلوب ، والإنسان بطبعه يبحث عن الحب ، حبه للغير ، وحب الغير له ولاتكتمل سعادة الإنسان ، الا بالحب الصادر منه والوارد إليه .

وإذا دققنا النظر فى شواذ الناس ، والمنحرفين ، لوجدنا أن تعطشهم للحب ،

أو فشلهم فيه ، أو غيبته فى طفولتهم ، خنقت عنصر البهجة فى حياتهم ، فثاروا على المجتمع .

والإنسان الذى يهرب من المجتمع ، ظنا منه أن المجتمع فاسد ، إنسان فاشل ضعيف ، ومثله كمثل الزوج الذى يهرب من زوجته عند مرضها ، أو الأب الذى يهرب من بيته لأن أولاده مشاغبين . ولكن الرجل القوى الكامل ، لا يهرب من زوجته أو أولاده ، أو مجتمعه ، بل يبقى فيه ، ويكرس نفسه لخدمته ، فكما يبقى الزوج لرعاية زوجته ، والأب لإصلاح ابنائه ، يبقى الرجل الأصيل فى وطنه مكافحا فى مجتمعه ، داعيا إلى الإصلاح ، وموجها ، بكل مايملك من طاقات الجهاد ، وهذا هو الجهاد الأكبر الذى يجزى عليه الإنسان خير الجزاء. « إصلاح السفاد فى أى وجه من وجوه الحياة »

كما جاء فى القول المأثور « من رأى منكرا فليقومه بسلاحه ، وأن لم يقدر فبيده ، وإن لم يقدر فبلسانه وإن لم يقدر فبقلبه ، وهذا أضعف الإيمان » فهل تجمع المسلمون لإصلاح أحوالهم ؟

هل تجمع أصحاب الفكر والرأى ، ووقفوا أمام الحاكم الجبار أو العابث ؟

هل تقدم أصحاب الفكر والرأى لنصح الحاكم ، أو نصح الرعية ؟

الفصل الثانى

التكامل الكونى

بين الإنسان والكون ترابط عميق ، فالذات لا ظهور لها الا فى ظهور الكون ولا كمال للكون الا فى تكامله مع ذات الوجود .

والوجود الكونى ، حياة ، يحيى فيها البشر فى مجتمعات مختلفة المشارب ، طوبيعة لها مواصفات ثابتة الظهور ، ولها صفات متغيرة ومتحولة .

والنفس والكون ظاهرتان ، وإن بديا منفصلين ، إلا أنهما حقيقة واحدة لا انفصال لهما .

فإذا تأملنا فى الوجود ، من حيث الظاهر والباطن ، لوجدنا أن جوهر هذه الحقيقة هى الذات ، وظاهرها هو وجه الوجود ، وكلاهما وجه للاخر ، لاوصل فيهما ولافصل .

فلا الذات وحدها منفصلة فى قيامها ، ولا الكون وحده قائما بذاته فالذات قائمة ، والكون قائم بالذات ، ومن أجل الذات ، ولكى يعبر عن الذات .

ففى عمق الحقيقة ، ليست الذات حالة فى شىء ، ولا محبوسة فى شىء ، ولا مطوية فى الوجود . ولكن العلاقة بين الذات والوجود هى علاقة تلازمية ، أوهى لزومية الوجود ، فالكون مطوى فى الذات ؛ والذات ، والذات حاوية للوجود .

فلا وجود للانسان الا بهذه الصفة اللزومية لقيامه ،ولا وجود لشىء فى الكون الا بهذه اللزومية ..

فلا وجود لنواة الذرة الا فى مجالها من الطاقة ، تحيط بها دواما ، ولهما علاقة لزومية .

وكذلك عالم النبات ، لاوجود له الا إذا ارتبط بالتربة الصالحة ، والهواء والماء والضوء ، ولا وجود للنبات إلا بهذه الصفات اللازمة لنموه . وكذلك عالم الحيوان يعيش مرتبطا مع نوعيته ، وزمرته ، ومنه مايعيش مرتبطا بنوعيات مختلفه ، فى ظل ناموس واحده ، كلى الظهور كلى الوجود .

والإنسان كنوع متميز فى عالم الحيوان ، يتمو فى بيئات مختلفة ، ويتجاوب مع أشكال شتى من الطبيعة ، والحياة ، ويرتبط بالقدرة اللانهاية المحركة لوجود . .

ولكى يعيش الإنسان فى تمام صحته ، وسعادته ، وجب عليه أن يتكامل فى علاقاته مع نفسه ككل ، من حيث هو جسم مادى وجسم أثيرى وجسم نجمى ، وروح .

وأن يتوحد هذا الكل مع البيئة ، والمجتمع ، والطبيعة الكونية . فإذا تقوقع الإنسان بعيدا عن الطبيعة ، زايله المرض . ولذا تهتم الحكومات بتوجيه الشباب بالخروج إلى الطبيعة والاندية الرياضية لكسب النمو الصحى والحيوية ، وتنصح الشيوخ بالبهجة والخروج إلى حيث الهواء والماء والشمس ، والتأمل فى جمال الوجود وحسن آياته ، حتى تنتعش الروح وتمتص الحكمة الكونية ، ولذا تظهر دائما الحكمة والحكماء فى البقاع الجميلة ، بين قمم الجبال الشماء ، ذات الخضرة النضرة ، والينابيع الفضية ، والأزهار الباسمة ، والصحراء الهادئه ، وشواطىء البحار اللازوردية .

والوجود بأجزائه المختلفة ، يعتبر ككل واحد ، فى محتوى المطلق ، فالإنسانية نفس واحدة ، والطبيعة فى كل مظاهرها ، من شمس وهواء وماء وكواكب وحدة واحدة لاتتجزأ ، فالماء اتحــاد بين ذرات غازى الأوكسجين والايدروجين ، والكواكب كلها من تكوينات واحدة ، والشموس والنجوم الساطعة كلها من

تكوين واحد ، وإن اختلفت أحجامها ودرجات حرارتها ، وعالم النبات يكون تشكيل واحد ، وكذلك عالم الحيوان ، مهما اختلفت أشكاله وألوانه ، فالأساس فيه واحد ، وما تجد فى خلق الله من تفاوت ...

إذا فهناك وحدة وجود ، مشهودة لكل من تأمل وتعمق ، وهناك وحدة عقل وهناك وحدة روح ، والحياة كلها ، بكل ما ظهر فيها وما بطن منها وحدة واحدة ، وقد وسعت عظمة الله ورحمته وقدرته كل شىء ، وهو يتجلى فى كل شىء ، فما من شىء الا هو منبثق عن الله ، وما من شىء خارجا عن الله ، والله هو المحيط ، والموحد للوجود ، فالوجود والحياة كل واحد فى الله المطلق ، فى رحم الله ، بمعنى رحمة الله .

ومن هذا المفهوم الواسع ، نعرف أن هناك تناسق ، وانسجام ، وتآلف ، وتوافق ، وتناغم ، وألفة بين الكائنات فى مظاهرها المختلفة . فإن بدى لنا أن هناك فارق فى الظاهر بين الإنسان ومملكة الحيوان ، الا أن الأساس واحد فيهما ، وإن بدى لنا أن هناك فارق بين مملكة الحيوان ومملكة النبات ، فهذا فى المظهر ، أما الأساس فواحد وإن كنا لا ندركه لقصر عقولنا وضعف بحثنا العلمى .

ومن هذا المنطلق يرى العارف ، أن من قتل نفسا واحدة ؟ بغير حق ، فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن قتل حيوانا بغير سبب جوهرى فإنما قتل روح الحياة فيه ، ومن أهلك النبات بغير سبب جوهرى ، فإنما شوه روح الحياة ، فإذا كانت هناك وحدة انسجام ، ووحدة روحانية تشمل الوجود ، فإن تدمير الأزهار والأشجار ، هو تدمير وتشويه لجمال وجلال الوجود ، وقسوة الإنسان على الحيوان هى قسوة كائن على كائن تجمعهما روح الحياة ، وبهذه القسوة ، تخمد الإنسان بهجة الحياة ، وتخمد الرحمة فى روح الإنسان ، والواجب على الإنسان فى تطوره نحو الكمال ، أن يرعى حقوق الغير من الكائنات ، لكى تحيا جنبا إلى جنب فى روح الحياة المتكاملة ، والله لا يحب المفسدين .

ولننظر بعين الاعتبار إلى الدول المتقدمة التى ترعى عالم الحيوان وعالم النبات ،

ونرى كيف يلاعب الأطفال الحيوانات ، وكيف يحافظ الشعب على جمال وجلال الحدائق والأزهار ، وكيف يضعون الحبوب فى الشرفات وأمام النوافذ فى زمن الشتاء حيث يغطى الجليد البقاع ، حتى تجد الطيور كفايتها من الطعام ، وكنت أرى كيف يعامل الأطفال الحمام فى الميادين ، وكيف تقترب القنابر والعصافير ، من موائد ومقاعد الناس ، لكى تحظى بشىء من الطعـــام وتذكرت كيف يعامل أطفالنا الحيوانات بقسوة ، وكيف تفزع الطيور من الناس ، وكيف يضرب العامل أو الفلاح حيواناته التى تساعده على الحياة ، وكيف يحمل العربجى عربته بحمولة ينوء بها الحيوان ، ويظل يضربه ضربا مبرحا فى قسوة وشذوذ ، وكيف يستعمل حماره المجروح ، أو الأعرج ، دون أن يرعى الله ، ودون أن يتذكر ، أن الله سبحانه وتعالى كان قادرا على أن يخلقه فى هذه الصورة ، وأنه لا يملك من أمر نفسه شيئا ، وأنه مخلوق فى هذه الصورة الآدمية الكريمة لكى يمتحنه الله ، فإن أساء ، فسوف يجزى بجرمه ، والجزاء من جنس العمل ، والحياة كل واحدة لا يتجزأ

وإذا أراد الإنسان أن يرتقى ، ويسير فى طريق الكمال فعليه أن ينظر إلى الوجود ككل مقدس ، وأنه جزء من هذا الكل ، وأن فى رقيه ، يجب أن يرقى الكل معه ، فلا رقى للانسان وحده ، دون سائر الوجود ، فالتطور فى الحيـاة ، يجب أن يكون تطور فى كل أجزاء الحياة ...

والإنسانية هى إنسانية واحدة فى كل الأرض ، فليس هناك إنسان مصرى وإنسان عراقى ، وإنسان عجمى وأمريكى ، بل الجميع إنسان واحـــد إنسان الله فى أرض الله ، وإذا لم تتكاتف الإنسانية كلها لحل مشاكل الشعوب ونهضتها ، فلن تحقق التقدم المرموق ، ولن يرعاها الله سبحانه وتعـــالى ، لأن يد الله مع الجماعة ، والبشرية جمعاء هى نفس واحدة ، ولن يزدهر العالم الا بالعمل الجماعى لكل الشعوب ، ولن يزدهر العمل الجماعى الا إذا تكاتف الناس ، واحب بعضهم البعض ، وتنازل كل فرد ، عما يزيد عن حاجته ، لصالح المجموع ، ولصالح المحتاج

والضعيف، وأن تسهر الدول العظمى لصالح الدول المحتاجة، وأن تبذل الدول الغنية من فائض أموالها لتعليم الشعوب المتأخرة ، وتأخذ بيدها ، حتى تتكسر الحواجز الفاصلة بين الشعوب .

ولكي تصل البشرية إلى هذا المستوى الفكري ، يجب أن يبدأ كل إنسان بنفسه ، وكما قال رسول الإسلام ﷺ ، « إبدأ بنفسك » « ثم بمن تعول » .

فكيف يبدأ الإنسان بنفسه ؟؟ ثم بمن يعول !!

يبدأ بمحبة أسرته ، زوجته التي هي قطعة من نفسه ، ثم أولاده الذين انبثقوا عن اتحاده مع زوجته ، وأصبحوا زرعا ضعيفا ، يحتاج إلى بذل الجهد والرعاية ، فإن أصلح رب البيت نفسه أولا ، وجعل من قلبه سكنا لزوجته وأولاده ، فقد سكن الجنة ، جنة المأوى ، التي يأوي إليها هو وأسرته ، جنة قطوفها دانية ، على سرر منصوبة وغارق مرفوعة ، فإذا ازدهرت هذه الجنة ، وتفتحت عقول أفرادها أينعت بالنور ، نور العلم والعرفان ، وكان مزاجها سلسبيلا ، من فيض الحب الذى ترعرع فى القلوب ، فإذا كان هذا هو نبراس كل الأسر ، فكيف يكون هذا المجتمع المتحاب والمتشارك فى السراء والضراء ؟

وكيف يكون العالم ، مزدهرا فى ظل هذا الحب والوفاق ؟

أليس هذا ماأراده الخالق ، أليست هذه تعاليم الأنبياء والاتقياء ، والعارفين بالحقيقة ؟

هذا هو الدرس الأول الذى يجب أن يبدأ به كل إنسان ، درس فى الحب ، فى البذل ، فى العطاء ، درس فى الألفه ، كيف يألف ويؤلف ، كيف يحب ويحب ، كيف يكون صاحباً وزوجاً ، كيف يكون أبا صالحاً ، ليكون له أبناء بررة ، كيف يكون مثالا يحتذى به ، كيف يبذل النفس والنفيس فى سبيل أسرته ، وفى سبيل وطنه ، ليكون شهيدا فى سبيل الله ، شاهدا ومشهودا ...!

هذا هو الإنسان الحر الأبى ، الذى يبذل نفسه لصلاح البشرية ، وبذلك يصبح كلمة جامعة ، جامعة لصفات الكمال الإنسانية فى الله الأكبر .

إن الحيـــاة تتطلب التقارب بين الأفراد ، وتتطلب التقارب بين الشعوب ، واقتصاد العالم يتطلب التبادل التجارى والصناعى والزراعى ، وبدون هذا التبادل تقف عجلة الاقتصاد ، وتجمد الحياة وتختنق .

وبدون التقارب العلمى والمهنى ، سينقلب الميزان فى العالم .

الفصل الثالث

الانسان كوجود ملازم للكمال الكونى

أن للكون صفات قائمة لاتتغير فى مظهرها العام ، فى ظل قوانين إلاهية . ونحن لانعرف متى بدأ ظهوره على اليقين ، ولاتدرى متى ينتهى أفوله ، وكل ما يدعيه العلماء من نظريات ماهى الا افتراضات .

كذلك فيما يختص بالنفس ، فنحن لانعرف حقيقة النفس ، ومتى ظهرت على مسرح الحياة ، ولاتدرى متى تنتهى .

ولكى نصل إلى ايجاد موازنة بين الكون ، وبين النفس ، يجب أن نصل إلى معرفة الله المطلق ، اللانهائى جل جلاله .

ولأنه سبحانه وتعالى هو باعث هذا الوجود ، فى شتى صوره ، ومامن شىء صوره ، وما من شىء الا وقد انبثق عنه ، وما من شىء الا هو مظهر يعبر عن عظمته ، فلا بد أن نصل إلى مستوى من المعرفة يؤهلنا للبحث فى أنفسنا وفى قيام الله .

فإذا نظرنا إلى الإنسان وحللناه ، لوجدناه يتكون من عدة مظاهر مختلفة .

١ — الجسم المادى — يتكون من مجموعة خلايا مختلفة الصفات ، خلايا لحمية وعظمية وعصبية . والخلايا اللحمية أصناف فخلايا العضل غير خلايا الكبد والكبد غير الطحال والطحال غير البنكرياس ، وغير خلايا القلب ، وكل صنف فيها ميسر لما خلق له ، كذلك خلايا الأعصاب والمقل الخ .

٢ — الجسم الأثيرى — (Etherie Doube) ويعرف بالقرين ، وهو جسم

غير منظور : يصاحب الجنين منذ الأسبوع الثالث أو الرابع من الحمل ، ويظل فى رفقة الإنسان طوال الحياة حتى الموت ، ثم ينتهى فى الأثير .

وهذا القرين يحصل على طاقته من الأثير والشمس والهواء ، ويمكن التحكم فيه بتنظيم الأنفاس .

٣ — الجسم النجمى (Astral body)

هو جسم شفاف قوى ، يتخذ شكل الإنسان المادى وصفاته ، وهو قائم بذاته ، ويمكنه مغادرة الجسم المادى إلى مسافات بعيدة ثم يعود إليه دون انفصال ، وذلك بتدريبات روحية خاصة يمارسها الصوفى واليوجى ، فيسرى بجسمه النجمى إلى أماكن بعيدة وهى حالات (الطرح الروحى) أو حالات الاسراء الروحى (أو النجمى وهى) معروفة فى الهند ، وكتب عنها الهنود مرارا ، ووصفها البعض بقوله « عندما زارنى معلمى فى بيتى وقت أن كنت عاكفا فى صلاتى ، سمعت صوت أجراس خفيفة ، ويقول البعض سمعت صوت صلصلة ، ثم انقشعت غمامة حولى وظهر معلمى مبتسما ، وابلغنى برسالة هامة ، ثم رجع من حيث أتى) .

والجسم النجمى يلازم الروح منذ نزولها من أوقيانوس الروحية إلى العالم الأرضى ، ويمر بمنطقة البروج (Zodiak) ويتخذ صفات البرج الذى يمر منه ، وبهذا يعرف الفلكيون صفات هذا الإنسان ، من خلال اسمه وتاريخ ميلاده ، التى يحدد برجه .

وهذه البروج هى « برج الحمل ، والثور ، والجوزاء ، وبرج السرطان والأسد ، والعذراء ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدى ، والدلو ، وبرج الحوت .

٤ — النفس — (The Self)

تكون النفس من الحس ، والشعور ، والفكر ، والإرادة . ووسائل النفس للتعرف على الحياة ، هي الحواس الخمس — النظر ، والسمع ، واللمس ، والذوق والشم — وبغير هذه الحواس فلا ظهور للنفس في عالم المادة .

فالانسان الذي يولد وقد فقد هذة الحواس الخمس فلاوجود للنفس عنده ، ولا طعم للحياة عنده . فهو حي ميت ، مثله مثل فاقد الوعي تحت تأثير البنج . إذاً فالنفس أمر معنوي قائم بالحواس فقط .

ولكن بالرغم من ذلك فالنفس مجال قوي جدا في تكوين الإنسان ، وفي سير الحياة .

والمخ وسيلة الفكر في الظهور ، والفكر يصدر عن طريق العقل . والعقل مراتب ودرجات ، أدناها العقل الغريزي ، ثم العقل الواعي ، ثم العقل المتسامي ، فالعقل الاستنباطي ذو النهى .

وتتكون النفس من سبع رقائق أو مراتب :

١ — النفس الامارة بالسوء — وهي أدنى المراتب وأسفلها ، ويسيطر عليها جزء من العقل الغريزي في أدنى مستوياته الحيوانية . فهي نفس جاهلة ، أو تعيش في الجاهلية ، لها متطلبات دنيوية ، وصفات حيوانية ، تدفع بالانسان إلى أسفل سافلين ، إلى ارتكاب المعاصي والموبقات ، لايهمها الا اشباع الغرايز الدنيا كالجنس ، والجشع والطمع والنهم ، وفعل الموبقات ، والتعدي الغاشم على الغير ، والحسد ، والغيرة العمياء والكراهية ، والأنانية ، وسرعة الغضب ، والإهمال ، وحب التملك في أدنى صورة ، فهي أقرب إلى الحيوانية بل أضل سبيلا ، ويسميها الصوف النفس الهالكة .

٢ — النفس اللوامة — التي بدأت تصحوا وتميز بين الدنايا وما فوقها ،

وصاحب هذه النفس يبدأ فى محاسبة نفسه ، ومحاسبة الغير ، فطبيعتها لوامة ، وهى تحاول جاهدة أن تتصدى للنفس الأمارة وتقف فى وجهها وتحاربها ، وهذا هو الجهاد الأكبر الذى عبر عنه الرسول (صلعم) عند عودته من الحرب « العودة إلى الجهاد الأكبر » . « جهادالنفس » .

والحقيقة أن فى هذا الجهاد أكبر عناء للانسان ، وهى حربه العظمى لتطهير نفسه الامارة بالسوء ، فإذا طهر نفسه من كل الشوائب والدنايا ، وانتصر ، فقد فاز ، وأصبح بيتا صالحا لسكنى الروح ، ذوقلب أريب ، لبيب .

٣ — النفس الملهمة —

إذا كانت النفس اللوامة تتعامل مع العقل الواعى ، فإن النفس الملهمة تتعامل مع العقل المتسامى .

ويقول الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم « إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريماً .

فالنفس الملهمة هى أول أبواب المداخل الكريمة لأنها دائمة الرغبة فى الخيرات ، وفى فعل الخيرات ، وهى لاتقرب الفواحش ، قولا أو عملا ، قليلة الأخطاء ، كثيرة الخيرات ، خاشعة متصدعة من خشية الله ، لها نظرة فاحصة وأسلوب متعقل ، كثيرة الذكر لله ، وملهمة فى معظم تصرفاتها ، أعانها الله على شيطانها فلا يعمل الا خيرا .

وهى تتصرف دائما من العمق ، ومن القلب ، عملا بقول رسول الإسلام استفتى قلبك ولو أفتوك ، ولو أفتوك » . .

فهى تعمل دائما باسم الله من خلال رؤياها الصادقة . .

٤ — النفس الراضية .

وهى نفس — رقيقة تعلوا فوق النفس الملهمة ، وتتميز بصفات الرضا الدائم ،

فى السراء والضراء ، فهى تعرف أن كلاهما من فضل الله . .

٥ — النفس المرضية —

هى نفس راضية فى الحقيقة ، ولكنها صادقة الرؤية ، فاعلة ، عاملة ، تعمل لمصلحة الجميع ، ولرقى المجتمع ، وهى فى جانب الحق سيف مسلول .

٦ — النفس المطمئنة —

هى النفس التى بلغت مراحل كبيرة ، فى رقيها ومعراجها ، لاتهزها الأعاصير . ولاتخيفها سيوف الحاكم ، ولها رؤية صادقة فى الحياة ، وهى فى حالة من الرضا ، لاتأسوا على مافاتها ، ولاتفرح بما أتاها ، صادقة ، صديقة ، تحب لأخيها ماتحبه لنفسها ، آمنة مطمئنة ، كصفات سيدنا عمر بن الخطاب .

٧ — النفس الكاملة —

هى النفس التى اتصفت بصفات الأسماء الحسنى ، فأصبحت فى الصراط المستقيم فى استقامة مع الله ، أشرقت أنوارها بنور الله ، وتقدست بمكارم الأخلاق ، ماتت عن نفسها ، فوهبها الله الحياة ، وأصبحت نورا تمشى به فى الناس ، كلها بذل وعطاء ولو كانت بها خصاصة ، فهى رحمة مهداة للناس ، ربانية الصفات . . فى مثالية الرسل

الروح — هى القبس النورانى من نور الله سبحانه وتعالى هى الجذوة الإلاهية ، التى نفخها الله جل جلاله فى خلقه هى نور ظلام الأنفس . .

ومهما كانت حصافة الإنسان ، ومهما كان اجتهاده ، ومهما كان منطقيا ، فهو عاجز عن إيجاد التآلف والتوافق ، والانسجام ، والتناغم بين كل هذه الرقائق والمظاهر ، ولو أنفقت ما فى الأرض جميعا ، ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله آلف ..؟

فقدرة العقل ، عاجزة وحدها عن إدراك خفايا الإنسان ، عاجزة عن

إيجاد التآلف بين الظلام والنور ، بين الغرائز الجسدية والتعقل ، بين السماء والفطنة ... أما الروح فهى الوحيدة القادرة على إيجاد هذا التالف والتناغم ، عندما تكشف ما ران على القلب من صدأ النفس ، وتنير القلب ، تنير للضغة التى فى القلب ، فتضىء المشكاة بنور العلم من الله فيصبح إنساناً ذو بصيرة ، فيؤتى الحكمة ، ويصبح له نوراً يمشى به فى الناس ، فتتم المصالحة . وتسقط النفس ، ساجدة للذات ، فى مستوى التحقيق ، ومعرفة الذات اللانهائية الوجود ، الأبدية التواجد الأزلية . .

إذاً فالقصد النهائى من هذه الحياة الدنيا ، هو معرفة الله ، ومعرفة الله سبحانه وتعالى تحتاج من الإنسان جهداً فكرياً ، وجهداً قلبياً ، وعملاً ، ولكي نعرف الله ، وهو المختفي عن بصرنا ، يجب أن نستخدم عقلنا أولاً حتى نعرف آياته فى الآفاق ، ثم نستخدم قلبنا لكى نعرف معية الله سبحانه وتعالى فى أنفسنا ، وهو القائل عز وجل « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » « واتقوا الله ويعلمكم الله ، والله بكل شىء عليم » ،

« لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » .

ولكى نعرف الله يجب أن تكف عقولنا عن اللغو ، وعن الجدال ، وأن تهدأ تماماً حتى تتوفر لقلوبنا ساعة نستشعر فيها نور الله ورحمته .

ولكى نعرف الله يجب أن نعيش فى تقوى الله وتقوى الله فى إصلاح النفس ، وكما سبق أن ذكرنا أن النفس لها سبعة طبائع ، فكلما تغلبنا على واحدة وارتقمنا إلى الثانية ، صعدنا طبقة من طبقات المعرفة ، ولكى نستقيم فى كل طبقة يجب أن نطبق مافيها من مكارم الأخلاق ، ونعمل الخير من أجل الخير ، ونعمل جاهدين بما أمر الله من محاسن الأخلاق ، فالعمل هو خير وسيلة لكسب الله ، وهو القائل « وقل أعملوا فسيرى الله عملكم » ...

فإذا حققنا جماع النفس ، وبلغنا ذروة النفوس الكاملة ، لم يبق أمامنا إلا

الإتحاد مع الروح، والإتحاد مع الروح هو ذروة الوصول ، فيصبح الانسان الكامل بيتا لله ، بيتا معمورا بروح الله ، تسجد له الملائكة ، وهو القائل سبحانه وتعالى « فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين . »

فما أجمل الحياة فى مثل هذا المستوى الرفيع ، الربانى ، فى الحضرة الإلاهية .

ولكى نحقق هذا الكمال ، يجب أن نعيش حياتنا الأرضية ، لأن الجسم المادى يكون حجابا ظلمانيا ، والمطلوب منا أن نغوص فى أعماقنا ، وأن يكون لنا نظرة استبصار داخلية ، لأننا إذا بصرنا خارج أنفسنا ، فلن نرى إلا عظمة الله فى آياته الظاهرة فى الكون فنقدر عظمته ونتعجب ،ولكننا لن نرى ملكوته فى أنفسنا الا إذا انقلب البصر خاسئا وهو حسير ، ، فنعرف أننا فى الهاوية ، وأننا فى أسفل سافلين ، وأننا فى جحيم المادة ، فى جحيم الحقد والضغينة ، والغضب ، والتقاتل وأننا نعيش فى نار الرغبات .

ومن خلال مراقبة النفس وغوايتها ،ومراقبة العقل فى تصرفاته وقلقه ، وحدته ، وغضبه ، نعرف أن هناك رقيب فى أنفسنا يرى كل هذه التصرفات ، يرى الجسم وأحاسيسه ، ويرى النفس وتشوقاتها ، ويرى العقل فى حيرته أحيانا وفى جبروته أحيانا أخرى . فنعمل على خدمة هذا الجسد ونظافته ، ونعمل على تصفية النفس من شوائبها ، ونوقف العقل فترة سكون فى كل يوم . وبالتدريب والاستمرار ، سوف نرى ملكوت الله فى أنفسنا ، سنرى عظمته ، سنرى أنواره ، سنرى قيامه فينا ، سنرى سر الحياة ، سندخل فى حصن لا اله الا الله ، وسوف تحدث المصالحه بين الروح ، وبين العقل والنفس والمادة. وسوف نرى نهر الحياة ، فى أنفسنا ، ونحقق حقيقة ذواتنا ، ونحقق القول « تحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم بأسره ، » أنطوى كل شيء فيك .

إذاً لاتحقيق للكمال إلا فى الاتحاد بين عناصر الوجود ، بين الإنسان فى

ظلماته ، وبين النور الإلاهي ، فيصبح الإنسان مصباحا يضئ فيه نور الشجرة المباركة ، والله يهدي لنوره من يشاء . .

وفى الحقيقة أن طبيعة الإنسان كمادة ، والمطلق اللانهائى لايتساويان ، ولايتعادلان ، فالنور الإلاهي جوهر فرد ، والإنسان مركب من طبائع وعناصر مختلفة ، هي التراب والماء والنار والهواء والأثير وفى نظرة تأمل نعرف أن كل عناصر الكون إنبعثت من النور الأول واللانهائى ، فإذا كانت روح الله سارية فى روح الإنسان ، وفى قوله سبحانه وتعالى فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » فلنفتح كل منا قلبه لنفحة من روح الله . . .

وفى قوله « ماظهرت فى شيء مثل ظهورى فى الإنسان » فإذا عرف الإنسان هذه الحقيقة ، وأنه يحمل أمانة عظيمة وسعى سعيه الأمين ، ليبرز هذا النور ، ويضيء شمعته ، فقد عرف نفسه ، وعرف حقيقة النور السارى فيه من الشجرة المباركة ، وعلى الإنسان أن يسعى بصدق ليفتح قلبه لروح الله .

ولكن يحذركم الله نفسه ، فإذا أردت المعرفة فاوغل فيها برفق ، حتى لاتغرق فى أوحالها . . .

فالله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء ، خفى لايدرك قائم بذاته ومع هذا فهو يحتوى كل الأشياء ، وهو الصفاء ، وانقى النقاء فى كل الأشياء ، وهو غيب الأشياء وجوهرها . . . .

وإذا تأملنا فى الوجود الظاهر أمامنا ، لوجدناه كل يوم فى شأن جديد ، تظهر نجوم وتختفى ، منذ بلايين السنين ، ويتطور فيه عالم النبات ، وعالم الحيوان ، ويعرفنا التاريخ أن الدول تقوم وتنهض وترتفع ثم تضعف وتتحول وتتبدل أحوالها ، ويرتفع ملوك طغاة ، ثم تتهاوى عروشهم . . . ويختفى الدينا سور نهائيا من الوجود . . . .

فالعالم فى تغير مستمر ، وارتقاء مستمر ، وتظهر نظريات جديدة تمحو

القديم ومعرفة جديدة ، تزلزل ما سبق من معارف كان يؤكدها الناس ، وظهور الكون ، ومافيه من أوجه مختلفة ، يعبر عن الحياة ، بل هو الحياة نفسها .

فإذا كان « الحى » اسم من اسماء الله الحسنى ، فماذا تكون الحياة ؟ ؟

إن الخفاء الذى فرضته الأديان القديمة على المعرفة المطلقة عن اللانهائى ، كان واجبا حيويا فى زمان الجاهلية ؟ وهو واجب فى الوقت الحاضر لإخفاء الحقائق عن قابلى الفهم ، والشعوب التى مازالت تعيش فى جاهليتها .

وقد عانت بعض الشعوب التقدمية من قبضة رجال الدين الحديدية ، فى زمن كان علاؤه التشاؤم والخوف من كل جديد ، أو تغير ، وكانت هناك عصور حاربت فيها الحكومات كل فيلسوف أومتنور ، أوعقلانى .

والآن ، وقد تحررت الحكومات من قبضة الدين على التقدم العلمى ، فقد بدأ العلماء فى الكشف عن حقيقة الحياة وحقيقة الكون ، وأصل الخلية الحية ، وإقامة جنين فى أنبوبة علمية ، وصعد العلماء إلى طبقات الجو العليا ، وإلى القمر .

وإذا تأملنا فى القرآن الكريم ككتاب دين وعلم ، لوجدناه ملىء بالعلوم العصرية عن الإنسان منذ نشأته كنطفة وعلقة . . .

وعن الظواهر الطبيعية فى الكون ، والشمس والقمر ، والأرض وتكويرها ، وتحرك المجموعة الشمسية ، وسيرها فى الكون « وكل فى فلك يسبحون » ، والليل والنهار ، والنبات واختلاف أحواله ، وأحوال الأرض المتجاورة وأصناف إنباتها واختلافه . . . .

وحارب الجهل والجاهلية ، وحث الإنسان على التأمل والمعرفة والتفكر ، وعرف الذرة . فى تناهى صغرها . . .

وإذا عرفنا من القرآن العظيم صفات الله ، وكان من اسمائه الباطن والظاهر ، وإذا كان فى شدة ظهوره هو وجه الله « فأينما وليت وجهك فثم وجه الله » وإذا

كان الباطن هو الوجه الخفى للظاهر ، فقد اختفى الله فى شدة ظهوره » . .

وتخلص من هذا الحديث ، لتقول أن الله سبحانه وتعالى هو سر الاسرار ، وجوهر الجواهر . الحق وراء كل شىء وأصل لسكل شىء ، فى ظهوره ، فلينظر الإنسان فى أعماقه ليرى ، هل هو جسم بلا روح الله ، أم هل هو روح الله فى حجابه المادى ؟ ؟

فإذا كان الامر كذلك ، فمن ذا الذى يكشف الأمور العلمانية والخفايا؟ ومن ذا الذى يرى آيات الله ؟ ؟

هل هى عين الإنسان ! !

أم هل هى عين الرحمن ! !

وما من ورقة تسقط من شجره ، الا ويعلمها الله وما من وجود يخلو من وجوده ، فهل رأيناه هل عرفناه خارج انفسنا ؟ ؟

هل حققناه فى ذواتنا ، هل كناه ؟ ؟

وكيف نصل إلى السكمال ، ونحن بعيدين عن الله ! !

فإذا أراد أحدنا صادق المعرفة ، فليتأمل فى كلية الوجود ، وليتبصر فى عالم البحار ، وعالم الحيوان ، وعالم النبات ، وعالم نفسه ليرى من الوجود الحقيقى ، وما هو الموجود الصورى ! ! !

« إن الله لاينظر إلى صوركم ، ولـكن ينظر إلى قلوبـكم » . ! !

الفصل الرابع

الكمال أهم أسس الوجود

كيف نحقق الكمال في أنفسنا ؟

كيف ننظم حياتنا فى هذه الأرض ، وكيف نحصل على التجربة الصحيحة ، التى تثمر نتائجها وتحقق التلاؤم ، بين سائر الأجناس الأرضية .

هناك أسس أربعة جوهرية ، لخلق الإنسان الكامل ، هى : -

١ ـــ الطموح ـ أو الرغبة فى التطلع إلى الأحسن .

٢ ـــ العمل الجاد المثمر الدائم .

٣ ـــ التأمل والتفكير والتفتح والمعرفة ...

٤ ـــ الحب المتسامى عن الأغيار .

إن الإنسان كروح وجسد ، يلزمه أن يطور نفسه وأن يفهم نفسه ، ولكى يفهم الإنسان نفسه ، يجب أن يبدأ معرفته من أرض الحقيقة ، ومن حيث نبت . فالإنسان كمادة هو من نبات الأرض ، ومن حيث أنه روح ، يجب أن يعرف مصدر هذه الروح ، أن يعرف الله ...

ولكى يعرف الإنسان الله ، يجب أن يفهم قوانين الوجود الإلاهى . ويفهم إرادة الله الفاعلة فيه ، والإشتراك بالله ، بمعنى أن يسلم الإنسان أمره لله ، وأن يضحى بنفسه فى سبيل عزة الله ، وفى سبيل وضوح رؤية الله فى هذه الأرض .

وليس معنى وضوح الرؤية ، أن نرى الله جهرا ، أو نرى ذاته ، ولكن أن نرى قوانينه ونراقب سير الحياة .

ومن مراقبة سير الحياة الديناميكى ، نرى ، أن أرادة الخالق هى إيجاد التوازن فى الحياه ، فديناميكية السكون تعرفنا أن هناك توازن فى كل شىء . فكل مجموعة شمسية ، قائمة على التوازن فى نظامها الدقيق المستمر فى كل لحظة من لحظات الحيـــاة .

والليل والنهار فى حالة إتزان ، فإذا زاد النهار نقص الليل والعكس صحيح .

فإذا كانت إرادة الخالق إيجاد التوازن ، والإنسجام ، والترابط ، فى كل الظواهر الطبيعية التى نراها ، فكذلك إرادته فى مخلوقاته ، هى إيجاد التوازن بين أصناف البشر ، حيث الانسجام ، والترابط ، والتعاون ، والخير والشر والحرب والسلام فى سبيل الصالح العام .

إن فى طبيعة الروح الإنسانية ، رغبة أكيدة للتطور إلى الأحسن ، فمنذ بدأت الحياة الآدمية ، والإنسان فى تطور مستمر ، من العصر الحجرى ، إلى العصر البرونزى ... إلخ وهكذا توالت العصور حتى وصل الإنسان إلى القمر ، وسيستمر تطور الإنسان إلى مالانهاية له فهـذه إرادة الله : والإنسان روح الله وإرادته ، وشأن الروح فى تطورها هو البحث الدائم إلى مالانهاية ، وفى طبيعية الروح الدوام ، وفى دوامها عقدت العزم والنيه ، على بلوغ الكمال ، والكمال فى نظر الروح هو الكمال الإلاهى الذى إنبثقت منه ، فهى ترى فى نفسها صفات الكمال الحسنى ، وعقدت العزم على بلوغ الكمال الذى جاءت منه ، فهى خليفة الكامل فى أرضه ، ولابد أن تعمل جاهدة فى كل عصر ، وفى كل لحظة ، لتطور ذاتها إلى الكمال والكمال ليس له حدود .

إذا فالتطور ليس له حدود ، فكلما بلغ الإنسان شاطىء الكمال ، توغل فى أرض الكمال ، وكلما بلغ نهاية أرض للكمال غاص فى البحر بحثا عن الكمال ،

وكلما عرف ، زادت رغبته ، لأنه عرف أنه لم يبلغ حد الكمال ...

فالإنسان منذ مولده حتى مماته ، فى بحث دائم ، وإنشغال دائم لكى يحصل على الأحسن ، سواء فى ماديات الحياة ، أو فى روحانياته وبحثه عن الأعلا .

والبحث عن الأعلا يحتاج إلى البرهان والدليل ، ويظل الإنسان فى عماء ، حيث لادليل مادى يرى فيه الله ، ولكنه يرى فى عظمة الكون عظمة موجده ، ولكنه يقف بعد ذلك مشدوها لايدرى بعد ذلك شيئاً ...

وإذا عاد إلى أعماقه وجد فيها من صفات الربوبية صفات كثيرة ، فهو رب أسرته ، قائم على أطعامها وهديها ، وهو رحيم بأولاده ، كريم مع جيرانه ، فاعل للخيرات ، قاهر لأعدائه ، إلى غير ذلك من الصفات التى تملكها الروح .

ومنذ عرفنا تاريخ البشرية ، ظهرت شخصيات كثيرة ، رأت فى نفسها النور الإلاهى ، وعرفت من قريب أو بعيد ، عن الوجود الإلاهى فى الإنسان ، ومع الإنسان « فهو معكم أينما كنتم » ، « ربكم محيط » ، « وفى أنفسكم أفلاتبصرون » إلى غير ذلك من التلميح والتلويح ...

فهل راقبنا أنفسنا وراقبنا الحياة حولنا لكى نصل إلى معرفة سليمة ؟؟

إذا نظرنا حولنا ، وجدنا الأطماع والرغبات فى الحصول على الجاه ، والمال والسلطة ، والعظمة ، والتنعم بمباهج الحياة ، وأطايبها ، والتفاخر ...

فهل هذا هو المقصود فى قولنا (١) الطموح أو الرغبة فى التطلع إلى الأحسن !! .

كلا .. إن هذه الرغبات الملحة فى الحصول على الثروات بغير حدود ، والتحكم فى السلطة ، والرغبة فى العيش فى أبهة والمعالى الخ ... إنما هى أطماع مادية تطلبها النفس الجشعة ، ورغبات جسدية ذات طابع مؤقت ومحدود ...

ولكن المقصود بالطموح والتطلع إلى الأحسن ، هو البحث عن الأصل

الإنسانى الكامن فى ظلام النفس ، البحث عن الروح ، البحث عن النور الكامن فينا ، البحث عن الشعلة المقدسة فى قيامنا ، والبحث عن السلام النفسى ، البحث عن جوهرنا .

أما البحث عن الأحسن فى ماديات الحياة فهو بحث مؤقت ، أو بحث دنيوى محض ، لا روح فيه ولا هناء ، ولا سلام مهما بلغنا من الرقى .

ولكن إذا تزامل البحث فى الوجهين ، فى الجوهر ، وفى الوعاء ، وأحدثنا الترنيم الصحيح ، والتوافق بين الصفات الروحانية (الربانية) وبين الرغبات الدنيوية ، كان سعينا فى الحياة ، سعيا موفقا مشكورا .. وهذا هو العمل الحقيقى .

فإيقاظ الروح ، هو إيقاظ الأنا العليا ، أو الإنسانية فى معناها الأسمى ، وليست الإنسانية فى معناها الأدنى .

وفى إيقاظ الروح ، إيقاظ للهمم ، فى اسمى معانيها وأقوى مبانيها ، وهو تطابق الظاهر والباطن ، وتوافق الأعلا والأدنى فى الإنسان ، وترسيخ قيام الدائم فينا ، فى دنيا التطور والتحول .

والتطلع إلى الأحسن ، هو إذكاء الشعلة ، لكى يظل المصباح منيرا ، نور على نور يضىء طريقنا ؛ نور نمشى به فى الحياة لنرى حياة الإثرة والتركازية ، والأنانية ، والإشتهاء ، والرغبات ، والاطماع التى لاحدود لها فى النفس الأمارة بالسوء ، التى تلتهم قوانا ، وتدفعنا إلى المعصية وإلى الحرب والدمار ، والسرقة والقتل ، والإختلاس . وغيرها من الكبائر التى تدفع بنا إلى سوء المصير والهلاك ، وتلتهم لحوم البشر ، من الضعفاء والمحتاجين والمعجزة المقعدين ، وتفنى الشعوب ، وتودى بالبشرية إلى سوء المصير وإلى الجحيم الدنيوى ...

وإذكاء النفس ، وتطلعها إلى الأعلا ، هو تأكيد الصفات الحسنى فى الإنسان ،

حتى تمحو الباطل وتزهقه ، وتؤكد نورانيته ، وآدابه العليا ، وكما قال الرسول ﷺ « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » .

فإذا بلغ الإنسان هذا الحد من الفهم ، والأدب ، والسمو ، والنماء ، والشفافية والإنسانية فى شكلها الرائع ، فما أبهج الدنيا فى ظل هذا النور ، وماأروع الحياة ..

أن يعمل الجميع فى سبيل خلق مجتمع مهذب ، مهذب فى تصرفاته مع الجميع ، مهذب فى معاملاته ، صادق فى قوله ، صادق فى تنفيذ وعوده ، صادق فى أداء واجباته ، محسن فى عمله ، متطلع إلى التطوير والتنظيم والإجادة ، كل يوم هو فى شأن جديد ، فى علم جديد . . .

وأن يكون هدف الإنسان من العمل هو الخدمة فى سبيل الله ، ومن أجل الله وأن يعتبر العمل عبادة ، وإتقان العمل هو تكريس النفس لخدمة الله ، وكلما أرتقى الإنسان روحيا ، كلما كرس نفسه لخدمة الغير من الإنسان ، والعطف على الحيوان ، والتطلع إلى حياة أفضل وأكثر أمناً

وكلما زادت معرفة الإنسان لروحه ، كلما زادت محبته لله ، وزاد ارتباطه به ، وكلما وثقت علاقة الإنسان بالله ، كلما اشتغل قلبه به ، وغمره الحب الكلى ، حتى ينهمل كل كيانه بالنور ، وعندئذ يفقد الإنسان أنانيته وعشقه لنفسه ، ويتحول هذا العشق للوجود ككل ، ويعرف أنه والكل نفس واحدة . كل جزء فيهما يكمل الآخر ، وكل جزء يرتبط بسائر الاجزاء ، وإذا فسد جزء فسد مايتجاوره ، وكلما قل الفساد زاد الصلاح ، وكلما زاد الصلاح عم الوجود النجاح والفلاح ، وزاد الدخل ، وارتقت البشرية ، وعمت الحرية وعاش المجتمع فى سلام ، فى ظل العمل الجاد المثمر ، فى ملك الله ومن أجل الله ، وتنفيذاً لإرادته .

والعمل الجاد المثمر ، هو الذى ينبع من الفكر المطلق الحر ، أما العمل النابع من السخرة ، أو من الضغط الإرهابى فهو عمل مدمر للنفس .

وحتى إذا كان الموظف أو العامل ، وهو جالس متكاسل ، في عمل لايحبه أو يرضاه ، ترى عقله شتيت ، وبصره زائغ ، وفكره يتقلب بين أحلام اليقظه ، أو موجات من الأفكار المدمرة ، والكآبه البادية في سيماه .

وإذا ذهب متخادلا إلى النوم ، وطاوعه عقله الواعى وذهب ليغيب ، فإن عقله الباطن يبدأ في خلق الاحلام المأكره ، والمشروعات الخبيثه التى يختزنها في أعماقه ، نتيجه لعدم رضاه عن واقعه ، أو حاله ، أو عن مجتمعه ، أو نظام الحكم الذى يعتقد أنه سبب شقائه وحرمانه .

وإذا عدنا لبحث أحوال بعض الزهاد ، الذين فروا من عالم الاعمال ، إلى عالم الزهد ، هاربين من واقعيه الحياة إلى كهوف الجبال ، أو المعابد ، بفرض النسك أو التعبد ، فإنهم سوف يحملون معهم ، أفكارهم وأحلامهم ودنياهم فوق رؤوسهم ، ولن تكون هناك عقولهم صافية تماما ومتفرغة للتأمل والتفكير ، لانهم فروا من الواقع الجاد ، بسبب ضعفهم ، وليس بسبب رغبة أكيـــدة للمعرفة .

وسوف يلاقى بعضهم المتاعب النفسيه ، نتيجة لهذا الكبت الذى فرضتوه على أنفسهم .

وقد يعيش بعضهم الآخر في دنيا من الاحلام المعزولة ، من الخيال الفكرى عن جنة خلقوها حولهم ، وعاشوا فيها راضين ، بل يصفوها إلى الناس على أنها النعيم المقيم في دنيا زائله . . .

ولكن ، الحق أقول ، أن خضم الحياة ، هو المدرسة ، وأن معارك الحياة التى يخوضها الإنسان ، هى خير معلم ، وهى خير مدرس ، لمن يرغب في المعرفة ، بشرط أن يكون الإنسان في حالة صحو وتركيز ، حتى يتمكن من المراقبة الدقيقه لمجريات الامور حوله ، ودوافع نفسه ، ومايصدر عنها ، من النفس الامارة بالسوء

أو مايصدر عنها من النفس المطمئنة ، أو النفس العليا ذات الشفافية أو الرؤيـــة الصادقة المستنيرة . .

وهذا ماكان يعبر عنه رسول عليه الصلاة والسلام بقوله « العودة إلى الجهاد الأكبر » جهاد النفس ، جهاد الحياة ، والعمل الجاد ، لبلوغ ذروة المعرفة .

ورفض الإسلام الرهبنة ، حيث شار الكتاب الكريم (القرآن) بقوله « رهبنة فى الدين » .

« إن الدين لواقع » . بمعنى أنه لاهروب من الواقع فى الحياة ، بل مواجهة الحياة ، ومقارعتها ، والتغلب عليها ، إلى مافيه خير الإنسان ، بل خير الإنسان كلها كما قيل « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحبه لنفسه » وهذا هو صلب العمل الجاد المثمر .

ولكى ينجح العمل الجاد يجب أن يشتمل على العناصر الآتية : (١) أن يضفى على القائمين به قدرة على التعبير عن ذواتهم ٢) أن تكون هناك موازنة بين شخصيات القائمين به والعاملين له (٣) أن يعطى كل فرد من أفراد المجموعة أكبر قدر من العطاء النفسى ، والبذل والجهد (٤) أن تكون هناك حرية للتعبير عن آراء القائمين بالعمل (٥) وأن يؤخذ بآراء الخبراء منهم لتطوير العمل ، وتجديده وتحسينه ، على التوالى (٦) وأن تعطى الجهات المسئولة ، دورات تدريب مجددة لنشاط وأداء العاملين من وقت لآخر .

ومما يعيق نمو الشباب تدخل الاهل والآباء فى مستقبل الاولاد ، ودفعهم إلى دراسة مناهج لايحبونها ، كأن يدفع الاب ابنه لدراسة الطب لانه يريد ذلك ، أو أنه كان يريد لنفسه ذلك ، بالرغم من أن الشاب يرغب فى دراسة الهندسة أو الموسيقى أو الكيمياء ، وهذا مما يحطم نفسية الشاب ، أو يدفعه إلى اللف فى عمله الذى أرغم من أجله . أو قد يدفعه إلى الفشل النهائى فى خضم الحياة ، أو المرض النفسى ...

وكثيرا ما تتدخل بعض الحكومات فى تحديد نوع الدراسة للشباب بسبب إمتحانات الشهادات الثانوية ، وتجعل للمجموع القدر العلى للدخول ، فى الجامعات وقد تكون نتائج الإمتحانات خاطئة لأسباب كثيرة ، منها المرض المفاجىء ، أو الإرهاق ، أو القلق ، أو الحفظ الآلى ، أو الغش ، أو الظروف المالية ، أو العائلية وتكون النتيجة ، أن يكون لدينا جماعة من الشباب مرغم أنفه على دراسة لا يهواها ويعقب ذلك عمل لا يهواه ، وحياة طويلة مملة فاشلة ، وكم تخسر الدولة من هذا الوضع الغريب !!

والصحيح أن يعطى الشاب حق الاختيار ، مع مراقبة حكيمة للشاب ، وهذا هو السائد فى دولة فرنسا وغيرها من الدول .

ومن الأوفق أن تكون هناك جامعة خاصة ، يلتحق بها كل هاو لفن من الفنون ، يدفع فيها أجرا ، وإذا نجح فسوف يصل إلى الذروة .

على أن نهتم بتوجيه الشباب إلى التعليم الفنى والمهنى والصناعى ، منذ الحصول على الشهادة الابتدائية ، وذلك لخلق جيل جديد من الصناع والفنين ، حتى نطور البلاد النامية إلى بلاد صناعية ، على أن نجعل مرتبات هذه الفئة فى مستوى المرتبات الجامعية ، أو نشجعهم على العمل الخاص بإعطائهم السلف اللازمة ، أو الأجهزة والماكينات ، على أن يسددوا أثمانها فى مدة محددة ، مع أخذ الضمانات الكافية ..

أما فى التعليم الابتدائى والحضانة ، فيجب أن يوجه الأطفال إلى مكارم الأخلاق والصدق فى القول ، وأن الإنسان بقدر مايبذل من جهد سوف ينال ، ومن يعمل مثقال ذرة خيرا من العمل سيرى نتيجة عمله ، ومن يفعل الشر فلن يجد إلا الشر

كما يجب توجيه الشباب إلى الألعاب الرياضية ، حتى يكون لكل منهم هواية مفضلة يمارسها ، خير من التسكع فى الشوارع فى وقت الفراغ .

وأحب هواية يجب أن يوجه إليها الشباب هى القراءة الجادة ، وليست القراءة التافهة لضياع الوقت أو التسلية ، كقصص اللص الظريف ، وأخبار المسارح والكورة والمجلات التافهة والكتب المبتذلة ، ولكن القراءة الجادة هى القراءة المفيدة التى يحصل بها القارىء على الثقافة والمعرفة ، حتى يشعر الشاب به يزداد علما ومعرفة فى كل صفحة يقرأها ، فيشعر بكيانه ، ويتفتح عقله ، ويحيا بروحه .

إن كبت الشباب ، وصده عند إبداء آراؤه ، وحرمانه من ممارسة حريته فى الحياة ، بالغ الخطورة على صحة الشباب النفسية ، ونمو شخصيته ، وسلامة روحه ، وقد يدفعه ذلك إلى التدمير فى الخفاء والظلام .

ولكن إذا دعونا الشباب إلى ممارسة حرياته ، آراؤه ومناقشتها وتصحيحها كان ذلك وإبداء سببا فى تفتح عقولهم ، وتنوير إدراكهم ، وهكذا تجنى الدولة ثمار توجيهها للشباب ، فى رفع المعاناة عنهم وكسب جيل جديد من المثقفين النابهين المفكرين الناجحين ..

ونعود إلى توضيح ماهية العمل الجادة .

إن العمل الجاد المثمر يحتاج إلى الاتزان النفسى ، فالإنسان المهتز فى نفسيته ، لا يمكن أن ينجح نفس النجاح الذى يقوم به إنسان واثق من نفسه ، فغير الواثق يتردد كثيرا فى الإقدام على الأعمال الكبيرة ، أما الواثق من نفسه ، فهو دائم النجاح والتفوق ، وهذا هو مانراه فى الحياة ، أشخاص دائمى النجاح وأشخاص دائمى الركود والفشل .

الواثق من نفسه ، يزن الأمور فى سرعة خاطفة قبل أن تفلت الفرصة المتاحة ، والواثق من نفسه ، يكون دائما ذو همة ونشاط وسعى ، فيعمل مايراه . دون أن يلتفت إلى أقوال المعوقين ، فهو يعمل من دافع قلبه ، وغريزته ، وعملا بقول الرسول « استفتى قلبك ولو افتوك ، ولو افتوك ، ولو افتوك » !!!

فهو يعرف أنه ليس للانسان الا ماسعى ...

أما الغير واثق من نفسه ، فتراه يذهب إلى أقاربه وأصدقاؤه وأقرانه ، يخوض معهم فى الحديث عن المشروع الذى يريده ، ويناقشهم ، ويحاول أن يستنير بأفكارهم وهيهات أن يستخلص رأيان سديدان ، فلكل إنسان له تفكيره ودوافعه وظروفه وبذلك تفوت الفرصة المتاحة فى وقتها المناسب ، ثم يندم ، أو يلوم الآخرين ، ولا يلومن إلا نفسه ، ولات ساعة مندم ...

والواثق من نفسه ، لايهاب الفشل أو النتيجة . أما الغير واثق فهو دائما يحسب حساب الفشل ويحسب حساب الخسارة ، وهذا من دواعى التعويق .

والواثق من نفسه ، يبدأ دائما بالمبادرة الأولى ، والخطوة الأولى على الطريق ثم يسير على الدرب ، ومن سار على الدرب وصل .

أما الغير واثق فإنه يظل فى حالة أقـــدام وحجام وتردد ، حتى تفلت الفرصة ...

وهذه حقيقة الحياة ، إذا واتتك الفرصة فلا تدعها تفلت منك ، بل تشبث بها وتمسك بها ، وسارع فى القبض عليها ، فالفرصة التى أتاحها لك الله ، وهى لك خالصة ، فإذا توانيت ، أعطاها لمن يستحقها ...

لاتنتظر ، حتى تحسب المكسب والخسارة ؛ وتتوانى ، لأن هذه الأمور ليست لك ، إنها للغيب ، فأنت عليك للسعى والعمل ، وليس عليك إدراك النجاح ، أو الفشل أو المكسب ، أو الخسارة ، فكل هذه المقاييس لها ظروفها الغير متطورة ، وأنت لاتعرف الغيب فقد تقدر وتضحك منك الأقدار ، وأنت لاتعرف ماسوف تأتى به الأيام من حرب أو كرب أو مرض أو زلزال أو تغير الظروف ...

ولكن الفرصة المتاحة لها فضائلها فى وقت ظهورها أمامك فاغتنمها من فضلك ..

لأن الذى أتاح لك هذه الفرصة عليه أن يدبرها لك ، إنها العناية الإلاهيه ، فعليك الجهد والعمل والسعى ، وعلى الله التدبير ، فافهم ..

وكم أضعنا ، وأضاع الناس من فرص متاحة لهذا البلد ، بكثرة المناقشات ، والتسويف ، والتأجيل للجلسة القادمة ... !!!

وكما أن وقف العقل ، عن حساب المكتسب والخسارة مقدما . وعن التنبؤ بما سوف يحدث ، وبما سوف يكون ، فيه هدوء للعقل وسكون للفكر : وصفاء ، يمكن استخدامه فى تحسين الموقف ، وخلق أفكار مفيدة للمشروع .

فإذا أتاح الله للانسان فرصة ما ، فعليه التشبث بها وعدم ضياعها ، فإذا تدخلت النفس للحساب ومناقشة ما سيأتى به الغيب ، عوقت ذلك العطاء .

وليس معنى هذا أن نترك مشروعاتنا دون مناقشة أو فهم أو تقدير للموقف ، ولكن الصحيح أن نقدر الموقف تقديرا سليما من حيث نفعه أو عدم نفعه ، ومن حيث قدراتنا وإمكانياتنا المتاحة فى هذا الوقت ، دون تسويفه ، وأن نسأل أهل الرأى وأهل الخبرة للاستشارة ، فى الأمور التى نجهلها ، لنصحح المسار ، وليس للتعويق أو التسويف أو ترك الفرصة ، بمعنى أن نكون من أولى العزم والتصميم ..

وعلى الإنسان ، أن يلعب دوره فى الحياة ، فى أحسن صورة ، وأقصى جهد ، ويترك النتائج فى يد القدرة ، وقضاء الحاجات بالتيسير ، وليس بالتدبير فقط فقد تقدرون وتضحك الأقدار .

إن قضاء الحاجات مرهون بوقته وظروفه ، ولكن الثمار مرهونه بيد القدرة العليـــا ..

إن متعة الإنسان فى العمل ، وسروره فى خلق الجديد كل يوم ، ليعبر عن معنى الحياة فيه ، فالإنسان حى بعملة ، وسعيد فى العطاء والبذل لصالح البشرية .

وهنا ندخل فى المبدأ الثالث ، وهو بذل النفس ، فإن الإرادة العليا لله . هى

تسخير الروح للعمل ، وللخدمة ، وللبذل في سبيل الله ، ولا يكون العطاء في سبيل الله ، إلا إذا كان العطاء في سبيل الصالح الخاص للناس ، أو الصالح العام للبشرية .

وإذا تبصرنا في أسباب وجودنا في هذه الأرض ، لوجدنا أنه البذل ، والعطاء والعمل ؛ والكدح ، في سبيل العيش ، أي في سبيل الحياة .

فما من مخلوق إلا وهو كادح في سبيل البقاء ، فالأسد كادح في سبيل بطنه ، النمل كادح في سبيل الحياة ، وإن بدى في الظاهر أنه كادح في سبيل أطماع كثيرة ، إلا أن الأساس أولا في أسباب كدحه ، هو الحصول على لقمة العيش ، فإذا عدنا بتفكيرنا إلى أيام الإنسان الأولى ، لرأينا الحقيقة ... أنها إشباع بطنه أولا ..

فلما توفر لديه الطعام ، بدأت تظهر للانسان اهتمامات أخرى كثيرة .

وإذا حدثت مجاعة عالمية في الأرض فسوف يزحف الإنسان على بطنه ليأكل دون أي اعتبار آخر .

انظروا إلى الكادحين الواقفين أمام المجمعات الإستهلاكية ، في طوابير متراصة بالساعات في انتظار كيلو من الاسماك ، أو اللحوم ... أو غيرها من مستلزمات الحياة ... فكيف نطلب من هؤلاء الجوعى ، الذين يعيشون ليومهم كادحين ، أن يبذلوا أنفسهم في سبيل إسعاد الغير ، وفي سبيل نهضة البشرية أو تقدمها .. !!

كيف نخلق منهم بشرا سويا ، وعلى صراط مستقيم ؟؟

كيف نطلب منهم التركيز في أعمالهم وهم يفكرون في بطونهم . كيف نخلق منهم أمناء صادقين ، وهم يرون أصحاب المال والجاه في سياراتهم الفارعة ينظرون إليهم ولا يكترثون بهم ...

كيف يمرحون في قصورهم ، وغالبية الشعب يبحثون عن غرفة تستر حياتهم ..

إن البذل والعطاء ، يجب أن يبدأ من القادرين ، أن يبذل كل غني من ماله

للسائل والمحروم ، أن يدفع المليونير من ماله ليبنى مستشفى للفقراء ، أن يدفع صاحب رأس المال من ماله الفائض ، لبناء المساكن لعماله والكادحين من أجله، أن يشارك الأغنياء الفقراء فى الحياة ، أن يعمل كل قادر لصالح قومه ، ولصالح جيرانه ، ولصالح المحتاجين ؛ فلن يدخل غنى الجنة ، إلا إذا دخل الجمل من ثم الخياط ، كما قال السيد المسيح .

ولن يقبل الله هذا الغبن الواقع من الأغنياء ، والأقوياء ، على الفقراء ، والضعفاء والحياة تمهل بعض الوقت ، ثم تقوم الثورات والإنقلابات ، كما حدث فى روسيا القيصرية وكما حدث فى غيرها ، وكما هو حادث الآن فى إيران وبولنـــده وغيرها ...

وكل هذه الثورات هى نكسات فى سبيل تقدم البشرية ، وهى إنذار لغيرهم من الدول .

وجاء الإسلام فأنذر الاغنياء ؛ وفرض الذكاة على كل قادر ، وآخى بين الأنصار والمهاجرين ، وبذل كل ذى مال من ماله لأخيه ، حتى انفرجت الأزمات ونهض الإسلام نهضته المشرفه ، واكتسح العالم شرقا وغربا ، بمبادئه القويمه .

ولكن الإسلام عاد الآن غريبا فى بلاده ، فأصحاب الملايين أصبحوا فى تخمه مما يملكون ، فهل رأى العرب من أصحاب الجاه والمال ما عليه الشعوب الفقيره ، وهل بذل أصحاب المال من أنفسهم ومن أموالهم للمحتاجين والفقراء ...؟؟

هل دفع أصحاب البترول ، من فائض أموالهم لفقراء شعوبهم ، والنهضة ببلادهم نهضة ترفع المستوى العام ، وحتى تزدهر القرى ، بالمصانع والصناعات ، فى كل البلاد العربية .

إن أهل العطاء ، لايثنيهم عن عطائهم أى مانع ، إنهم يبذلون الجهد مهما قابلهم من بعض الناس من عداء ، أنهم يبذلون دون قهر أو إرغام .

إنهم يبذلون أنفسهم لصالح الغير ، دون خداع ، أو محبة فى الظهور ، ودون

تملق لحاكم أو عظيم . إن كل مايفعلونه شعور داخلى نابع من أعماقهم ، أنهم يقتصرون أنفسهم فى سبيل للخير حبا فى الله إنهم يبذلون أنفسهم وطاقاتهم دون أجر ، ودون طلب تعويض ، أو كسب ؛ بل لا يتعاملون من أجل الحصول على تعويض من الله ، فهم ليسوا من المرابين مع الله الذين يفعلون المعروف للكسب و جناتها ، أو خوفا من النار . إنهم يبذلون أنفسهم فى سبيل الخير حباً فى فعل الخير ، ويبذلون أنفسهم فى سبيل نصرة الحق للحق ، وفى سبيل تقدم البشرية . دون إعلان عن نفسهم ، ودون رغبة فى الثراء إنهم يبذلون انفسهم فى سبيل تقدم البشرية التى لن يعيشوا حتى يجنوا ثمارها ، إنما يفعلون ذلك من أجل الإنسانية . إنهم ملائكة فى صورة البشر ، أو بشر فى صفات ملائكية . .

نسأل الله أن يراجع أصحاب البترول من العرب ، ضمائرهم فيهبوا لمساعدة الدول العربية المحتاجه للمال لتقف من كبوتها .

الفصل الخامس

نظرة تأملية في التوكل والتواكل

إن الشجاعة التي تواتي بعض الناس ، فيقبلوا على أعمال يهابها الآخرون ، ويخشون نتائجها ، إنما هي شجاعة صادرة من أولى العزم ، من المؤمنين حقا ، بأن هناك يد عليا قادرة ، تساند من يلجأ إليها ويتوكل عليها ..

وهناك فرق كبير بين التوكل والتواكل .. فالتواكل نابع من الضعف ، والتوكل نابع من قوة .

والتواكل صادر عن السلبية ، أما التوكل فهو صادر عن إيجابية كاملة مطلقة .

والتواكل هو إلقاء الأحمال على الغير أو على الغيب ، أما التوكل فهو نابع من صلب المسئولية الشخصية ، وحرية التصرف ، والمواجهة ، والمجابهة ...

والمتوكل هو إنسان عارف بالله ، عارف بقدرة الله الكامنة فيه ، والنابعة من قوته ؛ وهو يعرف بأن الله قوى يحب الأقوياء ، وأن هذا العارف يستمد هذه القوة من منابعها التي هو يمثلها ، فهو يعرف أن « يد الله فوق أيديكم » وهو يعرف « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ..

فهو قدرة فاعلة من الطاقة القائمة فيه ، إنه مركز طاقة . ومركز فاعلية ، ومركز قدرة ، وذو نظرة فاحصة متعمقة .

والمتوكل يعرف المثل القائل « على أن أعمل واجتهد ، وليس على إدراك النتائج والعواقب ، فهي ليست في حسباني ، لأنها غيب ، تحتضنه ظروف غير منظورة

بالرغم من تقديرى للموقف ، ولكن « تقدرون وتضحك الأقدار » .

ولكن عين المتوكل ترى بعين الله ، لأن المتوكل له علاقة مع الله ، من خلال تأملاته ، ومن خلال مراقبته لأمور الحياه ، وعمق مشاهداته .

والإنسان العارف ، هو إنسان فى طريقه إلى الكمال ، ومن خلال ممارسته لجلسات التأمل ، يعرف أن فى التأمل هدوء وسكون للعقل ، وتفتح فى الرؤية ، وعمق فى البصيرة .

أما العمل ، فهو جهد ، وعزم ، وعزيمة ، ودفع لعجلة الحياة ومتطلباتها .

والحقيقة ، أن التأمل ، يحتاج إلى فهم سليم ، وتدريب مستمر ، لترسيخ الرؤية السليمة ، واستقبال الإيحاءات الروحية الكونية ، وتقوية الأعماق فى بصيرة الإنسان ووعيه .

وسائل التأمل فيه الأسس الجوهرية ، وهى خمسة مبادىء .

١ — جدية العطاء .

٢ — استكشاف النفس .

٣ — تنشيط الذات وخلق الطاقه .

٤ — تقدير وتقيم الأمور من خلال النقد الواقعى البناء .

٥ — الشعور بالوجودية .

وللوصول إلى الكمال من خلال « جدية العطاء » هو العمل الديناميكى فى سبيل الله ، وليس المقصود بسبيل الله هو التصدق بقروش إلى عابر السبيل ، أو السائل المتجول ، ولكن هو نوعية العمل ، سواء كان عمل فكرى فى سبيل إيصال معلومات

لنفع إنسان ، أو توجيه إنسان ، أو إيصال معلومة إلى بعض الجاهلين ، أو تقديم عمل تربوى لصالح الشعب ، أو تعليم صناعة أو فن ، أو بذل النفس للخدمة فى أى اتجاه للصالح العام ، سواء كان هذا البذل عن الطريق الدينى أو غيره .

ويجب أن يكون المفهوم الصحيح للمتأمل فى هذا السلوك ، إنه جزء لايتجزأ من المجتمع ، وأنه خلية فى جسم الانسانية العام ، والروح الموحدة للكل .

وبذلك تصبح فردية الانسان ذات معنى كبير ، وذات فاعلية وقدرة ، فى طريق تطور العالم المستمر إلى الأبدية المطلقة .

ومن هنا نرى أن التبصر ، ذورؤية صادقة ، وذو عمق فى القضايا الانسانية .

غير أن المتعبـــد ، السالك فى الطريق الدينى ، دون وعى أو تمييز للحقائق الالاهية وما هو المراد من الوجود الانسانى فى هذه الأرض ، والذى يعكف على أداء فرائض الدين بصورة هيكلية ، وبصفة مستمرة دون فهم لقوانين الوجود ، قد ينحرف عن جادة الصواب ، ويترك المجتمع ، يدخل فى طريق انطوائى بحت معتقدا أنه على صواب ، وأن الأخرين من الكفرة ، ويظل عاكفا طوال وقته ، وقد يترك عمله إلى صلاة ، أو تسابيح ، أو غفلة .

وأمثال هؤلاء الناس على غير وعى أو علم بالحقيقة ؛ وقد تتطور بهم الحال إلى الانطواء الذاتى ، وإلى عزل أنفسهم عن الحياة ، اعتقادا منهم بأنهم فى « حالة الفناء » وهى حالة من حالات التجرد ، وقد يشعر فيها البعض بشىء من الأمان ، غير أن هذا الانعزال ، انعزال سلبى ، لايحقق الانسان ، بل هو ثبات فكرى ، وتقوقع ذاتى . بل هو بتر للانسان من إنسانيته ، ومن روح الحياة وتشويه الدين فهو لايخرج عن الظن والتصور الشخصى ، أو العلم الموروث عن غير عارف ، أو عالم بالحقيقة .

وأود أن أذكر بهذا الصدد ، أن الرسول عليه السلام ، مر بعابد عاكف على

الصلاة ، فى ركن من الأركان ، فسأله « من أين تأكل ياهذا » ؟

فقال الرجل « أخى يعمل فى المدينة وعند عودته من العمل يحضر لى الطعام » .
فقال له الرسول « أخوك أعبد منك » .

ومن هذا نرى أن العبودية الصحيحة ، ليست فى الانزواء والانطواء ، والاعتكاف والتفرغ للصلاة والزهد . بل العبودية هى العمل الجاد وبذل النفس ، فى سبيل الانسانية ، وفى سبيل الاصلاح ، وتطوير الحياة والمجتمع إلى ماهوأفضل لأن الانسان جزء من الحياة ، ووحدة من وحدات المجتمع ، بل وحدة من المجموع الكلى الانسانية ، بل خلية من خلايا الوجود الكونى الكامل ، وهذه الخلية فى طبيعتها الحركة وفى طبيعتها الحياة ، بل هى ديناميكية الحركة فى قانون الوجود الحى ، والمراد لها أن تعمل بكل جهد ، وقال « اعملوا فسيرى الله عملكم » ...

إذا ليست العبودية هى جانب واحد من الحياة ، بل هى حلقة متصلة من الأعمال ذات الالوان المختلفة ، أو هى كألوان الطيف السبعه ، كل لون منها ملتصق ومتداخل فى اللون الذى يليه ، ويجمع هذه الالوان أو الاطياف ، اللون الابيض ، الذى يمثل الحياة فى تكاملها وأنوارها وأضوائها وتحقيقا لهذا ، قول الرسول عليه الصلاة والسلام « ليس خيركم من ترك الدنيا للاخرة ولا الاخرة الدنيا ، ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه » .

وفى الحقيقة أن المتعبد السلبى الصفات أى المنطوى فى عباداته لاخرته فقط ، قد يضل السبيل بفرديته وبعده عن خضم الحياة ، وهو غالبا مايفقد شخصيته الحقيقية ، فى خضوعه وتسليمه ، معتقدا أن هذا الخضوع والتسليم لله ، والجائز أن يكون خضوعه لقوى أخرى تسيطر عليه ، بسبب فقدانه لذاتيته التى منحها له الله ، فقد تسيطر عليه قوة من قوى عالم الروح الضال ، أو العوالم الاخرى ،

أو قد تتنازعه أحاسيس وعواطف مبهمة ، أو إنفعالات ، أو خوف من الحياه .
أوهروب من صميم الحياة بسبب فشل صادفه ، أو مشكل لم يقو على حله أومواجهته

وأمثال هؤلاء المتطرفون ، يعيشون في الغالب فى فراغ ، أووهم ، فكيف يملاون هذا الفراغ ؟

فقد تتملكهم قوى مستسخره ، تسخر منهم ، أو تهيىء لهم أنهم من المبعوثين لتقويم الأمور ، وإصلاح الكون ، فيدخلون فى متاهات ، أو يرتكبون حماقات سياسية أو دينية أو يندخلون بالعنف فى أعمال قهرية للغير .

والسالك فى طريق الحقيقة ، يجب أن يكون دائما فى حالة يقظه ، ومراقبة ، حق يتمكن من التميز بين ما هو حق وماهو باطل .

إن موقف المتعبد السلبى ، الذى هرب من واقع الدنيا إلى التقوقع فى ذاتيته ، وانكمش فى جانب المعبود الذى رسمه له خياله ، وجلس فى جواره سعيداء متصورا أنه استغرق فى الله ، أو تماسح فيه ، فهو كالمنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى .

وقد وقع فى هذا الخطأ الكثيرون من الزهاد والرهبان والنساك ، فى العصور القديمة ، وفى العهود الحديثة ، حتى يومنا هذا ، بالرغم من تقدم العلوم والمعارف . فمازال البعض يزاول الانزواء عن الحياة ، معتقدا أنه نسك يرضاه الله .

ولو رجعنا إلى سير الأنبياء والرسل والصالحين ، لوجدناهم جميعا من أولى العزم والعمل ، وكان لكل منهم صناعة ، أو تجارة ، أو رجل حرب ، أو مصدرا للعلم والمعرفة .

كانوا يعرفون أن الإنسان ، قيام حى بروح الله ، له شخصيته وحريته ووجوده وذاتيته ، المعبرة عن نفسة بوعى وشعور تام ، وأن الإنسان ليس ريشه فى مهب الرياح ، تتقاذفها ذات اليمين وذات اليسار .

وكانت سعادتهم فى العمل الدائم لصالح البشرية ؛ وفى نفس الوقت ، فى وعى وامتزاج مع المطلق دون غفلة أو نسيان .

وفى الحقيقة أن الإنسان ، فى تمامه وكماله ، لم يصدر عن جهالة ، وهو ليس بباطل أو خيال ، وهو ليس بكائن سلبى ، وأن الحياة ليست وهم وضلال ، فالإنسان بما قام فيه من روح الله ، أصبح خليفة لله ، وأصبحت العبودية ، والحياة الأرضية ، هى المدرسة التى يتعلم فيها العبـــاد ، مكارم الأخلاق ، وليعرفوا أنهم من روح الله تعالى .

ولو تأملنا وتبصرنا فى حقيقة أنفسنا لعرفنا أننا مخلوقات ذات قدرة وفاعلية ، وحرية ؛ وانطلاق ، وأننا مركز وعى وحركة ، بما وضع فينا من روح الوجود ، التى شاءت لنا أن نكون خلفاء لها ، نبذل الجهد ، ونعمل بكل ماأوتينا من قوة ، نابعة من جوهر الروح فينا .

ومن خلال فرديتنا تحقق الإرادة الكلية للوجود ككل متضافر . ذلك أن الوجود وحدة متكاملة ، ولا يمكن أن نفصل بين المطلق كوجود قائم بذاته ، وبين أفراده ، وآحاده ، كوجود قائم بذاته .

وإنما الحقيقة هى إرتباط الوجود ككل شامل للمطلق والمقيد ، أو مفردات الوجود فى كلية الوجود .

فأينما ولينا وجهتنا فى الكون ، لرأينا مفردات الوجود صورة متماسكة معبرة عن هيلولية الكون ، وأن الإنسان فى هذه النظرة التأملية ، يرى وجه الله بعين البصيرة ، ويرى الرباط ، الذى يربط وجوده بهذا الوجود .

وفى أثناء تدريبات التأمل يجب أن يجلس الإنسان فى هدوء تام ، جسما وعقلا دون اهتزاز ، وأن يركز على وجوده كمركز فعال فى المطلق ، أو يركز على قلبه كبيت لله ، أو يسلم نفسه للخالق ...

إن التأمل فى الحقيقة هو تكريس النفس لله ، أو نذر النفس لله ، وإذا ظهرت فى العقل أى أفكار ، أو أحاسيس ، أو رغبات دنيوية ، أو مشاعر ، وجب على الانسان أن يتأملها بصبر وأناة ، وأن يحللها ، ثم يطرحها ، أو يقدمها لله ، ثم يعود إلى هدوء نفسه وعقله ...

ومن خلال هذا الهدوء ، يستشف الانسان المعرفة ، ويستكشف نفسه ، ومن هذا المنطلق يبدأ العقل فى تعلم الهدوء ؛ والجسم يتعلم الالتزام والاسترخاء ، والنفس تعرف مكوناتها ، ثم يبدأ العقل الباطن فى التفتح ، ويبدأ الانسان فى الغوص إلى أعماق النفس يسبر غورها ، حتى يضىء الباطن ، وهنا تظهر الرغبات المكبوته ، والذكريات التى طمسها النسيان ، فيتخلص منها الانسان . وعندئذ تبدو فى الانسان صفات نبيلة ، وتظهر طاقات كامنه ، ويتألق العقل .

وفى نهاية المطاف يصل الانسان إلى ذروة قوته ، وكما قال الرسول عليه الصلاة والسلام « إن فى القلب لمضغة لو صلحت ، لصلح بها الجسد كله » .

وكما تتفتق الذرة ، عن قوة وطاقة ، كذلك تتفتق الشعله المقدسة فى الانسان ، وهى التى يسميها الهنود « قوة الكندالينى » Kokaliny — التى تظل هاجعة فى أعماق الانسان حتى تنطلق بالتدريب والتأمل :

فإذا انطلقت هذه القوة الكامنة فى أعماق الانسان تبدلت أحواله ، وتطورت صفاته ، وأصبح ذو وعى ومعرفة وحكمة بالغة .

هذه القوة ، هى النورة ، المودعه من روح الله فى الانسان ، وقد حوت طاقات لاحدود لها ، هى أمانة الله المودعه فى قلب الانسان ، فإذا آمن الانسان بمعية الله معه ، ووعى مافى نفسه من جذوة ، وانقلب ببصره وبصيرته إلى قلبه ، إلى مركز وجوده ، وتأمل هذه الجذوة وأشعلها ، وأنارها فنار اعلاً حوائجه ، ويشع خيوطا من النور حوله ، وكما يضىء الفنار المرفأ ، تضىء هذه الشعلة الانسان ، فيصبح كعبة للواردين ، ورسولا للانسانية ، أو زعيما ومصلحا إجتماعيا ، أو محاربا مدافعا عن

الحق فى سبيل الله ، أو عالما من العلماء ، أو هاديا لعشيرته .

فإذا أردت الحياة ، فخصص من وقتك كل يوم ساعة تقضيها فى التدريب والتأمل كما سنشرحه لك فى كتاب آخر ، وسوف ترى كل يوم مزيدا من المعرفة ، ومزيدا من القوة ، وستشعر بأن هناك سيال من القوة المغناطيسية تتدفق من الأعماق ، بغير حدود ، وبغير توقف ، مادمت فى رعايتها كل يوم ، والله سبحانه وتعالى يقول « كن لى أكن لك » « عبدى اطعنى أجعلك ربانيا تقول للشىء كن فيكون » « مازال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته ، كنت يده التى يبطش بها ولسانه الذى يتكلم به ، وقدمه التى يسعى بها .

وقد مرت جميع الرسل والأولياء ، والانقياء ، والصالحين ، والمصلحين ، بفترات مختلفة من سنوات التأمل ، حتى أشعلوا هذه الجذوة فى أنفسهم ، وأناروا الطريق للبشرية فى شجاعة وقوة ، ويهدى الله لنوره من يشاء .

وقبل أن نختتم هذا الفصل ، أود أن أحذر الراغبين ، أن هذه الطاقة المودعة فى الانسان ، ذاتية الاشتمال لا شرقية ولا غربية ، وهى طاقة لا تقهر ، مطوية فى باطن كل إنسان ، فإذا انطلقت دون رعاية وتنظيم ، وتوقيت ذكى ، فقد تدمر صاحبها ، مثلها كمثل الطائرة المندفعة فى يد ربان جاهل ، أو عربة تسير فى أقصى سرعتها ، يركبها سائق ، لا يعرف قدمه طريق الفرملة . أو كمن يحمل قنبلة ذرية ، أو طاقة ذريه وهو يجهل خطورتها .

فحذارى أن تقدم على إشعالها ، وأنت لم تكتمل روحيا . وفى أحيان كثيرة تظهر هذه الطاقة فجاة ، فيأخذ بريقها القوى بالعقول ، فتحدث جذبة عقلية ، تراها فى بعض المجاذيب ، حول أضرحة الأولياء ..

وأحيانا أخرى ، تومض هذه الشعلة ومضة ضعيفة ثم تختفى ، فتقعد محسورا ملوما ...

مثلها كمثل مصباح الكهرباء إذا تعرض لطاقة أكبر من محتواه إحترق فى الحال ...

فيجب إلا نتهاون فى مثل هذه الأمور العظيمة القيمة .

ويجب أولا أن نسير فى طريق مستقيم قويم ، وأن نكون من الساعين إلى الخير دواما ، وأن نتحاب مع الناس ، وأن نعامل ، الكبير والصغير ، والفقير والحقير ، كأسنان المشط ، وإلا تعرف يدك اليسرى ماأعطت يدك اليمنى ، وأن نرعى الله فى كل أحوالنا ، وأن نخشاه ، ونقف مع الحق ولو كان علينا أو على أعز إخواننا ، وأن نتحلى بصفات الأنبياء والاتقياء ، وتقتدى بأخلاقهم ، ويحسن أن ترتبط بمعلم يكون لنا قدوة حسنه ، ويرعانا فى طريقنا الروحى ، حتى نتقدم ونرتقى بخطى ثابتة هادفة ..

فابحث عن المعلم الروحى ، أو انتظم فى جمعية روحية ، أو ارتبط بشيخ من العارفين .

وليكن فى علم القارىء ، أن التأمل ليس نوع من أنواع البحلقة فى الأشياء أو الجلسة البلهاء ، أو البحث فى ذات الله .

ولكن التأمل هو نظرة ، ورؤية عميقة فى الحياة ، واستبصار داخلى فى النفس ومكوناتها ، ومشاعرها ، ودوافعها ، واستضواء للعقـــل ، وتصرفاته ورغباته ، وتحكماته ، وسيطرته ، ومايجول فيه من نوازع وأفكار ورغبات ، والتأمـل بحث واستقصاء لقيم الحياة العليا ، أما الولوج فى الغيبيات دون صحوة ، فإنه مدمر للنفس ، بل ومدمر للمجتمع .

ولهذا ، يحسن بل يجب ، أن ندخل فى تدريبات التأمل بحذر ، وبتقييم جوهرى لمكونات الانسان النفسية والعقلية والروحية . والعنصر الجوهرى فى تدريبات

التأمل هو الجدية التامة ، والرغبة الأكيدة فى المعرفة ، والالتزام بالسبب والاستمرارية وتكريس النفس لله ، أى بيعها ، فى ظل معلم عارف . .

وكلما وهبت نفسك لله ، كلما زاد العطاء لك ؛ وكلما نقت سريرتك ، وصفا قلبك من الغيرية ، وأصبح بيتا معمورا بنور الله وسراجا منيرا .

وبذلك تمهد أرضك ، وتعبد طريقك ، بوضوح وجلاء ونقاء وصفاء ، فتخطو بخطوات واسعة ، فى أتزان وطمأنينة ، حتى تبلغ الهدف العظيم .

وهنا يسير الانسان على أرض الحقيقية ، يتبوأ منها مايشاء حيث يشاء ، فقد دخل فى حصن لا إله إلا الله ، فى أحدية الوجود ، فلا غيرية ، ولاثنائية ، ولاتعدد فى صور المخلوقات ، ولاتباين ولاتنافر بين الأجناس ، ولافرق بين المذاهب والأديان . فقد أصبحت نظرة العارف ، أن هذه الكثرة وهذا التكاثر ، ماهى إلا نفس واحدة . « كلكم لآدم وآدم من تراب » .

وكما قال السيد عبد الكريم بن إبراهيم الجيلانى :

فيا أحدى الذات فى عين كثرة .. ويا واحد الأشياء ذاتك شائع .

فما ثم من شىء سوى الله فى الورى .. ولاثم مسموع ولاثم سامع ..

الحب فى معناه الاسمى

إذا تكلمنا باسهاب عن الحب ومحتواه ، فلن يكفينا هذا الكتاب ، فهناك أنواع لاحصر لها من الحب ، وإذا تكلمنا عن الحب الحقيقى والحب الزائف ، لتلاشى معنى الحب الزائف أمام الحب الحقيقى ، كما يتلاشى الليل فى وضوح النهار ، ولترفعت كلمة الحب فى معناها السامى ، عن هذه المعانى الرخيصة من كلمة الحب .

فالحب فى معناه العظيم ، هو الخلود ، وهو الأبدية ، وهو العطاء بغير مقابل ، وبذل النفس والمال فى سبيل المحبوب ، كما قال الرسول صلوات الله عليه وسلم « لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ماله وولده ونفسه التى بين جنبيه » .

إذاً فالحب فى معناه الأسمى ، هو حب الله والرسول ، فالمسلم ، والمسيحى ، واليهودى ، والبوذى ، والهندوكى ، يتساوى أمام الله فى الحب ، إذا خلص فى حبه لله ولرسوله ، بحيث ينبض قلبه ، مع نبضات الوجود ، بهذا الحب ، وحتى تنتظم ضربات قلبه مع نغمات الكون ، فلا يكون هناك قلب وقالب ، أو حاضر وغائب ، ولا انفصال بين الوجود وموجده ، ولا غياب لله عن الوجود ، فالله سبحانه وتعالى هو المحيط والموجد للوجود .

وما الكون ومشتملاته إلا الوجه المعبر عن الإله العظيم .

إن الفصل بين الوجود والموجد هو البعد عن الحب ، والله سبحانه وتعالى يقول « كانت السماوات والأرض رتقا ، ففتقناهما » فظهرت الأشياء منفصلة بعد هذا الفتق الظاهرى ، ولكن الحب يعيد الفتق إلى رتق .

فكيف يكون لدينا ميكية الحياة وجود قائم بذاته ، ومن أين له هذه الطاقة وهذه القدرة ؟!!

ومن هنا نفهم قوله تعالى « معكم أينما كنتم » « فى أنفسكم » . هذه المشاركة بين الخالق والمخلوق ، وبين الوجود وموجوده ، هى مشاركة لا إنفصام لها ، ويجب أن تفهم هذه المشاركة بدقة ، وأن تفهم المعنى الخفى وراءها ، أن نفهم معيه الله معناه ، إننا نرى بنوره ، ونعمل بقدرته ، فهو القائم علينا وهو الدائم فينا ، فعلينا أن نبحث فى أعماقنا ، حتى نحقق أحديتنا معه فى الداخل ، وأن نعمل فى دنيا الحياة بما نراه صالحا لكسب معركة الحياة ، وتطوير أنفسنا إلى حياة أفضل وأكمل ، وهذا هو مراد الخالق ، لأنه هو الحى وهو الحياة ، ولا يمكن الفصل بينهما ، إذا أردنا أن نجنى ثمار الحياة وثمار المعرفة ، وثمار وجودنا ..

وأنه فى مخاصمة الحق ، مخاصمة لأنفسنا ، وفى محبة الله ، محبة الوجود ، ومحبة كل جميل وكل قبيح ، فالحياة فى تكاملها تشمل كل ألوان الحياة ، وعلينا أن نقبلها بما فيها من جمال وبما فيها من صور أخرى ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

والحب إذا ، فى معناه السامى ، هو حب الوجود فى شتى مظاهره ، فى طفولته فى كهولته ، فى بدائيته وفى عصريته ، فى سمائه وفى أرضه ، فى أوقات المرح وساعات المرض ، فى قسوة الحياة وشدتها وفى انفراجها ويسرها ، فإن مع العسر يسرا ، ولم يقل الله إن بعد العسر يسرا ..

هذا النوع من احب ، هو النبع الربانى ، الذى يضفى على النفس السلام والطمأنينة . ياأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى ، وأدخلى جنتى ...

أما تلك الفئة من الناس التى تعيش فى سلبيات الحياة ، وعلى هامش الحياة ، تطلب أطايبها فقط ، وتتعبد فى جمالها ، وتنفر من صميم الحياة فى ألوانها المختلفة فهى نفوس حائرة ، بعيدة عن الحقيقة ، بعيدة عن معانى الحياة .

والطامة الكبرى فى هؤلاء الموتى من الأحياء ، الذين هربوا من واقع الحياة إلى التفرغ السلبى ، بحجة أنهم من العابدين الذين فنوا فى الله ، وأعدموا أنفسهم وعاشوا فى غيبوبة ، معتقدين أنهم فى حالة فناء ، أو إفتتان وحب فى الله ، فهم من المجاذيب ، الذين خسروا أنفسهم ، وأنكروا الحياه ، وأنكروا رغبة الخالق فى تألق الحياة ، وفى السعى والعمل ، والجهد والجهاد بأنفسهم وأموالهم ؛ وليس الجهاد هنا يعنى الجهاد فى الحرب فقط ، ولكنه يعنى الجهاد فى الحياة ، ومجاهدة صعاب الحياة ، والتغلب على النفس فى كفاحها ، وأبراز الشجاعة والاقدام ، للكشف عن مكنونات الوجود ، وكنوز الوجود ، التى خبأها صاحبها ، ليرى سعينا ، وفرحتنا العظيمة كلما كشفنا عن كنز من كنوز الوجود .

أما الفناء الحقيقى ، فهو الفناء عن سيطرة النفس وامتلاكها لنا لتستعبدنا ، لـكى نطغى على الحق ، أنها تلك النفس الإمارة بالسوء ، التى تريد كل شىء لنفسها ، تجمع المال لتكنزه ، ولتحرم الغير منه ، النفس التى تطغى ، وتتكبر ، وتتجبر ، النفس الطماعة ، التى إذا اشتركت مع آخرين سلبتهم حقوقهم وأموالهم ، النفس التى إذا عملت فى تجارة ، غمرها الجشع فرفعت أسعار سلعتها لـكى تنهب الناس ، النفس التى تطغى فى الميزان ، النفس التى تنهشى أعراض الناس ، النفس التى تقتل وتسرق وتخطف دماء الناس ، النفس التى تتحكم فى مصير الناس ، هذه هى النفس التى يجب أن نحاربها ونجاهدها ونفنيها ، ثم ندخل إلى النفس اللوامه ، فنصفيها ، ومنها إلى النفس الراضية والمرضية . . .

وليس معنى النفس الراضية أنها نفس مستسلمه ، كلا وألف كلا ، أنها ، نفس الحق والميزان ، إنها قوة الإرادة ، الفاعله فى جدية ، العاملة فى سبيل رفع مستوى البشريه ، التى تعمل على نشر مكارم الأخلاق ، والتى ترفع المآسى عن الشعوب المهضومة ، والتى تقف أمام الحاكم الطاغى لتقول له قف ، والتى تبذل نفسها فى سبيل مساعدة المحتاج ، والمظلوم ، والمريض ، والعاجز ، والفقير ، النفس الراضية هى يد الله فى الأرض ، كقوله تعالى « يد الله فوق أيديكم » إنها نفس المحب المحبوب .... إنها الشعلة النورانية الـكريمة الممتدة من الله سبحانه وتعالى فى قلب المؤمن .

إن الـكثيرين من الناس بل الغالبية منهم ، يسيرون فى الحياة حسب أهوائهم ، لايذكرون الله ولايرعون حرمة ، وأغلب هؤلاء الناس لايخشون الله ولا يحاولون الارتباط به ، بل يخجلون كلما ذكر الله أمامهم ، أنهم يخشون أن تضيع شخصياتهم فى قرب الله ، لقد برزت أنفسهم الإمارة بالسوء لـكى تسير على هواها ، وتنزع إلى شرورها وإغوائها ، تنهل من كل فاسد ، وتعبث بالمجتمع وبالقانون ، إنهم المقيدون فى عبودية النفس ، إنهم عباد الشيطان ، يسيرون فى الأرض على أهوائهم

غير عابثين بالمجتمع ، إنهم ولعون بفرديتهم ، ولايكترثون للغير ، ومهما أسمعناهم من النصيحة فهم من الغافلين ، لاينتحون مطلقا عن شرورهم وفجورهم !

لقد نزعوا ما فى قلوبهم من حب للفضيلة ، وزرعوا نوع آخر من الحقد ، زرعه الشيطان فى قلوبهم وسيطر عليهم ، فاصبحوا من الذين يعبدون الطاغوت .

أما الذين قذف الله فى قلوبهم الحب لمكارم الأخلاق ، فهم العاملين للاصلاح ، قد أصلح الله بالهم ، فانصلحت أنفسهم أولا ، وكانوا مثالية للمجتمع ، ينشرون الخير فى كل مكان ، شغوفين بنشر مكارم الأخلاق فى كل واد يهبطون ، تراهم ركعا سجدا فى الحق ، يحبون ويتحابون ، يألفون ويؤلفون .

إذاً فالحب لله والفناء فى محبته ، ليس فى سلبيه الحياة ونكران وجودها ، والعماء عن عظمة وجود التى هى مظهر عظمة الله .

والذين يدعون أن الكون هباء ، وخيال ، ووهم ، وحلم ، هم الكافرون بأنعم الله ، والغافلون عن أسباب الوجود فى هذه الدنيا : وإن كانت الدنيا حقاً غير دائمة وغير أبدية ، وحياتها موقوته إلى أجل مسمى ، إلا أنها مزرعة للاخرة ، ومدرسة جامعة للاسباب ، ولرقى الروح فى معراجها ، وعلينا جميعا أن نعمل فيها بكل جهد وبكل إتقان ، وفى ظل مكارم الأخلاق ، لنجعل من بشريتنا قيمة روحيه ونجعل من هذه الأرض جنة وأرفه الظلال ، تتعايش فيها البشرية بغير نزاع ، وبغير عنصرية فى الدين واللون والجنس . وبذلك تكون وحدتنا مع الله وحدة قلب وقالب ، وحدة روح ومادة ، وحدة تارية كاملة ، فى ظاهرها آحاد ومظاهر وفى باطنها نفس واحدة ، وروح واحدة ، وهذا هو الكمال المنشود ، فى قوله تعالى « عباد الرحمن يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً .

إنهم قوم جبلوا على الشجاعة ، وتكريس أنفسهم لخدمة الله فى خلق الله ، لخدمة البشرية عامة ، بقلوب عامره بالإيمان والحب والبذل والعطاء ، إنهم باعوا الله

وباعوا أنفسهم لخير الناس ، إنهم سادة قد تحرروا من عبودية النفس ، وأصبحوا بنعمة الله إخوانا ، وصدق عليهم قوله تعالى « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه » إنهم المؤمنون حقاً وصدقا وحباً ...

والقول المأثور « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً يعني المؤمن في أي دين أو أي مكان ، ولم يحدد الدين المؤمنين من المسلمين أو غيرهم من العناصر المختلفة ، إنما عرف المؤمن بصفة عامة ، مهما كان وجوده ومهما كانت سجيته ، فالمؤمنون إخوة ، بإيمانهم المتسامى فوق الأجناس والأديان والعنصرية .

الفصل السادس

فلسفة الحياة

لكي نعيش فى هذه الدنيا فى سعادة وسلام ، يجب أن نفهم قوانين الوجود وأن ندرك حقيقة الحياة من خلال نظرة واقعية عميقة .

فالحياة لاتسير جذافا ، ونحن لسنا فيها كالريش فى مهب الرياح ، تحمله وتلقيه حيث شاءت .

فالحياة محكومة بإرادة واحدة ، لاثنائية فيها ولا إشراك ، وإن بدت الأمور مختلفة ومتباينة فى الظاهر ، فالصلة دائما موجوده بين الخالق ومخلوقاته ، فهو على الدوام أقرب إليهم من دمائهم التى تجرى فى عروقهم ، فهو كلى الوجود ونحن تجلياته ، وهو المحيط ، الجامع الشامل ، لكل مافيه وكل مايحتويه .

ويقول سبحانه وتعالى ، « عن طريق النفس أتحكم فى الجسد ، وعن طريق العقل أتحكم فى النفس ، وعن طريق البصيرة أضع للعقل حدوده ، وأزود كل مخلوق بأسباب حياته » .

« أعلم مالا تعلمون ، وأزودكم من العلم بقدر « وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وماننزله إلا بقدر معلوم » ، كلما رأيت حاجة العالم إلى متنفس ، أفتق الأذهان عن مصدر جديد من المعرفة ، لصالح البشرية ، أمنح من صفاتى لمخلوقاتى ، بقدر ولاتحيط بى الصفات ، فأنا متعـــال وأقرب إليكم من حبل الوريد ، فأنا السميع البصير » .

فإذا وجهنا أبصارنا إلى الخارج ، لرأينا العجب العجاب ، سماء بغير نهاية ، تتناثر فيها الكواكب ، والشموس ، والنجوم ، والأقمار ، فى نظام عجيب ، لا انحراف فيه ولا طغيان ولا زوغان بل الكل فى ترابط عجيب ، يحكمها قانون واحد ، يوحد الجميع فى ظله . فالكون يبدو وكأنه متعدد المظاهر ، متنوع الاشكال ، ولكنه فى حقيقة أمره ، إجمالى الوجود فى ظل الوحدة القائم فيها وبها ، وقانون حاكم لمكونات الوجود .

وإذا حصرنا النظرة الكلية ، إلى نظرة تعددية ، لوجدنا وحدة وجود فى الاحياء ، ومن قوله سبحانه وتعالى « وجعلنا من الماء كل شيء حي » نجد هناك وحدة تشترك فيها كل الكائنات الحية ، من عالم النبات والحيوان ، فى البر وفى البحار ، وفى أى مكان فى الوجود حينما تظهر الحياة .

ويشترك مع الماء الهواء ، فالنبات والحيوان فى البر وللبحر يحتاج إلى عنصر من عناصر الهواء ، فالإنسان يأخذ من الهواء الاوكسجين ، ويلفظ ثانى أوكسيد الكربون ؛ الذى يستخلصه النبات لنفسه ، فهناك وحدة مشتركة بينهما .

وهكذا الحياة ، بقدر ما فى المجتمع من ثروة ، نجد مجتمع فقير ، وبقدر الجهد الذى يبذله مجتمع ما ، يرتفع المستوى المعيشى بقدر الجهد المبذول ، وبقدر التقاعس والكسل ينحدر المستوى بنفس القانون .

فالحياة تسير فى ظل قوانين طبيعية لاتحيد عنها .

فالإنسان يعيش فى ظل قوانين كثيرة ، وعالم النبات كذلك ، وعلينا أن نتبصر فى الحياة وما فيها وما حولها بعمق ، حتى نستخرج هذه القوانين ونفهمها ونعمل بها ، إذا أردنا أن نتقدم ونتطور ، وهذا ما يفعله العالم الغربى والشرق الاقصى (اليابان والصين وكوريا وغيرها) ، إنهم دائبوا البحث حولهم ، لاتنام عقولهم ، فهم فى كل يوم فى خلق جديد وتطور مستمر ، أما منطقة الشرق الاوسط فللاسف تنام فى أحلام من العسل الاسود ، والخلافات قائمة بينها ، وكلما زادت حدة

الخلافات ، اشتد النقد بين الدول ، والنقد يؤدي إلى الشكلية ، والشكية تؤدي إلى الكراهية ، والكراهية تؤدي إلى الغضب والغضب يؤدي إلى العماء .

أما في أوربا ، فالدول تتعارف فيما بينها ، وتبحث أمور دنياها ، وترتبط بمعاهدات ، وتتآخى في الأسواق ، وفي الانتاج ، وتتخذ أضخم الشركات في فرنسا لتشارك مع شركات بريطانيا ، وألمانيا ، للانتاج المشترك ، وتعقد المؤتمرات العلمية في كل وقت ، وفي كل مكان ، وتتكتل دول أوربا كلما ظهر في الأفق ما يعكر صفوها ، ...

وكذلك ترى الولايات المتحدة في بعض الأزمات ، تمد يدها إلى عدوتها اللدود الاتحاد السوفيتي ، لصالح البشرية أو لصالح شعوبها ؛ وتتآخى اليابان مع الصين ومع كوريا ، فالعالم كله ينمو ويبحث ويتعلم ويجدد نفسه ، دون توقف ، لأن التوقف هو الجمود والجمود هو الموت .

أما دول الشرق الأوسط فمثلهم كقوله تعالى « قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ، قد بينا لكم الآيت إن كنتم تعقلون » « ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله ؛ وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ، قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور » .

« إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط » . « الأعراب أشد كفرا ونفاقا » الخ ...

هذا حال الدول فيما بينها ، أما أحوال الرعايا فأسوأ من ذلك بكثير ، فأغلبهم من الغافلين عن آيات الله ، التي تقول « لا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق » « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن » « وأوفوا الكيل والميزان بالقسط » « وإذا قلتم فاعدلوا » « كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » « زين للناس حب الشهوات من النساء ، والبنين ،

والقناطير المقنطره من الذهب والفضة ، والخيل المسومه ، والانعام ، والحرث، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المئاب » « واعلموا إنما أموالكم وأولادكم فتنة وإن الله عنده أجر عظيم » .

هذه نظرة سريعة متباينة عما يجرى فى هذه الأرض ، فهل تعلمنا من التاريخ ؟ هل تبصرنا فى أمم قد خلت من قبلنا ؟

هل عرفنا ماتهدى إليه الأديان ؟

هل عرفنا ماهى مكارم الأخلاق التى جاءت بها مختلف الأديان ؟!

إننا نتمسك بالقشور ، نبنى المعابد ونبنى الكنائس والجوامع ، ولكننا لانبنى الأنفس ، ولانقيم القلوب ، إن بناء مدرسة يتعلم فيها الصغار المحبة ، ومكارم الأخلاق خير من بناء معبد أو كنيسة أو جامع ، ينام فيه الكسالى والمتعطلون .

إن بناء مستشفى يعالج فيها المرضى والمقعدين ، خير عند الله من بناء دار للعبادة يتعبد فيها جاهل ، أو مريض ، أو ضعيف ، أو متعصب ، أو جائع ، أو مستغل ، أو حاقد ، أو متحايل ، أو متظاهر بالتقوى ....

والعجيب أثناء إذا تشبهنا بالرسل ، فإننا نتشبه بالشكليات فقط . وبما كانوا يلبسون ، أو يأكلون ، أو يطلقون شعورهم أو لحاهم ... ، بالرغم من تطور الحياة فى أزماننا ، وتلك الازمان البعيدة ...

والواجب هو أن نتشبه بالرسل فى مكارم الاخلاق ، وفى الشجاعة وأن نقوم قيامهم فى التعامل ، فما جاءت الاديان الا لتعليم الناس حسن المعاشرة ، وآداب المعاملة والتآخى والحب ، وآداء الواجب ، وخدمة المجتمع ، وإتقان العمل ، وعدم الإضرار بالناس ، والبعد عن الكسب الغير مشروع ، وعدم استغلال الناس ، ومساعدة الفقير والضعيف والمريض ، وحب الجار والاحترام المتبادل بين طبقات الشعب ، وقيام الاشتراكية السليمة ، التى تعطى لكل ذى حق حقه فى الحياة الكريمة ، حتى تعيش

البشرية كلها فى سلام ، كما أراد لها الله أن تعيش فى ظلاله وتحت رحمته، وكما دعى إلى ذلك الرسل ، والمصلحون ، وأهل الباطن وأهل المعرفة وأهل التقوى.

فما جاءت الرسل لتعرفنا عن الله وحسب ، لان الله سبحانه وتعالى غنى عن التعريف . ونظرة تأمل واحدة تشدنا إلى معرفة عظمته وقدرته ...

ولكن الرسل جاءت لتعلمنا كيف نتعامل ونتحاب ، وكيف نسير فى هذه الدنيا بحثا عن الارزاق ، وبحثا عن العلم والمعرفة ، وآداء الواجب ، وخدمة المجتمع ، فالدين هو المعاملة ، والدين هو قانون الحياة فى ظل مكارم الاخلاق وكما قال خاتم الانبياء « جئت لكى أتم مكارم الاخلاق » أما النسك وأشكال العبادات المختلفة فما هى الاوجه من الوجوه ، فالله غنى العباد ؛ ولكن أعمال الإنسان هى اللب ، كقوله تعالى « تلك أعمالكم ترد إليكم » بمعنى أن كل عمل يعمله الإنسان يعود عليه ، أنه قانون الحياة « من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ،ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره إنه قانون « السبب والنتيجة » « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم » «ليس للانسان »إلا ماسعى » .

هذا هو لب الدين ، حتى تسير الحياة وتتطور إلى الكمال ، فالله سبحانه وتعالى هو الكامل ، فكيف نعود إليه ونحن غير كمل ، فما معنى قوله تعالى «وإلى ترجعون » فعلينا أن نتصف بالصفات الحسنى ، حتى يقبلنا الله فى جواره ، وحتى نكون ربانيون ...

ومن كان فى هذه الدنيا أعمى ، فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا !!!

فإذا استيقظ الإنسان ، ورأى الدنيا على حقيقتها أنها لهو ولعب وزينة وتفاخر وأنها موقوته بسنوات معدودات ، وإذا رأى أن الباقيات الصالحات خير وأبقى ، والباقيات الصالحات هى العمل الجاد الخادم المنتج الذى يبقى خالدا لصالح الناس ، كقول الرسول عليه السلام « ينقطع عمل الإنسان إلا من ثلاثة :

١ — صدقة جارية *

٢ — أو علم ينتفع به .

٣ — أو ولد صالح يدعو له .

فالانسان مخلوق فى الحياة ، للجهاد والسعى والعمل والنشاط ، لإرضاء غريزة الخلق والابداع الكامنه فيه ، وليمكن قوة الخالق المبدع من الابداع بواسطته ، فيصنع كل ماهو ممتاز وعظيم ونافع لصالح البشرية ، وكل إنسان مكلف بعمل يعمله فى هذه الدنيا ، وعليه أن يعمله كأحسن مايستطيع بكل مايملك من حذق ومهارة وإجادة ، حتى يتميز أقرانه ومن سبقوه فى الحياة ، لكى يتمم إرادة الخالق فى التطور إلى الأحسن ، ويجب أن يقوم الانسان بعمله وهو مشرح الصدر ، وبذلك يتقدم الانسان روحيا ويتعود على حسن المعاملة ، واحترام الحياة ، فالجسد هو هيكل الروح فى هذه المرحلة من الحياة ، وعليك أن تفهم ذلك حتى تصبح قادر اللوصول إلى الصفاء الروحى ، فاغتنم هذه الفرصة الدنيوية أحسن اغتنام ، وعش فى الحاضر ، واترك الماضى ، فقد مضى ، ولاتأسف عليه ، ولاتخاف المستقبل ، ولكن عش وأعمل وفكر وتدبر ، والمستقبل هو حصيلة عملك اليوم .

نمى إرادتك وقوى عزيمتك ، وكن سيدا فى الحياة ، وأذكر دائما أن السعادة تأتيك من داخلك ، وأن العبوس والتجهم الخارجى يؤثر على الداخل فابتسم للحياة وابتسم للناس ، وابتسم لاسرتك وابتسم لنفسك ، فلا تنسى نصيبك من الدنيا .

لاتحتقر الحياة الدنيا وتعتقدا أنها فانية وأنها حقيرة وأنها متعبة ، ولكن إعرف إن هذه الدنيا هى مزرعة الابدية ؛ ومازرعه فيها تجنيه ، فعلينا واجبات نؤديها ودروسا نتعلمها ، وعلينا مراقبة أنفسنا وحواسنا ولماذا نغضب ، وكيف ننفعل ، ولماذا ننفعل من أتفه الامور ، ولماذا لانعتمد على أنفسنا ، فنكف عن إلقاء كل أحمالنا على الله .

وقد خلقنا الله وأودع فينا عقلا مدبرا ، وأودع فينا من أسراره ، ومن قواه لكي نستخدمها بشجاعة وتعتمد على أنفسنا ، فالله سبحانه وتعالى يحب الاقوياء ، ويحب العاملين ، فاعمل خير ماتستطيع أن تعمله ، حتى تشرق نفسك وتشرق روحك ويضوء عقلك ، ففي نفسك نور العالم ، وأنت قائم بروح الله ونور الله وقوة الله ، فإن لم تستطيع إدراك ذلك فى نفسك ، فمن العبث أن تبحث عن هذه القوى وهذه الانوار فى مكان آخر (فى الهباء) !!

ارجع البصر كرتين ، إلى داخل نفسك ، إلى داخل قلبك ، وانصت إلى صوت الحق فى نفسك ، إلى نور الروح التى فى قرارك ، وكن صاحب عزم وعزيمة ؛ يكن الله معك أينما كنت ، ولاتكن من الغافلين .

والحذر كل الحذر أن ينام الناس متواكلين خائفين ، راضين بالذل والهوان معتقدين أن إرادة الله أن يكونوا إذلاء ، وأن كل شيء سوف يتغير بيد خفية أو قوى خفيـــة ولايستمعون إلى قوله تعالى « لايغير الله مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

فاذا حدث خلل فى المجتمع قال الجهلاء « ربنا يعدلها وينامون فى أحلامهم . وإذ طغى عليهم الحاكم قالوا « ربنا أقوى » « أو ربنا يزيحه » ويظل الحاكم فى طغيانه مدى الحياة ، حتى يصحو البعض ويحرك الجماهير النائمة أو الغافلة ..وهذا هو حال البلاد المتأخرة ، التى ينام فيها الناس فى انتظار ظهور المعجزة ...

والمعجزة هى فى أنفسهم عندما يفهمون الحقيقة ، وعندما يستيقظون من غفلتهم ، وعندما يحاسبون أنفسهم ويحاسبون أولى الامر ، من الموظفين ، ومن المسئولين ، ومن أعضاء مجلس الامة الذين انتخبوهم ليدافعوا عن مصالحهم .:

إن من واجب الصحافة ، وأصحاب القلم ، والفكر ، فى البلاد المتأخرة ، أن يوجهوا الناس ، لرفع المستوى الفكرى ، والمستوى الاخلاقى ، والمعرفة السليمه للدين ، وأن يخلق كل مدرس فى تلاميذه ، قوة الشخصية وقوة الارادة، وإبداء الرأى بشجاعة ، وكثرة القراءة والاطلاع وزيادة المعرفة ، حتى يتحول المجتمع والمتواكل ، إلى مجتمع قادر ، وقوى ، ومبدع ، ومخترع ، ولا يغير الله مابقوم حتى يغيروا بأنفسهم .

الفصل السابع

وجه الله

وجه الله هو تعبير لطيف عن مظاهر الظهور وقدرة الله ، فطبيعة الله سبحانه وتعالى دوام الظهور ودوام التعبير عن قدرته ، لا تختفى أبدا ، فإن قامت قيامة إنسان فهناك بعث لآخر ، ، وإن قامت قيامه الأرض ، واهتزت الجبال وتناثرت كالعهن المنفوش ، فهناك ظهور جديد ، لنجم جديد ، ومجموعة من الكواكب تحيط به على دوام إلى الوقت المعلوم والميقات المحدود ، فكل فناء يظهر معه بعث جديد ، وقيام جديد ، فالقيامة دائمة والبعث دائم ، وكل يوم هو فى شأن ، فالغيب والشهادة ، صفتان فى الواحد ، كما أن الليل والنهار صفتان ، لا يظهر أحدهما إلا باختفاء الآخر .

ومن هنا نعرف قول الرسول عليه الصلاة والسلام « لا تسبوا الدهر ، فإن الدهر هو الله » وكل مايدور فى الدهر ، هو إراده الخالق ، وشأنه سبحانه وتعالى فما يدور على مر الدهر والزمان ، هو النشوء والارتقاء ، هو الحياه منذ النشأة الاولى إلى مالا نهاية فالله هو الأول — بغير أولية — وهو الآخر — بغير آخرية ...

فكلمة الدائم وهى اسم من اسماء الله سبحانه وتعالى ، تعطى معنى الدوام فى الظهور ، والدوام فى التغير ، والدوام فى لارتقاء ، والدوام فى الوجود ، » ماظهرت فى شيء مثل ظهورى فى الانسان .

ففى العقل البشرى يظهر الوجود ، فالدنيا كلها فى عقل الانسان ، فبالبصر نرى

مظاهر الوجود ، وبالسمع نسمع موسيقى الكون ، وباللمس نحس الأشياء ونتعرف عليها ، وبالشم نشم رائحة كل شيء ، وبالذوق نتذوق رحيق كل شيء ، إذا فمن خلال العقل وبواسطة الحواس الخمس نتعرف على الوجود .

وإذا تعمقنا أكثر فى أنفسنا ، لعرفنا أن فيها من يدرك كل هذا ، وبغير هذا الإدراك القائم فينا ، والذى يعتبر أساساً ، ماكان للعقل أن يدرك ، فمن أين له الادراك ؟

وإذا نظرنا كل يوم حولنا ، لرأينا ، هنا وهناك تغير مستمر ، وكلما نظرنا فى المرآة شاهدنا فى أنفسنا تغيرات الزمن ، من الصبا إلى المشيب ، فمن ذا الذى يرى هذا التغير ، من هو المدرك ؟؟

لابد أن يكون هذا المدرك أمر ثابت غير متغير ، أو متحول ، هو الذى يرى التقلب فينا . هو نور البصيرة فينا ، وبغير هذا النور فنحن أشياء معتمة ، لانرى ولانسمع ولاندرك . فالانسان من ناحية جسمانيته ، شيء معتم غير دائم ، بل شيء متحول ، أما الحقيقة الحية فى الانسان فهى ذات صفات ربانية دائمة ، وهذه الحقيقة هى المدركة ، وهى العالمه وهى العارفه ، وهى الواعيه لكل شيء ، هى التى تدرك ولاتدرك ، وهى التى ترى ، ولا ترى هى لغز الألغاز .

هذه الحقيقة ليست ذات قوام ، أو شكل ، أو مادة ، وهى قائمـــه بذاتها ، لاتتحول ، ولاتذوب ، ولاتتغير ، إنها ليست النور ، وإنما هى نور الأنوار ، هى مصدر النور الذى منه يشع النور . وعنه تتضح الأشيـاء ، وتظهر الأكوان ، وتتلألأ الأنوار ، إنه أساس الوجود فى الفاعل والمفعول ، فى المادة المنظورة وفى العقل والفكر ، أنه أحدى الذات ، وجامع الصفات ، ومن الخطأ أن نصفه بأى وصف كقولنا أنه عقل الوجود ، أو وحدة الوجود أو مادة الوجود ، أو روح الوجود ، فكل ما فى البشرية من لغات لايمكنها وصفه الوصف الواضح ، وحتى كلمة « الله بالرغم من أنها كلمة هامة وكلمة Cod — وكلمة «أوم »

بالهندية وغيرها من الكلمات ، التى تعبر عن هذا المعنى ، فى جميع اللغات ، لا تعطى الانطباق الصحيح ، والوصف المشبع للعقل البشرى ، فهى طلسم أمنى غير واضح ، وإن كانت أقرب الكلمات لاعطاء فكرة أن الله سبحانه وتعالى وراء كل الأشياء وهو القادر الذى يدعم كل شىء ويظهر كل شىء فى الكون ، وبالرغم من هذه الأقوال التى تقرب الوصف إلى العقل ، إلا أن الله سبحانه وتعالى لا يقارن بالكون ، ولا المادة ولا هو العقل ، ولا هو النفس ، ولا هو الهواء ولا الأثير ولا الماء ولا السماء ولا .. ولا .. !!

فهو ليس شىء من هذا ، وهو ليس مجموع كل هذا .. وكلما تعمق الانسان فى البحث أدرك خطأه ، وعرف أنه مازال يتخبط فى الجهل ، فيحرر عقله من المنظور ؛ ويحرر عقله من شامل المدركات ، وكلما توغل فى فهم الدين ، عرف أن الدين ، تنظيم للحياة ، وطريق للمعاملة والتعامل ، ونشر مكارم الأخلاق ، وخلق بشرية فاضلة ، وإنسانية مهذبة ، وسمى واضح ، وإجاده وإتقان للعمل ، وتطوير دائم فى طريق الكمال . وكل الأديان ، تحض على ذلك ، تحض على العمل الصالح بمعناه العام ، وليس بمعناه الخاص الذى يفهمه البعض بأنه العباده فقط ، فالله غنى عن العباد ، فكم من مصلى هو بعيد عن الله ، لا يعرف ما هى حقيقة الصلاة ، وكل مايناله منها هو قيامه وقعوده ، وهذا شىء بعيد كل البعد عن الحقيقة ، فإطعام جائع من الانسان أو الحيوان خير من صلاة من هذا النوع ، وزراعة شجرة تعطى ظلا أو تثمر ثمرة خير من هذه الصلاة ، وأداء خدمة لانسان محتاج ، أو إتقان العمل وإتقان الصناعة ، خير عند الله ، وعدم استغلال الناس فى البيع والشراء ، خير عند الله ، ونظافة المجتمع والطريق ، خير عند الله ، وإصلاح إنسان فاسد أو طماع خير لك من الدنيا ومافيها .

إن الأديان تعطى قبضة من المعرفة ، أو وميض من نور المعرفة ، وماخفى كان أعظم ، فالرسول عليه الصلاة والسلام قال « أعطيت من العلوم ثلاثا ، علم أخاطب

به الناس على قدر عقولهم ، وعلم خيرت فيه (للخاصة وللصحابة) وعلم احتفظ به لنفسى »

فمفهوم الدين عند عامة الناس ، غير مفهوم الدين عند العارف .

فمفهوم العامة ، مفهوم سطحى وغامض ، بدليل وجود التعصب الدينى والانحراف والتطرف ، فالجاهل يعتقد أن دينه هو أحسن الأديان وأن باقى الناس كفره وأنهم سيدخلون النار ، هذا بالرغم مما يراه فى أعمال الغير من فعل الخير ، ومساعدة المريض ، والكشف عن ألوان من العلاج ، وألوان من المخترعات المفيدة للبشرية واتقان العمل فى كل مايسند إليهم ، ونظافة بلادهم ، وحسن تصرفاتهم ، وحميد خصالهم ، وصدقهم ، وأدبهم الجم ، واحترامهم لكل الأديان ، وسرعة اغاثة الشعوب المنكوبه ، الى غير ذلك من جليل الأعمال .

أما المتعصب فى الدين فهو رجل أعمى ، لايرى أبعد من أنفه ، وكل معرفته عن اللاهوت ظن وتصور ، أو تقليد أعمى للسلف ، دون تفكير وتميز . وقدرأى للرسول عليه السلام هذا التعصب ، فأمر المسلمين بالترفق بذوى الكتاب ، وأمر بالتزاوج معهم ، وعقد معهم الأحلاف ، ومن جنح للصلح فعلينا مصالحته .

فالتعصب الدينى يجلب المتاعب بين الناس ، والشقاق بين أهل البلد الواحد ، والتعصب الدينى يؤدى الى الانحراف فى العقيدة ، والتخاصم مع العقائد الأخرى ، وقد يكون كلا من الطرفين على الخطأ فى المفهوم الدينى ...

وكثيرا ماقامت المنازعات الطائفية والحروب الدينية ؛ نتيجة لهذا التعصب والغباء ، فتنقلب الحقائق الى أكاذيب ، وتنحرف المفاهيم من الصدق الى الزور والمراءاة وينقلب الحب ، وهو اسمى مرامى الدين ، الى حقد وغل وكراهية والتعصب ينزع الحنان من القلوب ويزرع مكانها شهوة الغضب والكراهية .

وهذا المفهوم الخاطئ فى الدين ، هو الذى يوجد التفرقة بين الأديان ،

والتشعب والانقسام ، فى الوقت الذى ينادى فيه القرآن الكريم، وغيره من الكتب المقدسة ، بأن الدين لله ، وفى الأرض المحبة بين البشر ، ويقـــول سبحانه وتعالى « ولوشاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ويقول القرآن الكريم « لا إكراه فى الدين » ، « والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لانفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا واطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير »والخطاب هنا للمؤمنين وليس للمسلمين فقط الذين هم على دين الإسلام المحمدى ، ولكنه قصد بالمؤمنين ، عامة المؤمنين ، الذين من العارفين فى كل دين ، ولذلك جمع فى قوله تعالى « كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله » .

أفبعد هذا الخطاب شك فى مقصود الله وإرادته العليا ، لكى يؤاخى بين الناس مهما اختلفت أديانهم فى قشورها ، حيث أن لب الدين له مفهوم أعمق وأشمل وأكمـــل .

فالمسلم المؤمن ، والمسيحى المؤمن ، واليهودى المؤمن ، والبوذى المؤمن، والمؤمن بالفطرة ، وغيرهم من العارفين بالحق واليقين ، تجدهم من أهل السماحة ، ومن أهل المحبه فى الله ودنيا الله ، وخلق الله ، ويؤمنون بكل الكتب وكل الرسل منذ النشأة الأولى ، والرسالة الأولى ، منذ عرف الناس الرسل ، ومنذ جاءت الكتب، لأخلاق بينهم ، لأن الرسالات واحدة ، من المصدر الواحد ، ولاتجب رسالة رسالة أخرى ، ولوشاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، منذ النشأة الأولى .

أما تتابع الرسالات ، فما هو الا إنتعاش وتجديد وتذكرة للناس ، وتصحيح ماأفسده الدهر وطغى عليه النسيان ، حتى يزول عن القلوب ماران عليها من صدأ ووحشة ، وبعد عن روح الله ، الموحدة للكل ، والجامعة للكل ، والمحيطة بالكل فيخلد إليها الجميع ، وتسكن قلوبهم ، سكنا له ، وتقر أعينهم ، فى عين اليقين ، فى صراط مستقيم ، صراط الذين آمنوا وعملوا الصالحات ..

فالأديان جاءت بالمحبة ، وإنعاش الأنفس الحائرة بالرجوع إلى ظل الله، فلا يؤمن

أحدكم حتى يحب لأخيـــه مايحب لنفسه ، والأديان تحض على المشاركة ، وعلى الاشتراكية الحقيقة ، وليست الاشتراكية الزائفة أو إشتراكيه الشعارات التى تملا الصحف ، وتملا القطاعات ولا حقيقة لها فى الباطن والفعل والعمل .

والأديان تعرفنا أن الحياة موقوته ، وأنها غير دائمة ، وأن التكالب عليها ، والطمع فيها يورثنا القلق والخوف والفزع .

أما الإيمان الحقيقى ، فى عين اليقين ، وحق اليقين ، يحررنا من أطماع الدنيا، ويعرفنا أننا أرواح مطهرة محررة من القلق والفزع والرهبة من المستقبل،أوالجمود فى الماضى ، لكى لانأسوا علي مافاتنا ولانفرح بما آتانا ، ونعيش فى الواقع ، فى يومنا ، فى ساعتنا ، وإن الدين لواقع ، واقع الحياة ، فلنا الساعة التى نحن فيها ، نجعل منها ساعة أنس مع الله ، وأنس مع الجمال ، وأنس مع الحياة ، نخلق فيها سعادتنا ، مهما كان شظف العيش ومهما كانت قسوة الحياة ، والعاقل من يخلق جنته والجنة فى عقل المؤمن والنار فى عقل الغير ، أو الغيرية .

إن الناس تفزع إذا حملت بالمسئولية الكلية ، فإذا قلت لغير العارف ، إنك روح مسئول عن جسدك ، وأنك راع لأسرتك وكل راع مسئول عن رعيته،وأنك راع لكل صغيرة وكبيرة فى حياتك ، وأنك المسئول الأول عن تصرفاتك ؛ فإن أحسنت التصرف فالعاقبة لك ، وأنت المسئول عن سوء أحوال بلدك ، بتخاذلك وتقاعصك وهروبك من المسئوليه ومن الحياة ، وبسلبيتك أمام طغيان الحكام وسوء تصرفهم ، وأهدارهم لكرامتك وآدميتك ، وسلبيتك أمام التاجر المستغل ، والمالك المستغل ، واللص والمرتشى ، والمخالف للقانون ، وأن وقوفك كمتفرج سلبى سوف تعاقب عليه ، لأن الله سبحانه وتعالى أمرك بالكفاح وآمرك بالعمل والسعى ، وإتقان عملك ، (إن الله يحب إذا عمل إحدكم عملا أن يتقنه) وأنك إذا رأيت منكراً فعليك تقويعه بالسيف فإن لم تتمكن فبالوعظ والكلام ، أو بالشكوى إلى أولى الأمر ، أو القضاء ، أو تكوين جماعات فى كل حى للاصلاح والحد من الفساد ، فإن فشلت كل الوسائل الإيجابيه وهى لاتدخل تحت حصر ، فعليك نفسك

واستخدم قلبك بقوة وإيمان ، فذرة من أعمال القلوب إذا تجمعت بصدق ، كفيله بتغير الأمور .

أما الذين يقفون فى سلبية تامة ، وليس لهم الا إلقاء المسئولية والحمل على الغيب وفى مفهومهم أن الله سوف يقوم بالعمل نيابه عنهم ، فهم الغافلون حقا ، والذين يجهلون الحقيقة ، فالله لايغيرما بقوم حتى يغيروا مابهم ، ولوعلموا أن الله لايغير إلا بهم ، ولايعمل إلا من خلالهم ، لتغير حال الدنيا ، ولسارت الأمور فى طريقها السليم ، ولزال القلق والخوف من الرؤوس ، وانتعشت الشعوب ، بعدنضج أفرادها ونمو المفاهيم .

إن الركون الخاطىء على الدين ، أو التواكل الخاطىء على القوى الغيبية ، أو إلقاء الحمل على الحاكم وتحميله كل المسئولية ، يورث الشعوب الجمود ، والتوقف والهزال ، وفقدان الشخصية ، ومحو الشعبية ، وانحلال المبادىء والأخلاقيات ، والحقد على كل ناجح ومجتهد ، ويورث التعصب الدينى ، والانقسام فى قوى الشعوب ، وبذلك تتلاشى الحضارات التى عاشتها تلك الشعوب فى وقت اكتمالها الروحى ، ونضوجها العقلى ، وتكاتفها وتوائمها كقلب واحد ينبض بالحياة ...

إن معرفتنا لقيام الأعلافينا ، يضفى علينا الأصالة ، ويجوهر ذواتنا ، وينير قلوبنا ويجعلنا فخورين بتلك الذرة السامية ، القائمة فينا ، من أنوار الله العظيمة ، فنحترم آدميتنا ، ونرتفع بها عن مستوى البهائم والأنعام والأحجار ، « مالكم كلمانوديتم إلى السماء تثاقلتم إلى الأرض » ؟؟

ومن عرف أن فى أعماقه ومضة من النور الإلاهى ، وذرة من القدرة العظمى كان قادرا على العطاء إلى أقصى حدود العالم ، دون انتظار لفائدة أو عطاء مقابل بل يعمل من منطلق الصالح العام ، والخير العام للبشرية ، على مر الزمن .

وفى هذه النظرة الصادقة ، نظرة اليقين ، يرى العارف أنه يد الله ولسانه، وأنه يد القدرة الفاعلة ، دون إشراك ، ودون إثنينية ، إنه فى دائرة لا إله إلا الله ، فقد

أصبح ربانيا ، وموحدا ، وتحرر من كنزية الجسد ، وذاب فى الإطلاق ، ونهل من علمه ، ونهل من قوته ، ومن فضله .

ورأى العالم المادى فى حقيقته الفانيه . ومن يصل إلى هذا القرار المكين يتسل من نهر الغيرية ، ويغمره اليقين الجهيد فى الأحدية بسلام شامل ودائم .

ونشبه هذه الحالة ، بتمثال الملح الذى نغمره فى المحيط ليشبر عمقه ، فيذوب فى الأعماق ، أو بجلمود الجليد الذى تدفعه التيارات من القطب إلى البحر الدافى، حيث يتلاشى الجليد ، ويذوب الماء فى الماء لافرق بين وبين . .

إن لكل فرد فى الوجود ميراثه من السماء ، فليبحث كل فرد فى أعماقه ليستخرج كنزه وميراثه ، فالمطاء الإلاهى واحد للجميع ، لافرق بين عربى وأعجمى ، لافرق بين مسيحى ويهودى ، الكل ينهل من فضله ، فمن شاء العزة فليعمل ، ومن شاء الهوان نام فى الوغام ، مهما كان دينه . ولينظر كل منا نبا حوله ونتأمل قوانين الحياة ...

وليسمع كل منا إلى قوله تعالى « أنا عند حسن ظن عبدى بى، فكيفما تكونوا أكون ... » فليفهم الراقدون ، والمتخاذلون ، والكسالى ، والمتواكلون ، أنه لن يغير الله مابهم حتى يغيروا أحوالهم ، ويكونوا عبادا عاملين صالحين كادحين لتحسين أحوالهم المعيشة ، وتحسين أخلاقهم ، وتحسين بلادهم ، ومراقبة شئونهم بأنفسهم وبما أودع الله فيهم من عقول تفكر ، وقلوب تدبر ، بما أودع الله فيها من أسراره ، ولكل إنسان مطلق الحرية دون قيد أو شرط ، أن يعمل مايريد ، فى حدود القوانين الإلاهية .

أما قول الجهلاء « إجرى جرى الوحوش غير رزقك ماتحوش » فهو قول معوق البشر ، لأن الله سبحانه وتعالى غامر العطاء ، فياض واسع الفيض ، غير بخيل حتى يكدى العطاء ، وكنوزه ونعمه لاتحصى ولاتعد ، فلينهل كل إنسان من فضله وعطاياه . وعلى قدر العمل يكون الجزاء ...

وعندما يتفتح وعى الإنسان لله ، نراه يغوص بكلية فى الوجود الخارجى ، ويرى عظمه الخالق فى الكون ، ويتقلب وجهه فى السماء ، لعله يهتدى إلى شىء يهديه أو بصيص من النور ، وبعد أن يتعب العقل ويكل ، ويحار الإنسان فى الكون الواسع ، يعود إلى نفسه يتأملها ، ويعود إلى أعماقه ، كما فعلت الانبياء والاتقياء وأهل التصوف ؛ فانقلب البصر إلى خاسرا وهو حسير » « من عرف نفسه فقد عرف ربه » « من حقق ذاته ، تحقق وعيه » أنهم أهل الباطن ، وأهل المعرفه ، ذوى الأنوار ، والذين سألوا الله من أنواره « اللهم اجعل أما فى نورا وخلقى ونورا وعن يمين نورا وعن يسارى نورا وفوقى نورا وتحق نورا وفى قلبى نورا واجعل لى نورا » . .

فأنار الله قلوبهم وبصائرهم ، فأصبحوا ينظرون بنور الله ، وأفاض الله عليهم من المعرفة والحكمة .

وعندما يبلغ الانسان هذه المرتبة من المعرفة ، يعرف أن الذى ظل يبحث عنه طويلا فى كل عرض السماوات والأرض ، قائم فى كيانه أيضاً ومستقر فى قراره .

ففى نفسك نور العالم ، النور الواحد الذى يلقى الضوء على الطريق ، ومن لم يجد هذا النور فى نفسه فمن العبث أن يبحث عنه فى مكان آخر غريب عن نفسه .

ففى أعماق الانسان شعله من النور العظيم ، نور الحقيقة العظمى التى نفسك جزء منها ، فابحث وتأمل فى نفسك ، وأطلب ما فى الداخل ، فإن الروح هى الحقيقة الوحيدة الموجودة فى كل حى ، فى قرارك ، هى أنت — وأنت الحقيقى — وليس الجسم فلماذا تتعب العل فى البحث عما لن يأتيك من الخارج كن أولا تكون ، كن روحك ، كن ذاتك الحقيقة ، واستمع إلى الصوت الذى ينبعث من قرارة نفسك ، أعد البصر كرتين إلى أعماقك ، حيث النور الذى تأتى منه بقبس ، وتجد فيه الهدى .

فإذا رأيت نور الروح ، انبهر العقل الروحى ، وفاضت مشاعر السامية ، ونبعث

الالهامات ؛ وأضاء نجمك ، ورأيت أن الوجود الظاهر ظل للحقيقة ، ظل زائل ، وعالم فان ، عالم من الصور المتحركة ، وأنت الحقيقة الحية التى تبصر وتسمع وتعرف ، وسترى نفسك فى نهاية المطاف وقد رجعت إلى حصنك ؛ حصن لا إله إلا الله دائم الوجود ، وتبلور هذه الحقيقة شخصيتك ، ومهما تعاملت مع الناس، أو دخلت فى معمعه الحياه .

فأنت فى وحدانية الصمد لاتتأثر بعوامل الحياة ، ولايؤثر فيك أسبابها ، وخضع لك الوقت والقضاء ، وأصبحت ممن يتطبق عليهم القول « رجال لاتلهيهم تجارة أو بيع عن ذكر الله » لأنك ترى كل شىء على حقيقته، فأنت فى حالة يقظة دائمة ، وهى حالة الموحد ...

أما الرجل التركازى ، أو الأنى ، الذى يرى نفسه منفصلا عن المجموع الكلي ويرى نفسه شيء منفصل وقائم بذاته الجسدية بعيد عن الله ، بمعنى أنه موجود بذاته فهو مشرك مع الله ، وبعيد عنه ...

أما الرجل المستنير ، الذى بعث بالحق ، فيرى نفسه فى وحدة مع الكل ، ومع الله ، لأنه مات عن نفسه ، وبعث بعثا جديدا ، هو إنسان ربانى ، إنسان الله وعين معناه ، الذى عرف أن كل الموجودات تحيا وتتحرك وتتواجد بالجوهر الشامل المحيط بالوجود والقائم بالوجود .

والإنسان الذى يصل إلى هذا المقام ، هو الذى لايعرف الشقاء والحزن والخوف لأنه حى فى صفاء ، وسلام ، وانسجام ، وحب ، مع الوجود الإلاهى ، وهو مع الناس سواسية كأسنان المشط الواحد ، وبالرغم من أنه فى أول طريقه إلى الله يكون منطويا وعاكفا ، ويمر بمرحلة تجريدية ، لايرى فيها غير الله وحده مجردا ، ولاشىء معه ، ثم يعود إلى ديناميكية الحياة فيرى ، أنه لا فصل بين الله والحياة ، فيرى الحياة ككل وكوحدة واحدة ونفس واحدة ، ويرى أنه مركز حى من مراكز القدرة قلبا وقالبا ، فيعمل جاهدا ليطور الحياة إلى مافيه خير البشرية ، فقد عرف أنه استمرار

من الأزل إلى الأبد ، لاقطع بين الماضى والحاضر والمستقبل ، فالحياة استمرارية ، من البدائية حيث النشأه الأولى ، واستمرارية فى تطورها الدائم إلى الأكمل ، عالم واحد ونفس واحدة ، لاانفصل فيها بين جنس ، أو نوع ونوع ، أودين ودين ، أو إنسان وإنسان ، إنما هى الحياة ونحن نبضاتها ، فقد ذابت أنانية العارف ، وقتل نفسه وكبرياؤها ، وقامت فيه قيامة جديدة ، قيامة نورانيه ، قيامه الحقيقة ، وذابت النفس الأمارة الطماعة وتلاشت ، وظهرت نفس شفافة قوية واعية عارفه بالله وعرفت أن الله قوة وقدرة ، وعمل ، وجهد ، وجهاد ، ولا سلبية فيه ولاشلل ، ولازهد وتقاعص وخمول ، فهو القدرة الخلاقة فى الكيان البشرى ، وهو السر المكنون فى عالم النبات ، وغيره من عوالم الوجود .

لقد اعتكف كل الأنبياء والمرسلين ، سنوات طويلة ، يتأملون الحياة ، حتى استنارت عقولهم وانبهرت قلوبهم بالأنوار القدسية ، وتمكنوا من تصفية نوازعهم ورغباتهم ، وشهواتهم المختلفة ، وأصبحوا ربانين ، ثم خرجوا من صوامعهم ، ومن دثارهم ، وقاموا فى الناس معلمين ومنذرين وهادين ومشرعين .

وعرفوا أنه لاسلبية فى الحياة ، ولاهروب ، ولاخمول ، وأنه ليس للانسان الا ماسعى ، وأن الله لا يقدر عباده بمقدار صلواتهم ، ونسكهم ، ولكن بمقدار ماأعطوه من خدمة للبشرية ، والله غنى عن العباد ، وغير محتاج لصلواتهم ونسكهم ، فهى لن تزيده عظمة عن عظمته ، وإنما العبد هو الذى يستفيد من الصلاة ، لأنها تقربه من الله ، وتنير قلبه ، وتغمره بالسلام ، والطمأنينه ، والسكن ...

والله دائم العطاء للانسان والحيوان والنبات ولكل أنواع المخلوقات ماظهر منها وماخفى ، وهو يعطى العابد والمصلى ، كما يعطى العاصى ، أوالجاهل ، أوغير المتعبد ، لأنه المسئول الأول والأخير عن خلقه ، ولكن الفرق بين العبد المتعبد ، والعبد غير المتعبد ، هو عمق المعرفة عن الله ، وعمق المعرفة عن النفس البشرية ، وعلاقة كل منهما بالآخر ، علاقه الروح بالنفس ، وعلاقة النفس بالجسد ، فإذا

عرف الانسان مصدر الأحاسيس، ودوافع الغرائز. وعرف أنها تخص الجسد، ثم عرف متطلبات النفس وأطماعها التي ليس لها نهاية، ورأى ذلك في نفسه، ورأى أنه يرى ذلك من مركز الروح، أمكنه أن يكبح جماح الجسد، وأمكنه أن يحدد متطلبات النفس، وأمكنه من خلال هذا الأمن أن يعرف نفسه، فالعقل الهادىء الساكن يصبح كالمرآة أو كصفحة البحيرة الهادئة. ينعكس على سطحها نجوم السماء والسكون الذي يملوها.

وهذا هو المكسب الذي يكسبه العابد (البصيرة)، أو معرفة الحقيقية، كلية الوجود، كلية الحياة، كلية النور، كلية الروح، الروح «ونفخت فيه من روحي» «كن فيكون»، فسبحان الله المهيمن على الحياه، في كل أبعاد الزمن، ومن الأبد إلى الأزل ... فسبحان من له الدوام ...

الباب السادس

الإنسان .. والحياة

الفصل الأول

الإنسان والحياه

ما هي الحياة ؟

هل عرفنا حقا ما هي الحياة .... !!

هل الحياة التي نعيشها في تطاحن وقتال ، هي الحياة ؟!!

هل الحياة هي أن تتوجه كل يوم إلى عملك ثم تعود منه ؟

هل الحياة هي التكالب على الماديات ، والرغبة في الثراء ، وتملك القصور ؟

هل هي إشباع الغرائز الدنيا السفلى ؟

هل هي في دوام التعبد للخالق أو الزهو في الدنيا ، أو الاعتكاف في صومعة أو مسجد أو معبد ؟

هل الحياة هي المعنى المضاد لكلمة الموت ؟

وهناك القول المأثور « أطلب الموت توهب الحياة !!

وفي قوله تعالى « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ، ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون !!

إذا فالحياة في معناها الظاهر ، هو مايراه عامة الناس من تلاطم أمواج البشر ، وتلاحمهم ، في سبيل الحصول على شيء ما ، فكل من في الوجود يطلب صيدا ، ولكن اختلفت الشباك ، واختلف الصيد ...

أما حقيقة الحياة ، فهي شيء أجمل من هذا ...

« وإذ قال ربك للملائكة ، إنى جاعل فى الأرض خليفة » قالوا « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » .

« ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » قال إنى أعلم ما لا تعلمون » « وعلم آدم الأسماء كلها .... الخ » (الآيات ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ من سورة البقرة) .

وقوله تعالى « وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من صلصال من حمإ مسنون ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين » .سورة الحجر ثم يستمر الحوار الممتع فى الآيات حتى تأتى الآية (٣٩) فى قول إبليس « ربى بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين ثم يقول الله قوله الحق « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ، وإن جهنم لموعدهم أجمعين .... » الخ .

ثم يقول « إن المتقين فى جنات وعيون ، ادخلوها بسلام آمنين ، ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين ، لا يمسهم فيها نصب ، وما هم منها بمخرجين ... إذا فالحياة ليست هذا التلاطم والتكالب ، والخداع ، كما أنها ليست فقط التعبد والتسبيح ، فقد رأينا فى الآيات السابقة من سورة البقرة ، أن الملائكة تساءلت ، كيف تجعل الك خليفة ، يفسد فى الأرض ويسفك الدماء؟ كما قالت ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك !!!

إذا الحياة ليست هذا الفساد الشائع فى أرض الله ، بل هذا هو الموت بعينه ، كما أن الحياة ليست تسبيحات يلوكها اللسان ، بغير فهم أو وعى .

فإذا أردت أن تكون إنسان حى تسجد له الملائكة فعليك أن تعمل لتكون خليفة لله فى أرضه ، ولكى تكون خليفة ، عليك أن تعود نفسك لقيام روح الله فيك ، أن تصاصل طينك وتحرقه فيتحول من طين إلى فخار ، إلى زجاج شفاف ،

تنيره الروح . فتذوق الحريق أولا ثم الإنصهار ، حتى تتخلص من الشوائب ، فتصبح جوهرا نظيفا .

ولكى تصبح جوهرا نظيفا ، يجب أن تتعلم الحياة ، حتى ينطبق عليك قوله تعالى « وعلم آدم الأسماء كلها » فإذا قامت فيك المعرفة وأصبحت حكيما، واستنار عقلك ، ثم غمر القلب ذلك النور العظيم ، وأصبح لك نورا تمشى به فى الناس ، وقهرت إبليس اللعين ، الذى يجرى فى دمك ، ويرقص من حولك ، لاغوائك فى شتى صور الإغواء والتزين ، وحتى يمينك الله ، فتقتل هذا الإبليس الغاوى ، لتصبح عبدا خالصا لله ، أو مخلصا لله ، وينطبق عليك قوله تعالى » « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » فتخرج من عنق الزجاجة ، وتتحرر من الغواية المهلكة والمؤدية إلى جهنم الدنيا والآخرة ، فالدنيا فى أشكالها السفلية ، متاع الغرور ؛ وفى تطاحنها نار ، وقودها الناس والحجارة ....

ولكى يصل الإنسان إلى كمال إنسانيته ، ويحقق آدميته ، يجب عليه أن يعمل بقوله تعالى « ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين...

فمن هم المتقين؟

هم الذين ليس فى صدورهم غل لأحد من الناس ، بل فى قلوبهم محبة خالصة ورحمة ، يحبون ويتحابون ، يألفون ويؤلفون ، غيرمفسدين ، بل هم من المصلحين لا يغضبون ولا يحزنون ، والذين يوفون بالعهد ، ولا يكتموا الحق وهم يعلمون والذين يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، والصابرين فى الضراء ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات ، والذين أحسنوا إلى والديهم ، وإلى ذوى قرباهم ، وإلى اليتامى والمساكين ، بالقول الحسن وبالمال ، وبالخدمات فى شتى أنواعها .

والذين أقاموا الصلاة صلة بين العباد ورب العباد ، وأقاموا الذكاة بالمال وبالجهد وبالعلم .

والذين لا يخرجون الناس من بيوتهم أو من ديارهم وقراهم .

والذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ، والذين آتوا المال على حبه ، ذوى القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل ، والسائلين ، ومن فى رقابهم ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس .

والذين آتوا البيوت من أبوابها ولا يزنون ، والذين يقاتلون فى سبيل الله وفى سبيل نصرة الحق ، والذين إذا عملوا عملا أحسنوه ، وإذا تولوا الإشراف على الأعمال أشرفوا مخلصين .

وأن لا يكون الإنسان من الذين يعجبك قولهم فى الحياة الدنيا ، ويشهد الله أن قلوبهم مليئة بالحقد والخصام ، وإذا تولوا على الناس أفسدوا فى الأرض وأهلكوا الحرث والنسل . فلا تكن من أصحاب الفساد ، الذين تأخذهم العزة بالإثم ، ويبدلون نعمة الله ، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان .

والذين ينفقون مما رزقهم الله ، وقد قال عنهم « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ، كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ، فى كل سنبله مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم » .

والذين يقولون الحق ولا يشهدون الزور ، فقول معروف ومغفرة ، خير من صدقه يتبعها أذى .

والذين ينفقون من طيبات مكاسبهم ، ومما تخرجه الأرض من فومها وعدسها وغلالها ، فى خفاء تام ودون إعلان ، حتى لاتعلم اليد اليسرى ما أنفقته اليد اليمنى .

والذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فى مشروعات نافعة للناس كبناء المستشفيات ، والمدارس ، والعيادات المجانية ، والخدمات المختلفة ، والصناعات التى يحتاجها الناس ، والمشروعات الزراعية ، وصناعات الدواء والكساء ، وغير ذلك مما يحتاجه الناس .

والذين اتقوا ، هم الصابرين ، والصادقين ، والقانتين ، والمنفقين، والمستغفرين بالأسحار ، وأولو العلم ، الذين لا يكتمون علومهم فى صدورهم ، بل ينشرون علومهم النافعة للناس ، ولتقدم البشرية ...

والذين يتحابون فى الله ، ويحبون الرسل ، والاتقياء والصالحين والمرشدين ، والداعين إلى الله ، والمسبحين بالعشى والإبكار ، والذاكرين لأنعم الله عليهم .

والذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويسارعون فى الخيرات ...

والمتقين هم الذين ينفقون فى السراء والضراء ، والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ، ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ولم يصروا على ما فعلوا .

والشاكرين شكر الشكر ، والفرحين بما آتاهم الله من فضله، والمستبشرين...

والمتقين ، هم الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ، ربنا ماخلقت هـــذا باطلا ، سبحانك ، فقنا عذاب النار .

والذين إذا سمعوا منادياً للايمان سارعوا إلى الإيمان . والمتقين ، هم الذين عرفوا أن الله خلقهم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيراً ونساء ، فعرفوا أن البشرية كلها أخوة واحدة ونفس واحدة ، ورحم واحد.

والذين آتوا اليتامى أموالهم دون أن يأكلوها أو يضيعوها إلى أموالهم .

والذين لا يطلقون النساء إلا إذا آتين بفاحشة مبينه ، والذين يعاشرون النساء بالمعروف وبالكلمة الطيبة والمعاملة الحسنى ، وإذا كرهوا النساء ، تذكروا قوله تعالى « فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » والذين لا يسافحون النساء ، ويخشون الله ....

والمتقين ، هم الذين عبدوا الله دون أن يشركوا به شيئا ، وبالوالدين إحسانا ، وبذى القربى واليتامى والمساكين ، والجار ذى القربى ، والجار الجنب ، والصاحب بالجنب ، وابن السبيل ...

والذين لا يختالون فى سيرهم ، ويتماجبون ، ويتعالون على الناس ، ويتفاخرون ويتكبرون .

والمجاهدين بأموالهم وأنفسهم ، والمهاجرين فى سبيل الله ، وفى سبيل العلم ، يجدون فى الأرض مراغما كثيرا وخيرا وفيرا وسعة فى العيش .

والذين يصلحون ما أفسد الناس .

والذين آمنوا بالله ورسله جميعا ولم يفرقوا بين أحد منهم .

والذين لا يقتلون النفس إلا بالنفس أو فساد فى الأرض ...

هذه كلها ، بعض صفات المتقين ، وهذه الصفات إذا كملت فى إنسان فهو الحى فى الحقيقة ، فكم من البشر من الأموات وكم منهم من الأحياء ؟ وعليك أيها القارىء أن تراقب نفسك لتعرف هل أنت حقيقة حى ، أم أنك تعيش ؟ وهناك فرق كبير بين أن يكون الإنسان حيا ، وأن يكون عائشا ، فى سمت البشر ولكنه فى طور من الحيوانية ، ما زال فى بهيمة الإنعام يرتع ...

وبالرغم من أن المتقين بلغوا مبلغ الكمال ، فكما لهم نسبى ، إلى غيرهم من ذوى الأرواح المطهرة ، ومع هذا التطهر والكمال والصفاء ، تجدهم من العاملين بل هم أشد الناس عملا فى الحياة ، لأنهم عرفوا حقيقة الحياة وحقيقة أنفسهم ، وأنهم عباد عاملين وكاد حين ، ومنهم رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله .

والمقصود بأنهم رجال لا تلهيهم تجارة أو بيع عن ذكر الله ، أنهم يرعون الله فى كل معاملاتهم ، ويعلمون معية الله مع البائع ، والمباع ، والمشترى ، ثالث ثلاثة ، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم وهو فى الغار مع الصديق ، لا تخف إن الله معنا

وهكذا هى صفة المتقين ، لا يغيب الله عن أعينهم ، فهو دائم الحضور ، معهم، وهم دائما فى حضرته ، فإذا كانت هذه صفة التجار ، فهل يكون هناك استغلال أو غش أو خداع ، أو سرقة فى الميزان والكيل ، أو مخالفة للتسعيرة ، أو مضاعفة للأسعار ؟؟؟ (فى ظل وجود الرقيب الدائم) .

إن بلوغ هذه المرحلة فى حياة المتقين تجعل لهم شفافية خاصة ، واستنارة قلبية ومعرفة أكيدة عن الحياة . يعرفون أنهم طاقات جبارة ، ومراكز قدرة ، وعمل وإنتاج ، وفكر ، وأن ما بلغوه من نقاء وصفاء ، لا يبطل أو يعطل العمل الدنيوى بل هم أعمدة الحياة وأسنان العجلة التى تدير الحياة ، وأن مراد الخالق من الخلق ، أن يكونوا خلفاء له فى أرضه ، يقيمون الحياة فى شتى مظاهر الحياة الخلاقة ، بالحق ، وباليقين ، وبالصدق ، وبالجهد وبالعرق ، فهم يد الله ولسانه وسمعه وبصره ، ويعلمون أن مراد الخالق سبحانه وتعالى ، أن تزدهر الحياة فى مملكته ، ويستمر النشوء والإرتقاء ، مع ازدهار كل ما هو نافع للبشر ، من صناعة وزراعة ، وتجارة ، وإقتصاد ، وعلوم دينية ، ودنيوية ، وبحث وتنقيب عن كنوز الأرض ، واستغلال ما فى الأرض جميعا ، وما حول الأرض من طاقات نافعة لتقدم البشرية ، إلى الأحسن فالأحسن ، حتى يتم نور الله ومنشوده .

فالحياة وإن كانت موقوته فوق الأرض ، إلا أنها حياة مستمرة من النفس الواحدة ، وبشرية واحدة ، لا قطع فيها ولا فصل استمرارية الحياة فى شتى معانيها ومجالاتها وليس هناك ماضى أو مستقبل ، بل هو الحاضر دائما ، فالماضى كان فى زمانه حاضرا ، والحاضر سنراه فى المستقبل ماضيا ، فاستمرارية الحياة ، هو حاضرها ، « وإن الدين لواقع » ، ولا فرار من الواقع ، بكل معانيه .

وديناميكية الحياه ، هو التعبير الظاهر للحقيقه الخلاقه ، وهو أساس الوجود وجوهره . فهو الطاقة الفاعلة أو القدرة العاملة فى الوجود ، والمحركة لكل شيء ، ويسميها البعض العقل الكونى ، والبعض الآخر يسميها الفكر الخلاق ، أو الإرادة

الغيبية ، أو القوة الكونية ، القوة المحركة ، ويسميها رجال الدين إرادة الله.

وهذه القدرة ، وإن ظهرت محدودة فى بعض الأشياء أو الكائنات ، إلا أنها فى الحقيقة بغير حدود ، ولا يمكن مقارنتها بما فى الأشياء من قدرة ظاهرة فقدرات المخلوقات جزء من قدرة الله ونمط من أنماطه ، يعطيه بقدر ، ومن مجموع هذه القوى تنشأ قوة عظمى بغير حدود ، إذا اتحدت أحدثت تغيرات ضخمة فى البشرية أما إذا فصلناها وكنزناها واعتبرناها قوتنا الفردية ، فهى على الفور تفقد مجالاتها الكبرى ، وصفاتها التى بغير حدود .

غير أن هذه القوى العظمى ، تعطى لذوى العقيدة اليقينية من المتقين ، وأهل الصفوة ، الذين ماتوا عن إنيتهم وأصبحوا حزب الله المخلصين ، وتوحدوا ، وأصبحوا ربانيين يقولون للشىء كن فيكون ، ولهم عند الله ما يشاءون .... ومنهم الرسل والأنبياء والأتقياء ، الذين وضعوا بصماتهم القوية ، لإرساء أسس الدين.. والاجتماع .

ومنهم من أرسى العلوم الدنيوية ، وغير المفاهيم التى رسخت فى عقول البشر من قديم الأزمان الجاهلية .

ومنهم الفلاسفة ، الذين زرعوا علوم المنطق والفكر ، كسقراط وأفلاطون ، وشكسبير ، وهيجل وسارتر ، والعقاد ، وتوفيق الحكيم ، ورفاعه الطهطاوى وغيرهم من أصحاب الفكر الخلاق ، قديما وحديثا .

ومنهم من حرر أمته من الجهل والعبودية والاستعمار ، أمثال غاندى ونهرو ، وجورج واشنطون ، ودى فاليرا ، وسيمون دى بوليفار محرر دول أمريكا اللاتينية...

ومنهم من أنار البشرية بنور الكهرباء ، أمثال اديسون الذى اخترع عشرات الآلات لخدمة البشرية عامة ، وجراهام بل ، ومدام كورى ، والأخوان رايت ،

وغيرهم ممن كان لهم الأولوية والقدح المعلى فى خدمة الإنسان والبشرية .

ومنهم من ساعد فى القضاء على أمراض الحيوان .

ومنهم من طور شئون الزراعة، وأوجد للبشرية أنواعا جديدة محسنه ، وأفاد البشرية بزيادة الإنتاج الزراعى والصناعى .

ومنهم من أرسل مركبات الفضاء تجوب الكون ، للحصول على معلومات تفيد البشرية .

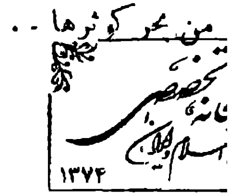
ومنهم من فكر فى عالم الموسيقى ، وكتب روائع الأنغام ، التى تشد السامع ، المنصت ، إلى عالم من البهجة ، يذوب فيها كيانه ، ويغيب عن إنيته ، ويحلق فى صفاء اللانهائية ، أمثال موتسارت ، وهايدل ، وشيكوسكى ، وبيتهوفن وباخ وفيفالدى وفرانسيس نولنج وغيرهم من أئمة الموسيقى العالمية .

كل هؤلاء العظماء ، اكتسبوا عظمتهم ، بذوبان أنانيتهم أو إنيتهم ، ودخلوا الباب سجدا ، باب الحقيقة ، كل دخل من باب ، ولكل باب مفتاح ، فأصبحو مفاتيح أبواب الحقيقة ، دخلو فى سلام ، ونهلوا من كنوز المعرفة ، ثم أعطوا البشرية ما نهلوه ، فكانوا أنابيب التوصيل ، ومسالك الله إلى البشرية ، وكانوا حقائق نورانيه ، تحققو من الحقيقة بالحقيقة ، إلى ظاهر الوجود ، وكانوا فى ظاهرهم أعلام ، وفى باطنهم أنوار ونجوم ...

وبالرغم من أن كلا منهم كان ماردا فى تخصصه ، وعارفا وفطحلا ، إلا أنهم كانوا فى شدة التواضع ، ودماثة الخلق ، والوداعة ، ناكرين أنفسهم ، خافين حقائقهم الجليلة ، غير متعالين على عامة الناس ، من الجهلاء ، وموتى القلوب ، وكما قيل العلماء ورثة الأنبياء ...

كل هؤلاء فمن ذكرنا وممن لم نذكر ، ومن فى حكمهم ، وسطاء لله ، ذوى بصيرة وتفتح ، اسلموا أنفسهم للقدرة ، وتجردوا من عالم المادة ، ودخلوا عالم

الحقيقة ، فاحتوتهم الحقيقة ، وجعلت منهم نمطا منها ، وكنزا من كنوزها ، وينبوعا من بحر كوثرها ..



المـــادة

هل عرفنا حقائق المادة التى نراها حولنا فى الوجود ؟

يقول العلمانيون ، أن المادة مكونة من ذرات ومن كذا وكذا ... فهم لا يعرفون إلا طرق البحث ، والتحليل ، والتركيب والتصنيف .

ويقول آخرون أن المادة أصلها من الأثير ، وآخرون يقولون أنها من الكهارب ....

وعامة الناس ترى المادة فى شكلها الظاهر أمامهم فالجبل مرتفع ضخم ، والحديد معدن فيه بأس ، والذهب معدن نفيس تهواه الناس ، والماس حجر كريم تخفق له قلوب النساء ، والشجر زرع ونبات ، تعددت ألوانه ، وتلونت ازهاره وتشابكت أغصانه ، وتنوعت ثماره واينعت .... وعالم الحيوان ، لحم وعظام ، والإنسان حيوان ناطق ويمتاز بعقل مفكر ...

والكون أرض وسماء ، وكواكب ونجوم تتلألأ ، وهواء يطوف بنا ، ويهب من هنا وهناك ...

وكل هذا الهيلمان نسميه العالم الظاهر !! فهل تبصر أحدنا فى هذا العالم الظاهر أمامنا ؟

هل فكر أحدنا ، ونحن نملك ، ما نسميه عقلا ، واستخدم عقله فى التفكير ؟

ما هى حقيقة هذا الوجود الواسع ، الذى لا يسبر غوره ولا يعرف مداه ، ولا أول له ولا آخر ، كيف يستمر فى ظهوره ، كيف يختلف الليل والنهار ،

كيف تظهر أنواره وكيف تختفي، والذي يجعله متوازنا، لا يختل له دوران ولا ينحرف نجم عن مجراه الخ ...؟

شيء عجيب حقا !! بل شيء عظيم بالغ العظمة !! هل هو حقيقة ؟هل هو خيال؟ هل هو دائم ؟

كل هذا يدور في خلد الإنسان، ولا يعرف كامل الإجابه !!

فإذا قلنا أنه خيال، فأين الحقيقة ؟ وإذا قلنا أنه الحقيقة بعينها، فأهل المعرفة قالوا ليس هو الحقيقة، فليس لحقيقة الله مثل، فهو منزه عن الأشكال وليس كمثله شيء فالأشياء كلها شيء غير الله .

وفي مجموعه الكامل هو التعبير عن الحقيقة، اللانهائية، في جوهرها .

وفي تصورنا الشامل لديناميكية الكون، يتأكد لنا، وجود حقيقة واحدة جامعة له ومنظمة .

وهناك نظريات وآراء مختلفة في أمر الكون الظاهر .

فالبراهمة الهنود، يرون الكون والحياة « نوع من الأحلام »، ويراه أصحاب فكرة التجريد، « أنه لا وجود له، وأن الله هو وحده الموجود ولا شيء معه » .

ويراه طائفة من الهنود، « أنه لا حقيقة له وأنه خداع ووهم » .

ويراه الزاهد »، أنه شيء زائل، ويراه آخرون « عالم من الأشباح » .ويراه أصحاب المذهب الطبيعي، أنه عالم مادي صرف أوجدته الطبيعة بالصدفه .أو بشكل ما ... ويراه العلمانيون « أنه مرحلة من مراحل التطور الوجودي » . ويراه الإسلام، من وجهة النظر السطحية، لهو ولعب وزينة، وفي العمق يراه الإسلام : مدرسة العلم والبحث، ومجال للتفكر والتأمل، والنمو الفكري، ومرحلة من مراحل الإختبار والامتحان، وضبط النفس، ومرحلة من مراحل السلوك، ونمط

من أنماط التعامل بين الناس ، والتهذيب النفسي ، والعمل بمكارم الأخلاق ، التي شرحها القرآن الكريم في العديد من آياته الكريمة ، والعديد من أحاديث النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، والذي كان هو فيها مضرب الأمثال ، والقدوة الحسنة..

والحقيقة أنه إذا ارتفعنا في نظرتنا للوجود ، وتأملناه لوجدناه : لا هو بالحلم كما هي الأحلام في منامنا ، ولا هو بالوهم والخداع ، كما نعرف الوهم والخداع ، كما أننا لا نراه تجربة ذهنية ، أو رحلة فكرية ولا يجب أن تتصوره شبح لاحقيقة فيه ، وإلا ضاع طعم الحياة ، وتقاعس الناس ، وذبل المجتمع ، كما تذبل الزهرة اليانعة إذا حرمناها ماء الحياة ....

وعلى ذلك ، يجب أن نرى في ظهور الكون ، وفي إقامة الحيـــاة ضرورة ، لا يمكن الاستغناء عنها . فالحياة نمط من أنماط ظهور قدرة الحقيقة للتعبير عن نفسها إذ لولا المادة والحياة ، ما عرفنا قدرة الله الدافعة ولولا قيام الحقيقة المبصرة فينـا ، لما رأينا متغيرات الحياة ، ودوام سريانها ، ولولا وجود الدائم فينا ، لما رأينا تغيرات الأحداث ، وآثارها في أنفسنا وفي الحياة كما أن الحياة ، مليئة بأحداث ، في تحدى مستمر للبشر ، ليعرف الله المجاهدين من عباده والمتقاعسين ....

وقد أمسك الإسلام بمنتصف العصا ، كما يقولون ، فنصف العصا للدنيا ، ونصف العصا للاخرة .

— وخير ما نفعل أن نعمل بالقول السديد « إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، وأعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » أو « لا تنس نصيبك من الدنيا »

وقد منحنا الله مطلق الحرية ، لكي نسعد في الحياة ونعمل معا . فالحياة إذا تبدو في تطور مستمر (من البدائية ، ومن الخلية ، إلى شيء آخر دون توقف ، سلسلة من التتابع التطوري الدائم ، فالحياة اليوم غيرها بالأمس البعيد ، وغيرها بالأمس القريب ، والقول المأثور « كل يوم هو في شأن » ، دوام في الظهور لكثير نراه ، وكثير لا نراه ، في صور مختلفة منها ما هو ذو أهمية ، ومنها ما نراه تافها ،

أو مالا نعيره إلتفاتنا ، ولكننا على توالى الزمن نرى كل يوم جديد ، ونكتشف كل يوم جديد . ونعرف كل يوم معرفة جديدة ، سواء كانت فى حياتنا الأرضية أو ظهور فى الأكوان التى تحيط بنا ، وكل تلك المظاهر الجديدة،هى بالنسبة لنا أشياء لم نرها من قبل ، أو لم نكتشفها من قبل ، ولكنها بالنسبة لنا حقائق جديدة .

والآن بعد أن فحصنا آراء الفلاسفة ، وآراء الدين ، فماذا يضيرنا ، إذا نظرنا لهذا الكون الواسع العجيب ، كحقيقة واقعة ووجود كبير يعبر عن قدرة الخالق ، أو نظرنا إليه كوجود ذهنى ، أو قائم فى الفكر ، أو أنه الغيب والحقيقة فى نفس الوقت ، أو أنه الطبيعة !!!

إن الأفكار والآراء ، لن تغير من جوهر الحقيقة ، وسوف نعيش لنتعلم ، وسوف نتعلم لنعيش ....

ولا نهاية للمعرفة ولا نهاية الحياة ، ولا نهاية لما لا نهاية له من العلم والمعرفة .

وحتى أصحاب المذهب الغيبي ، يرون أن الغيب يحتوي الوجود ويطويه طى السجل للكتاب ، ويخلق ما لا تعـــلمون ، وأن الغيب هو الدوام ، وهو ما وراء المادة ، وأنه لا مقارنة بين المادة وبين الدائم الوجود ، وأن الدائم له قدرات لا حدود لها ، ولا نهاية لقدرته على الإيجاد ، وكل الوجود المادى والفكرى ، فى أى شكل من أشكال الوجود ، يعبر عن هذه القدرة الخلاقة ....

وهل انقص رأى أصحاب المذهب الطبيعى ، شىء من هذه الحقيقة ، يقولون أن الحياة ظهور طبيعى لطبيعة خلاقة ، تبدع وتصور ، أو طاقة طبيعية خلاقة ، أو إشعاعات كونيه خلاقه ، أو أى تعبير مما يعبر به أصحاب هذا المذهب .. فما هو موضع الخلاف ؟

فالدين قطع المجادلة ، ودخل فى العمق ، وقال عن هذه القدرة الخلاقة هى « الله » عز وجل ، أما أصحاب المذاهب اللادينيه أو الطبيعية ، فيعترفون باسماء وصفات

وقوى وقدرات ، هى فى الحقيقة لا تخرج عن صفـــات الخالق ، باعتبارها كلها مسميات فى صفة الخالق وقدرته .

وسواء أعترف الناس بأن هناك خالقاً ، أو أن هناك طبيعة خلاقة ، فلن يضير الله شيء من هذا ، ومن جهل اليوم فسيعرف غدا ، وأن غدا لناظره قريب .

والذى يضار فى هذا النقاش هم الناس ، والعالم يحتاج إلى الأخلاقيات ، والدين يعلم مكارم الأخلاق والتهذيب .

ويرد الفلاسفة فيقولون أنه ممكن تهذيب الناس بوسائل أخرى غير الدين ، كالعلم والتعليم والتربية والنصيحة ، والقانون الوضعى ، والإرهاب ، إلى غير ذلك من الوسائل ، ومن لا يخاف الله فسوف يفسق ويسرق ويغش ويفعل كل الموبقات ، بالرغم من أنه على دين ، وإن لم يردعه وازع نفسى ، أو خوف من الناس والقانون فلن يرتدع مهما كان على دين من الأديان ، ومهما عرف عن جهنم .

وهذه حقيقة من الحقائق ، أن التهذيب ومكارم الأخلاق ، هى طبائع فى الناس وتربية منذ الصغر ، فكثير من ذوى الدين فاسقون ، وقليل منهم الصالحون ، وقد نجد بين الشعوب من هم ليسوا على دين من الأديان المعترف بها فى عرف البعض ، ومع ذلك فمعظمهم على خلق قويم ، وعلى حسن معاملة مع البشر ، وصدق وإخلاص فى العمل .

وكثيراً ما نرى فى الشعوب المتـــدينة ، وخاصة فى الدول النامية ، إن الناس تتمسك بقشور من الشعائر والشكليات ، وهم غافلون عن حقيقة الدين ، ومقصوده من الحياة والناس .

وقد رأينا فى أوربا فى هذا العصر ، ظهور طبقة من الشباب ، غريبوا الأطوار ، غريبوا المظهر ، وهم شباب الهيبز ، أرسلو شعورهم ولحاهم ، وارتدوا أنواعا غريبة من الملابس ، واعتنقوا أنواع مختلفة من الفلسفات ، وظهرت فى أمريكا

جماعة القس (جيم جونس) والتي انتهت مأساتها بانتحار المئات من السيدات والرجال والأطفال ، إنتحاراً جماعياً .

وظهر في العالم العربي ، وفي مصر ، اتجاهات دينية غريبة ، نتيجة تضليل بعض المنحرفين الشباب ، و نتهت بقتل بعض الشخصيات ، والقبض على زمرة المنحرفين في العقيدة والدين .

وإذا سألت شاباً ممن أطلق لحاهم ، أو سيدة من المحجبات ، لأجابوا بأنهم يتشبهون بالرسول، وبنسات الرسول ... !!

أن نتشبه بالرسل وبنسات الرسل ، شيء جميل حقاً ولكننا نتشبه بالشكليات فقط ، دون التحقق بالأخلاقيات .

إنما إذا أردنا أن نتشبه بالرسل ، وبالصحابة ، فيجب أن نتشبه بهم في صميم أخلاقياتهم وأفعالهم ، وكمالهم وأعمالهم ، وتصرفاتهم، وخدماتهم الجليلة لمجتمعاتهم وغزير علمهم ، ووقارهم ، وتسامحهم ، وحلمهم ، ودفاعهم عن الحق . أما أن نلبس ملابسهم التي مضى على زمانها آلاف السنين أو نعيش في حجرات من الطين ، أو نطلق شعورنا ولحانا ، فليس هذا في صميم الدين .

فيجب علينا أن نسير في ركب التطور ، من حيث الظاهر ، وأن نتمسك بالشعائر والأخلاقيات من حيث الباطن .

أما كون الرسول كان يتبول على كناسة قوم ، أو يتبرز في العراء ، أو ينظف نفسه بقطعة من الحجر أو قطعتين . فهذا زمان مضى، وليس لنا أن نترك المرحاض ونخرج إلى الشارع لإزالة الضرورة ، أو نترك الماء المتوفر لدينا ،لنستعمل قطعة من الحجر .. الخ.

يجب أن نفكر بتفكير العصر ، وتحت ظروف العصر الحاضر ، فالماضي قد مضى وولى بمظاهره ، وشكلياته ، يجب أن ننير عقولنا ومفاهيمنا ، وأن نحاسب

أنفسنا قبل أن يحاسبنا الله ، وأن نتشبه بالصديقين والمؤمنين ، وأن نقوم فى السماحه والحلم ، والوقار ، وأن نبذل العطاء لأولادنا وأمتنا ، وأن نبذل النفس فى سبيل الحق ، وأن نتقن أعمالنا ونجتهد حتى يتطور المجتمع إلى ما فيه خيرنا ، وأن يكون ديننا وديننا هو الحب ، فلا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، أن نتحاب كنفس واحدة ، مهما اختلفت أدياننا وشعائرنا وأجناسنا وألواننا .

ولا يجب أن يقلد بعضنا البعض فى التافه من أمور دنيانا ، ولا يجب أن نسير فى الركب كالقطيع ، فقد قال الرسول عليه السلام « لا يكون أحدكم إمعة يسير فى ركب السائرين من حيث اتفق » ، لابد أن يكون لكل منا شخصية ، قائمة بذاتها ، وأن يكون لكل منا قوته وشجاعته الأدبية ، فيدلى برأيه ولو خالف رأى السلطان وعلى الحاكم أن يقبل التحدى والمناقشة ، حتى تستقيم الأمور وكانا يعرف ، الذى حاج عمر بن الخطاب ، بقوله لو رأينا فيك أعوجاجا لقومناك بالسيف ، فأجابه الخليفة ، « الحمد لله الذى أوجد فى أمة محمد من يقوم السلطان » وهكذا ...

الفصل الثاني

الغيب والشهادة

يرى المذهب الغيبي ، أن الوجود الظاهر بكل مايحتويه من مظاهر ، وأفعال وطاقات ، ماهو إلا نفس واحدة متكاملة ، كل خلية فيها تشكل ذرة من ذرات الوجود ، وكل هذا الظاهر محاط بالقدرة الخالقة ، فالله من ورائهم محيط وهو بكل شيء محيط ، وبكل شيء عليم ، والله ليس كمثله شيء ، وكل مظهر من مظاهر الوجود ، يتغير ويتحول ، أما الله وهو الحق ، فهو أمر ثابت لاتبديل فيه ولاتغير كما أنه لايجب مقارنه هذه المظاهر مهما كانت أوصافها بالله ، فلا تطابق بين الحقيقة وبين الأشياء .

كما أن هذا العالم الذي نشهده ، بما احتواه من جلال وديناميكية ، لايدخل تحت حصر ، فهو واسع بغير حدود ، ولايسبر غوره ، ولايعرف عمقه ، وفيه من القوى الجبارة مالا يمكن حصرة ، أو تحديده .

كما أن كل مانشاهده من أنواع المواد ، وما نعرفه من الحياة والحيويات ، وماندركه من عقل وفكر ، كلها تعبير عن الجوهر اللانهائي القدرة .

فالوجود الظاهر ، هو الوجه الحركي الديناميكي ، الذي نرى فيه وجه الله القادر على كل شيء ، والفعال لما يريد ، فالناظر والمنظور ، والماضي والحاضر والمستقبل كل في المحتوى الإلاهي ، وماخرج شيء من المحتوى ، وماتحرك شيء قيد أنملة إلا من فضله ، والعالم الظاهر هو المعمل ، أو المختبر ، أو هو الجهاز التنفيذي الواسع للارادة العليا .

وسواء كانت هذه الإرادة العليا هى الحقيقة الغيبية ، كما يعرفها أهل الأديان ، أو كانت الطبيعة ، كما يدعيها أصحاب النظرية الطبيعية ، فالأمر غير جدير بالجدل ، لأنه لن يغير شىء من الواقع أو الحادث فيما هو حولنا .

فجميع الكائنات التى يراها حولنا ، سواء كان منها الثابت أو المتحرك ، اليابس والفض ، اللين ، والسائل ، والغاز ، الأبيض والأحمر ، كلها ذرات كونيه تتجمع لتكون جزء ، والجزء يكون أجزاء ، والأجزاء تكون وحدة ، والوحدة تكون صنف أو مادة .

تتحد ذرات الأوكسجين مع الهيدروجين فيظهر الماء .

ويتحد الكربون والهيدروجين والأوكسجين والنتروجين ، لإنتاج البروتوبلازم فى صفاته الحيوية ، ويتحد مع خلايا الجسم وكيمائياته ، وقواه المختلفة ، فيكون صفات الإنسان العاقل .

تتباعد الذرات فينشأ الفراغ والأثير ، تتضاغط الذرات فينشأ نوع من المواد ، وكلما اختلف عدد الذرات فى الشىء اختلف نوع المادة .

وهكذا الإنسان كوحدة وجود ، عندما يلتقى العقل الواعى والعقل الباطن فى انسجام وتعقل ، تذوب الانفعالات الحادة ، والأفكار الهدامة ، والعواطف المثيرة وتتناغم وتترنم الأحاسيس ، فتذوب كل الصفات ، وتتبلور فى وحدة متكاملة متسقه منسجمة ، تكون فرديـــة الانسان وتميز شخصيته ، فيولد من جديد ، فى العمق الوجودى لذاتيته .

وإذا نظرنا إلى الولايات المتحدة ، وإلى البرازيل ، والأرجنتين ، وغيرها من دول العالم الجديد ، لوجدنا مثلا عجيبا ضربه الخالق للبشرية ، فقد اجتمع فى كل من هذه الدول أفراد مختلفين فى دياناتهم ومشاعرهم وأحناسهم وأوصافهم وألوانهم وعاداتهم ، فلما تناغموا واندمجوا ، وتسامحوا وتحابوا ، تنشأ منهم إتحاد عام وقاموا

كرجل واحد له شرعيته ضد المستعمر ، واستقلت كل دولة بذاتيتها بالرغم من تعدد الصفات والألوان ، وحققوا قوله تعالى ، وخلقنا كم شعوبا وقبائل لتعارفوا وتتحابوا .

أفبعد هذا يظل الأفارقه ، أو العرب ، كل فى واديهم ، متنافرين متشاركسين متباغضين ، ليذوقوا العذاب المهين . . . ؟؟

وإذا نظروا إلى تاريخهم المجيد ، لعرفوا أنهم ما سادوا العالم ، إلا فى ظل الاتحاد والقوة والحب .

وهذه هى دول أوروبا تتحد فى السوق الأوربية ، لتحافظ على ترابطها واقتصادياتها .

أنها الارادة العليا ، تهدف إلى التجمع والاستمرار والبقاء والنمو والتكامل ، فمن قاوم هذه الارادة ، لفظته وأعدمته .

فالحياة أمر واقع ، وتدفق واستمرار ، وهى ليست حلما كما زعم البعض ، وهى ليست دوام كما يراها البعض من وجهة نظرهم الفردية ، فالأفراد موقوتة الحياة ، ولكن الحياة ككل لها استمراريتها ودوامها فى كنف الحقيقة ذات الدوام والاستمرار إلى مالانهاية . . .

ولا يمكن للعقل المحدود التفكير ، أن يرى كل الحقيقة ، فالحقيقة أو الغيب أو الله أكبر من أن تعرف ، وليس لنا إلا الواقع الذى نعيش فيه ، وعلينا أن نتأوله وأن نعرفه وأن نعيشه بكل مافيه من أمانى ، وبكل مافيه من غيب وشهادة ، وبكل مافيه من عمل وجهد ، وبكل مافيه من آلام وأحلامه ، وشقاوة وسعادة ، وهذه هى طبيعة الحياة ككل ، صعود وهبوط ، وعسر ويسر . .

فالله كغيب ، وحقيقة ، وظاهر وباطن ، كل يوم هو فى شأن .

والعالم الذى نراه ونعيش فيه ، هو الشق الديناميكى من الحقيقة ، الشق الحركى

الدائم الظهور ، الدائم التطور ، كما يشتمل على كل ما يجد من حوادث أو ، ما يجد من ظواهر ، ويخلق ما لا تعلمون .. !!

فكل هذه الأنماط من الحياة ، ومن المظاهر ، هي تعبير عن الغيب ، وكشف عن قدراته وصفاته التي بغير حدود وهي في نفس الوقت تعبير عن الزمن .

هذا التدفق والاستمرار في الظهور ، لا يجب أن نراه حلما ، أو شبحا لا حقيقة له حتى لا نفقد بهجة الحياة ، فالزمن والحياة تيار متدفق متصل الحلقات ، له جذور أصيلة من الماضي السحيق ، وحاضر نعيشه ، ومستقبل نأمله ، وهو متداخل الأبعاد والحلقات ، فالحاضر خلاصة وحصيلة للماضي ، والمستقبل غيب أو أحلام ، وآمال ، والواجب أن يعيش الانسان حاضره ، لأنه إذا تمسك بالماضي وأقام فيه ، أو استغرق في أفكاره ، فقد هرب من واقع الحياة ، كمن أدمن المخدر أو الخمر ليهرب من الواقع فنشر الحياة نبش ، الماضي ، كما أن العيش في آمال المستقبل ، وأحلامه ، هو أيضا مخدر شرير ، فهو نوع من أحلام اليقظة ، وهروبا من الواقع بألوانه المختلفة وأحداثه المتباينة . ومع هذا فقليل من الخيال ينعش النفس ، وقليل من الخيال يدفع الناس إلى الابتكار والابداع فالتخيل والتطلع إلى عالم أفضل مرغوب ، ولكن الهروب من الواقع والعيش الدائم في الأحلام أمر مرفوض ، لأنه نوع من المخدر الفتاك ، الذي يفقد الانسان قوة العزيمة للتغلب على مشاكل الحياة ، ويفقد الانسان روح المغامرة ، وفضيلة الصمود . فيجب أن نحذر الماضي والمستقبل ، فنأخذ العبرة من الماضي ، ونعد العدة للمستقبل مسترشدين بأخطاء السلف . أو أخطائنا القريبة ونخطط لمستقبل أفضل ، ولا نترك الأمور تسير على هواها . فالزمن غدار ، وقد أعذر من أنذر .

ويجب أن لا نقف مكتوفي اليد ، إذا فاتتنا الفرص ، ولم نحقق ما كنا نأمل ، فالحياة سخية دائما ، تعطي بغير حدود ، والعزيمة هي سلاحنا البتار ، والمهم أن نتقدم بقوة وجسارة دون وجل أو خوف ، فالخطوة الأولى هي نهاية الطريق ،

والمرتقى إلى القمة يبدأ من السفح ، وما علينا إلا البدء ، أما نهاية الطريق فلن نراه إلا إذا جددنا السير .

إن معرفة الانسان عن المادة — الأشياء — غير كاملة ، ومعرفتنا عن الحياة غير واضحة ، ومعرفتنا عن المستقبل غير مرئية ، ومعرفتنا عن ماضى البشرية غير كاملة ، وماعلينا إلا أن نحيا حاضرنا ، بكل ماتحتويه من ألوان الحياة .

ولكن كيف لنا أن نحيا حاضرنا ، ونحن لانعرف أنفسنا ؟؟

هل نحن تلك الأجساد فقط دون شيء آخر .؟

هل نحن نفس وعقل مع هذا الجسد؟

أم نحن مركب من المادة والروح !!

إذا كنا من المادة وحدها ، فنحن كالأصنام الرابضة ، التى هدمها سيدنا إبراهيم فى قديم الأزل ، كانت ولا حياة فيها ، كأعجاز النخل الخاوية ، جلمود من الصخر .

وإذا كنا أرواح فقط ، فنحن أشباح لاظهور لها فى عالم الأرض المادى ، ولا إنتاج لها ، ولا وجود .

ولكن إذا تأملنا أنفسنا كبشر له تاريخ قديم ، وقائم حديث ، وتطور مستمر فنحن إذا نجمع بين المادة وبين الروح . والروح هى الأمر الحى المتطور فينا ، هى الأمانة التى نحملها بين جوانحنا من فضل الله وعطائه ، وبغير هذه الروح فنحن من الأصنام ...

وفى هذه الروح سجل مسطور فيه كل صغيرة وكبيرة منذ النشأة الأولى للحياة .

الفصل الثالث

مظاهر الاحدية

قال الله فى كتابه الكريم « الذين يتفكرون فى خلق السماوات والأرض .. »

إن الأساس فى المعرفة السليمة ، هو التفكير ، والتفكير يحتاج إلى الدقة فى الفحص ، والبحث الجيد يحتاج إلى التركيز .

فمن منا دقق النظر ، وفكر بعمق فيما حوله من آيات بينات ؟

إن المشاهد بعمق وفحص دقيق لآيات الله ، يخر راكعا ساجدا لعظمة الله وقدرته (مصداقا لقوله تعالى « لو انزلنا هذا القرآن على جبل ، لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله » .

فإذا كان كتاب الله ، يسمى بالقرآن ، لما جمعه من آيات بينات فكذلك الكون هو قرآن لما جمعه من آيات بينات لمن يقرأ ويتفكر فى آياته .

ولكن أغلب الناس فى لهو ولعب ، وعماء عن عظمة الخالق فلهم عيون ولكن لا يبصرون ، ولهم آذان ولكن لا يسمعون !! .

إن الله سبحانه وتعالى ، يعلن عن أحديته ، إعلانا صارخا ، فى شتى مظاهر الوجود ....

أنظر حولك فى مملكة النبات ، وتأمل ، ما فيها من مظاهر وأشكال وألوان وأصناف مختلفة ، إنك لن تجد فيها تكرارا أبدا .

أنظر إلى أشجار الورود ، تجد فيها الأحمر والأبيض والأصفر ، لكل نوع فرديته وطابعة ورونقه ، ورقته ، وأريجه ...

إذا تعمقت أكثر لوجدت فى نفس النوع لكل شيء فرديته ، فمثلا فى الورد الأحمر ، تجد فى الشجرة الواحدة ، لكل وردة شكلها المميز ، ولن تجد وردتين لهما نفس الشكل والرونق والرقة والرائحة ، أنظر إلى زهور البانسية بألوانها الزاهية الجميلة ، لكل زهرة طابعها وألوانها الجميلة ، تنم عن عظمة الله وقدرته ، وحاول أن تكتشف زهرتان لهما نفس الحجم والألوان ، سوف ترى التشابه ولكن لكل زهرة فرديتها وأحديتها !!

أذهب إلى الغاب وقد تشابكت الأشجار وتكاثرت ، وحاول أن تكتشف شجرتان توأمان ، فقد تتشابه الأشجار ولو كانت من نفس الفصيلة فى الشكل العام ، ولكن لكل شجرة شكل خاص تنفرد به ، ومن العبث أن تجد التكرار ، وحتى فى الشجرة الواحدة ، لن تجد تكرار فى أفرعها يطابق بعضه البعض ، بل أكثر من ذلك سوف تجد لكل ورقه فرديتها وشكلها الخاص ، انظر إلى حديقة من البرتقال ، تجد التشابه فى الشكل العام ، ولكن لكل شجرة فرديتها وصفاتها ، وقد تتشابه الثمار فى نفس الشجرة ولكن إذا فحصت ودققت سوف تجد لكل ثمرة شكلها وطابعها وحجمها وطعمها ، وكذلك أشجار سائر الفواكه ، لكل منهما فرديته وذاتيته ، أنظر إلى عنقود من العنب ، ودقق النظر فلن تجد التطابق ، فلكل ثمرة من العنب طعمها وشكلها وحجمها ، والشكل يصرخ فى وجهك معبراً عن الأحدية !!

انظر فى مملكة الحيوان ، أنواع وأشكال من المخلوقات لاحصر لها ، منهـــا مايعيش فى باطن الأرض ، ومايعيش على سطحها ، ومايمرح فى سمائها ، ومايسبح فى بحارها ، فى كل منها آيات ، وآيات لمن يتبصر !!!

إنظر إلى الأسماك ، فصائل لاعددلها ، نطلق عليها مجازا كلمة (سمك) ،

ولكن إذا تبصرنا لوجدنا أن لكل فصيلة صفات ، بل لكل نوع صفات، بل لكل سمكة صفات ، أنظر إلى الكلاب حولك ، نقول هذا كلب كنيش ، ولكن لكل كلب من الكانيش » فرديته وذاتيته ...

أنظر إلى الأبقار ، لقد تشابهت الأبقار ، كما تشابهت على بنى إسرائيل، ولكن لكل بقرة صفاتها وحجمها وشكلها الخاص وفرديتها ، وفى قوله تعالى فى سورة البقرة « وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ... » « قالوا أدع لنا ربك يبين لنا ماهى ، قال إنه يقول إنها بقرة لافارض ولا بكر عوان بين ذلك .. » « قالوا أدع لنا ربك يبين لنا مالونها .. » « قالوا أدع لنا ربك يبين لنا ماهى ، إن البقر تشابه علينا .. »

قال إنه يقول أنها بقرة لاذلول تثير الأرض ولاتسقى الحرث ، مسلمة لاشية فيها ، قالوا الآن جئت بالحق ... »

فهذه الآيات تبصرنا بأنه بالرغم من التشابه فى المخلوقات ، إلا أن لكل شىء فرديته وذاتيته ، التى تعبر عن الوحدانية فى كل المظاهر .

أنظر إلى الإنسان كبشر فيه الأبيض والأسمر والأصفر والأسود ، ولكن هل عثرنا فى يوم من الأيام على رجلين متشابهان من الأسود أو الأبيض أو الأصفر قد يتساوى رجلين فى الطول ولكنهما يختلفان فى الوجه ، وقد يتساوى طفلين فى السن ولكنهما يختلفان فى التكوين والشكل ، قد تتشابه أمرأتان فى الشكل ولكنهما يختلفان فى صفات كثيرة ، وحتى إذا تأملنا التوائم ، مهما تقاربت الصفات والاشكال فلابد من وجود الفوارق ، فكل شخص ينفرد بذاته ، وهذه هى بصمات الملايين من البشر ، لم نعثر على بصمة أصبع متطابقة فى هذا العالم ، فكل إنسان منا يعبر عن أحديته التى هى مظهر وجوده ، فكل شىء فى الوجود يمثل الأحدية فى ظاهرها ، والله من ورائهم محيط بأحديته !!!!

وإذا تجاوزنا الشكليات ، فإننا نجد لكل مخلوق صوت يميزه عن الآخر ، فصوت الإنسان غيره عن صوت الحيوانات ، غيره عن صوت الطيور ، وحتى فى الإنسان نجد لكل واحد صوته المميز ، وعقله المميز له . وهكذا نجد لكل مخلوق نغم يتنغم به ، وصوت يترنم به ، فما أعجب قدرة الخالق العظيم ؟؟

وإذا تأملنا فى السماء لوجدنا نفس النظام ، لكل نجم حجمه وضوؤه ، وإشعاعه ولكل كوكب صفاته وتكويناته ، فلكل منها فرديته ووحدانيته ، ولكل مجموعة شمسية صفاتها ومخلوقاتها التى تتناسب وتتعايش معها ، وإن عجز علمنا عن معرفة أنواع وصفات هذه المخلوقات ، الا أن إيماننا بقدرة الخالق ، فى قوله « ويخلق مالاتعلمون » نعتقد بل نؤمن بأن الكون معمور بأنواع وأشكال من الحيـــاة لاحصر لها ، مصداقا لقوله تعالى « مامن دابه فى السماء ، ولا فى الأرض إلا على الله رزقها » ، فعلينا أن نفتح عقولنا لنعرف أن فى السماء ، « أى فى الكواكب » شيء متعددة أشكال من المخلوقات ، ولكل منها فرديتها وفطرتها وصفاتها !!

وإذا تعمقنا فى الجماد أو مانسميه بالجماد ، لوجدنا لكل جبل مظهره ! وإرتفاعه ولكل واد طبيعته ، ولكل صحراء مميزاتها ، بل ولكل معدن صفاته ومميزاته وفرديته ، ولكل معدن ذرات تتناسب مع صفاته ، وكلما اتحدت هذه الذرات كلما أصبح المعدن أكثر صلابة ، فإذا كانت المعادن تشتد صلابة كلما تجمعت ، فما أحوج بالبشر ، أن يتعاونوا ويتجمعوا ، لخلق مجتمع أفضل ؟؟

هذا مانشاهده فى عالمنا ، وهذا مانراه فى السماء ، كل شيء قائم لانظير له ، ولكل فرديته ، وصفاته المميزة ، وطبيعته ، وقدراته ، ومع هذا الإنفراد ، وهذه الفردية فالكل قائم بالله ، فالوجود كله آحاد ، فى ظاهرها انفرادية ولكن فى حقيقتها أحدية واحدة جامعة شامله .

ومن هذا الفهم يرى الصوفى ، أن الله قد اختفى فى شدة ظهوره ، فآحاد الكون فى أحدية المكون ، وجه للخالق . .

فأحدية الله ظاهرة فى أحديه مخلوقاته التى انبثقت منه ، وقامت فيه وبه،ظهور واحد مرتبط شدة الإرتباط ، تجمعه أرض واحدة وتغذيه ، وتحوطه سماء واحدة تعلوه ، وترويه مياه واحدة ، وتشرق عليه شمس واحدة ؛ ويتنفس الكل هواء واحد . وكل شيء فى الوجود يعتمد فى ظهوره على شيء آخر بنسبيات متوازية، ويطوى الكل الزمن السرمدى .

وقضت حكمته الموحدة للكل ، أن يكون لكل شيء فائدته فى هذا الوجود فلا وجود من عبث ، ولا وجود بغير فائدة ، فكل نبته فى عالم النبات لها عطاء وكل حيوان ، وكل حشرة لها فائدتها ، بل كل ذرة فى الوجود لها فائدتها ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وكما فى الأرض من وحدة شاملة متكاملة ، فكذلك فى الأكوان نفس هذ الوحدة ، ارتباط محكم بحكم قانون أزلى لاتبديل فيه ولا تحوير ، نسيج متكامل ومتناسق من جوهر الوجود ، نور على نور...

وقد خلق الله الإنسان واعطاه من روحه ، واعطاه أمانة العقل المميز المفكر، وجعل للإنسان حرية الفكر والحركة والاختيار والعمل ، ليعمل فى ملكوته،ليرى عظمة الوجد فى عظمة موجوداته .

وليفعل الإنسان ماشاء فى حدود ماوهبه الله من قدرات، وإن تحقق الإنسان، لعرف أن عطاء الله غير محدود وغير محدود ، فامكانيات الإنسان لاحدود لها ، وبخاصة إذا تجمع الإنسان على قلب رجل من رجال الله ...

والإنسان قادر على أن يصنع احتياجاته ، ويكيف ظروفه ، بل ويخلق قدره ومصيره ، بما أوتى من إمكانيات وقدرات كبيرة منحها له الخالق ، وعلى الإنسان أن يكتشف نفسه ، ويكتشف ميراثه من الله ، ويعرف صفاته ، ويعيد تقيم ذاته ، وليعرف أنه يملك من الصفات مالاحد له ، وأنه حر ومطلق ، وأنه قادر دائما على أن يتفوق على نفسه ، بالعمل الجاد ، المثمر ، والاستمرارية فى التبديل والتفسير ،

والتحسين ، والإبداع ، ليبلغ حد الكمال ما أمكنه ذلك ، وهو يعرف أن الكمال بغير حدود .

ومن أجل ذلك فهو دائم الخلق والتطوير ، والتطلع إلى الأحسن والأنبل والأمجد والأكمل . سواء كان ذلك فيما يصنع لأمور دنياه أو تطوير ذاته وصفاته وأخلاقياته ليبلغ حد الكمال ، ويتصف بخلق الأنبياء والصديقين والاتقياء ، التي هي طابع من خلق الله ونهج من قرآنه :

وهكذا نرى الإنسان ، دائم التطلع والطموح ، إلى تحقيق أحلامه وآماله ، ورغباته بل أكثر من ذلك إشباع رغبته في العلم عن الوجود ، وعن الكون ، وإشباع ظمأه للمعرفة بوجه عام ، حتى أصبح بغير جدال سيد هذا العالم . . .

وكلما تقدم في المعرفة ، عرف عن نفسه أنه روح طلق حر ، وأنه الوريث والخليفة لصاحب الملك المحيط بملكه الواسع .

ولو عرف الإنسان أنه الكائن الحي في هذا الدثار الجسدي ، وأنه ليس مقيدا بهذا الجسد ، بل هو جزء من الحياة الكلية ، ومركزا عاملا فيها ، لعرف قدر نفسه واحترم إنسانيته .

ولو ظن الانسان أنه مقيد بواقعه المحدود ، زمانا ومكانا ، لظل بحالته البدائية منذ آلاف السنين .

ولكن الانسان بما فيه من روح ملائكية ، يحاول دائما أن يعلو ويرتفع فوق الأرض ، ليفتح أبواب السماء ، ويعرف ما فيها من أسرار .

إن طموح الانسان بغير حدود ، وبلانهاية ، وخياله قادر على أن يخلق كل يوم جديد .

وهذه الأمثلة العديدة ، في عالم الغرب وأمريكا ، تدلنا على قدرة الانسان ، وعظيم إمكانياته .

ويجب علينا كمسلمين، يحثنا كتابنا الكريم، على البحث والتفكير. أن نقفز من نومنا، لنلاحق العالم، وننظر حولنا ونعرف أن لنا علاقات متشابكة مع كل الوجود ومن الحمق أن يعتقد الإنسان أنه كائن منفصل عن الوجود، أو أنه روح مغلف فى الجسد، أو أنه شيء جامد مكثوف، أو ثابت على وتيرة واحدة، وأن حياته هي تلك الحياة التي يقضيها فى هـــذا الجسد ثم تنتهي بالفناء. أو أنه ذرة منفصلة.

ولكن الحقيقة أن الإنسان فى وحدة كاملة مع الوجود، فهو فى نفسه يشارك أنفاس الوجود فى كل شهقة من أنفاسه، ويأكل من نبات الأرض فيكبر جسمه ويتعلم من الناس فيتسع تفكيره، ويتأثر بأفكار الناس، ويشارك فى حياته المجتمع، فهو فى حالة تزاوج عقلي وجسمي مع الوجود، وإذا تقوقع وغلف نفسه بسياج فإنه يبيد، ويهلك فورا، كما يبيد قصيص الزرع إذا حجبته عن الوجود.

والاعتقاد بأن الانسان روح مجردة، وأن الكون فإن، ولا وجود له، هى فكرة تجريد عقلانية، فالحقيقة أن الانسان كائن وموجود بشقيه، الشق الجسمانى، والشق الروحانى، وهو الاثنين فى واحد...

وكلاهما فى تطور مستمر، فأنت الآن غيرك بالأمس، وأنت فى تطور مستمر، وأنت فى تطور دائم فى كل لحظة، فى كل ساعة، فى كل يوم ثم فى كل ام، تتغير صفاتك، وتتغير معتقداتك، وتتغير أفكارك، وتتغير مشاعرك، وتتغير أحاسيسك، وتتغير متطلباتك، وتتغير صفاتك الجسدية، وصفاتك النفسية، وصفاتك الروحية، وتتقلب ذات اليمين وذات الشمال مع أحبائك ومـــع أعدائك، أنت كل يوم فى شأن، كما أن الوجود حولك سائر فى مثل هذا التطور وعلى كل إنسان أن يتعلم، كيف يطور نفسه كل يوم، حسب مقتضيات الأحوال، والظروف والأجواء، صاعدا فى معراج الحياة، إلى الأفضل..

إن الحياة خيط مستمر من النور، وعلى كل إنسان أن يكشف عن هذا النور

فى ذاته ، فى قلبه ، فى عقله ، وفى وجوده المستمر ، فى بشرية واحدة متدفقة ، هى نهر الحياة ...

وليتأمل كل منا فى ماضى الحياة ، وحاضرها ، هل وقفت الحياة جامدة كالتمثال ؟

هل بقيت الحياة كما بدأت بدائية ساذجة ؟

فكم من تغير حدث ، وكم من ممالك زالت ، وكم من حاكم انقطع وانقطعت سلالته وبلاد !!

وكم من حيوانات تخلفت وانقرضت ؛ بالرغم من ضخامتها ونشاطها ، أنها قوانين الوجود .

إنها طبيعة الوجود ـ بذل وعطاء ، ثم فناء ونشور ، بسط وقبض ، ربيع وخريف صيف وشتاء ، نور وظلام ونور .

وكما هى طبيعة الوجود المتقلبه ، كذلك هى طبيعة الانسان ، كل يوم هو فى شأن ، يعطى الحياة ويأخذ من الحياة ، علاقة فريدة بين الانسان والوجود ، علاقة لا انفصام لها ، نسيج متلاحم ...

فالانسان ، عالم قائم بذاته ، فى داخل العالم الأكبر ، وهو نسيج من نسيجه ؛ فالانسان ككائن عضوى ، مخلوق من نفس طبيعة الكون ، من رماده ، وناره ، من ذرات معادن الكون ومن الماء ، ومن الأثير ..

وهو فى طبيعته الروحية ، روح من روح الله ، يملك صفاته ، ويملك عقلا ذكيا وخلاقا ، وهو قادر على أن يتمم عجز قوته البدنية ، بخلق واختراع أدوات جبارة من معادن الأرض يحقق بها ما يريد ، فهو قادر على خرق الأرض إلى أعماق سحيقة والغوص فى أعماق المحيطات للكشف عن خباياها ، والتصعيد فى السماء ، لكشف

أغوارها السحيقة ، وخلق المناخ المناسب لراحته وسعادته وتقدمه وهو دائم التطوير لتلك الأجهزة ، فمن القارب الشراعى إلى الباخرة والغواصة ، ومن عربة تجرها الأنعام ، إلى قطار ، وعربة تنهب الأرض بالوقود والاحتراق الداخلى والخارجى ، ومن الطائرة البدائية ذات المحرك ، إلى الطائرة النفاثة ثم الصاروخ ، ومن الأنغام الوترية إلى أنغام الالكترونية ، ومن الراديو إلى التلفزيون ، ومن الآلة الحاسبة إلى العقل الالكترونى ، وإلى مالانهاية له من العلم والمعرفة ، ومع كل هذا التطور ، فمازالت الفردية عامل مشترك ثابت .

والخوف كل الخوف أن يدمر الانسان نفسه بنفسه ، فيجب علينا الحذر ، فيما نصبوا إليه من تقدم ...

وذلك بالعودة إلى حظيرة الروح ، بالحب والاخاء ...

بمنع الحرب ، وإحلال السلام المادى والنفسى ، بالتعقل والتبصر ، بالعودة إلى الدين الصحيح ، وكما قال الرسول عليه الصلاة والسلام « العقل أصل دينى » فيجب استخدام العقل والتفكر ، فلا نقبل كل أمر على علاته ، ونعلم مراد الله من خلقه فقد خلق الله أول ماخلق العقل وقال له « أقبل فأقبل ، أدبر فأدبر » ثم قال « وعزتى وجلالى لم أخلق خلقا أعز على منك ، فبك آمر وبك أنهى ، وبك أعطى وبك أمنع » .

وعلى ذلك وجب علينا أن نعرف أن مراد الله من خلقه للعقل ، أن يكون فى خدمته لصالح البشر ، عطاء نافع بغير حدود ، فإذا طغى العقل وجب علينا إيقافه ، وإعادة سيره فى الطريق القويم ..

ولإيقاف العقل والتحكم فيه وسائل مشروعة ، شرحناها فى بعض كتبنا .

كما أنه إذا توقف العقل عن العمل ، فى بيئة ما ، توقفت الحياة ، وتراكمت الأمور ، وصدأت العقول ، كما يصدأ الحديد بالإهمال والترك ، وعاد الإنسان إلى

حيوانيته ، وحشاً كاسرا ، أو فـأرا جبانا ، يعيش فى جحور الأرض ، أو فى المزابل ...

وعلينا دائما إيقاظ العقل ، ففى إيقاظ العقل إيقاظ للهمم ، وفى إيقاظ العقل، يختفى الشيطان ، ويرتقى الإنسان فى معراج صفاته الحسنى ، صفات الملأ الأعلى ، متخلقا بأخلاق ذلك الملأ ، فيشعر بوحدته مع النفس الواحدة ، ويتفتح عقله ليمتص من العقل الكلى للوجود كل مكنوناته ، ويعرف الإنسان أن فى أعماقه نور الوجود ، وأن هذا النور هو المرشد الأمين الوحيد الذى ينبع من داخل أنفسنا ، ففى إتحادنا بهذا النور ، اتحاد بمصدر الحياة ، إتحاد بالروح ، فإذا تم هذا الاتحاد تحرر الإنسان وأصبح سيد نفسه ، فقد عرف ... عرف أنه بلغ وادى عرفات ...وأن هذا الوادى قائم فى نفسه ، قائم فى عقله ، قائم فى قلبـه ، ينبوعا للعلم والمعرفة ، والسعادة التى تفيض عليه وعلى من هم حوله نور على نور ، فقد هداه الله إلى نوره ، وايقظ فيه همته ، ايقظ العقل الروحى والوعى والروحى ..

إن هذا الحديث هو حديث الروح للروح ، تدركه الروح ،ولا تدركه العقول الغافلة ...

ولكن لاتيأس ياصديقى ، فلايأس مع الحياة ، إنما المسألة مسألة زمن ووقت فـكل له ميقاته ، سرمع الأيام ، تعلم وافهم ، تأمل وتبصر ، وسوف يأتى دورك ، وماعليك الا الإرتباط بالمعلم الذى يأخذ بناصيتك ، هم السابقون ونحن اللاحقون ، إن كل من فى الوجود الا آتى الرحمن طوعا أو كرها .

إن الإنسان كفرد ومادة له زوال ، ولكنه كإنسانية واحدة له الدوام يتدفق منذ الأزل ، ويتطور إلى الأبد ، ومن هذا الأزل البعيد ، جمع مقوماته ، وبنى معتقداته ، ونمى صفاته ، وجنى ثمار عمله القديم فى يومه الحاضر ، وعلى ثمار عمله الحاضر ، يجنى مصير مستقبله حلو المذاق ، أو حنظلى الصفات ، علقم ومر المذاق ، أنه قانون الوجود ، « تلك أعمالكم ترد إليكم » « إن خيرا فخير وإن شرا فشر »

« ذريه بعضها من بعض » . فخلاصة العلوم الماضية تصب فى حاضرنا ، وخلاصة حكمة الحكماء تتحكم فى عقائدنا اليوم ، وماسوف نحققه اليوم سيتبلور فى بوتقة المستقبل . لاشيء يضيع منه الا الفاقد والتالف . كالزبد فوق المحيط يتلاش الزبد ، ويبقى ماء المحيط ، يضيع الطبل الأجوف ، والشعارات الكاذبة ، ويبقى العمل البناء المثمر ...

•

فالإنسانية والزمن عاملان متلازمان ، والإنسانية والعمل ، مترادفان ، والانسانية والحياة وحده وجود ... والإنسانية والوجود وحدة شهود ...

وبالرغم من أن الإنسان منطلق من الزمن السرمدى ، الا أنه متعب ولاهث ، وهو غالبا مايكون فى ضيق وضجر ، بل يشعر أنه فى سجن الزمن ، ولا انفكاك له منه ، وأنى له الفكاك ، وهو لايعرف من أين أتى ، ولا إلى أين المصير ، إنه يعيش بين قوسين من المجهول ، محجوب عن ماضية ، ومحجوب عن أبديته ، ولايعرف ماذا سيحل به بعد مفارقته للدنيا ، وأنه يعيش فى غموض ماقبل الميلاد ، وجهل مابعد الإنتقال ، وليس له الا الساعة التى يعيش فيها ، الحاضر ...

وبالرغم من وجود بعض الجهابزة من المعلمين ، والأنبياء ، لتفسير خفايا ماقبل الميلاد ومابعد الموت ، الا أن الحقائق المؤكدة باهتة ، والمعرفة عنها شبه أقصوصه مليئة بالخفايا ، وإن مست شيء من الحقيقة ، فهى حقيقة ضئيلة لاتغنى ولاتشبع من جوع ، كما أن خيال الإنسان يضفى عليها الكثير من تصوراته . والتصور صفة من صفات البشر الحميدة ، فكثيرا ماتصور الإنسان صورا عقلية ثم حققها بعد ذلك .

ولكن هل كل ماتصوره الإنسان حققته الطبيعة ؟؟

إن أسرار ماقبل الميلاد ومابعد الوفاة ، إنما هى أسرار أبدية ، منذ تواجد الإنسان على هذه الأرض ، والسؤال مطروح للاجابة منذ البدء ، ومازالت الإجابة المكشوفة غامضة ، والمعرفة الروحية مطوية فى بعض الصدور ، ومازال الجهد

مستمرا بين البشر فى محاولة للكشف عن مكنوناتها، فالأديان لاتفصح تماما، ولاتجهر وفلسفات الشرق كاليوجا بأنواعها ، الهاثايوجا والكارما ، والبهاجتى ، والجنانى ، تعطى ضوءا على الطريق ، وفلسفة الزن فى اليابان لها وسائلها والكونفوشيه ، لها فلسفتها فى المعرفة ، وطبقة البراهمة لها تعاليمها ومستوياتها فى القارة الهندية ، ومع كل هذا البحث القديم والجديد، فإن الإنسان مازال عاجزا عن معرفة كل الحقيقة فمعرفته حتى الآن هى ذرة من الحق الأعظم الكامل .

والعيب كل العيب فى أن كل من هذه الأديان والفلسفات تضفى على نفسها المعرفة الكاملة ، وأن غيرها من المعارف هباء وضلال ، وتتمسك الأديان بتعاليم ثابته وطقوس وصلوات وتشرح ، أديان أخرى الأخلاقيات وتتكلم بعض الأديان عن أن الله بعيد فى السماوات ، وأخرى تعترف بأنه أقرب إلينا من حبل الوريد ، وثالثة تعترف بأنه وراء كل شىء ولاسبيل لادراكه ،وأخرى ترى أن الله فى كل الحياة ، حاضر فى كل شىء ظاهر أو خفى .

ومنهم من يقول أن كل المخلوقات مظاهر تجلى قدره الله .

وهكذا نرى أن الحياة مليئة بالأفكار ، المتباينة والحقائق المختلفة ، ويقول العارف ، أن كل هذه الأفكار والآراء والحقائق صادقة ، فكل يرى الحقيقة من زاويته ومن مستوى معرفته الروحية ، فلله طرائق بقدر عدد الخلائق . . .

إن حياة الفرد متشابكة مع حياة المجموع ، ومع المجتمع ، ومع البيئة ومع الطبيعة،فلا يوجد شىء قائم بذاته، بل الكل يعتمد على الغير،فهناك أمور كثير مشتركة ، وهذه هى حقيقة الحياة وسنة الوجود ، ومن المحال أن يوجد شىء لايعتمد على شىء آخر ، إنها أمومة الحياة، بالرغم من ظهورها فى فرديتها وآحادها .

فالحياة فى تضافرها وتشابكها وتلاقيها وتلاطمها ، تشبه النسيج ، لابد فيه من سدة ولحمة ، أخذ وعطاء ، بذل جهد ، وجنى الثمار . فالحياة مشاركة ، كل فرد فيها له نصيب فى نموها ، كل مجتمع فيها طرف من أطراف العجلة الوجودية . بل

هناك من الأفراد من يؤمنون أن ذواتهم ذوات كل المخلوقات عجينه واحدة ، ونسيج واحد ، حيوانية واحدة ، ولافرق بينها الا فى تغير الصورة ، ولافرق بين المخلوقات الا فى درجة إدراكها وفهمها وتعرفها ، وهذه الفئة من الناس ، نجدهم على خلق رقيق ومشاعر إنسانية ، علاهم حنان قلبى ، ويغمرهم عطف وشفقة على الحيوانات مهما كانت متوحشة أو أليفة ، يطالبون بعدم إهلاكها وصيدها ، ويتطوعون لإطعامها وخدمتها ، ورعايتها . إنهم أناس روحانيون،وعرفوا الحقيقة وعرفوا الله ، وكرسوا أنفسهم لخدمة الطبيعة فى أى وجه من الوجوه ،فقدعرفوا القول المأثور « أينا وليت وجهك فثم وجه الله » .

كما أنهم عرفوا أنهم جزء لايتجزأ من الوجود ، وأن الوجود نفس واحدة ، وحياة واحدة متكاملة ، كل خلية فيها تشكل وحدة من وحدات الوجود الكلى وعرفوا القول المأثور « ياواحداً فى ظل كثرة » فإن بدى الكون فى نظر السطحى الجاهل ، أشياء منفصلة، فهم عرفوا أن المظاهر كلها انبثقت عن الحقيقة الواعية الأحدية ....

وكل من ملرس التوحيد ، وكل من تأمل فى الوجود ، ورسخ فى أرض الحقيقة ، وتفتح وعيه ، رأى ترابط الكون ، ورأى وحدة الوجود ، ووحدة الحياة ، وعاش فى الحب ، لايعرف عنه بديلا ...

وإذا راقبنا الفضيلة فى أنفسنا و فى الغير ، لوجدناها تنبع من أعماق وعينا الداخلي ، ولكن البيئة والصحبة هى التى تعكر صفوها . فإذا صلحت البيئة وصلحت الصحبة طابت الفضيلة بيضاء من غير سوء .

والوعى الكامن فى الإنسان هو الجوهر اللازم لتطور الروح ،وكلما تطورت الروح تحولت من المحيط الخاص بها وخرجت من هذا الحيز الضيق إلى التعميم ، إلى الانتشار العالمى ، ويصبح هذا الإنسان عالمى الفكرة ،عالمى الحب ، وكرس

عمله لخدمة الإنسانية ككل ، وإذا عرجت الروح إلى فهم أعم وأعمق ، وأصبح صاحبها وجودى النظرة ، يعمل لخدمة الوجود ككل ، ورأى نفسه فى الكل ، رأى نفسه كونيه الصفات ،وأصبح حرا ، فقد تحرر من عبودية النفس وتسكنزها ، وأصبح فى وعيه أن الناس كلهم سواسية كأسنان المشط ، لا فرق بين شعب وآخر ، ولافرق بين دين وآخر ، ولافرق بين الأسود والأبيض ، فالكل فى واحد الكل روح واحدة ونفس واحـــدة فلا كراهية ولاضغينة ، ولاحروب ، ولانزاع . ولا إثرة .

بل سلام فى الأرض وحب وتعاطف ، وعطاء ولاخصاصة ولامخاصمة ، جنة عرضها السماوات والإرض أعدت للمتقين ..

فى هذه المرتبة من المعرفة الروحية ، وهى إحدى مراتب الإسلام، يرى الفرد فيها أنه خرج من التنازع الدينى والتنازع الدنيرى ،إلى مرتبة السلام النفسى ، ولاحرج عليه ، من التشاحن والتباغض الدينى والدنيوى ، فقد تحرر من كل هذه الصغائر ، وأصبحت نظرته نظرة كبرى ، من الأفق الأعلا ...

فقد عرف أبعاد نفسه ، واكتشف فرديته الجامعة ...

اكتشف أنه وسيط للانهائى ، وأنه إناء للروح ، وأنه فى الحضرة الإلاهية ، فرد فى الصمد ...

ومع هذا الفهم فهو يعرف أن الوجود المادى ، شىء غير الله ، فذات الله غير ذات المادة ،ومن الخطأ أن نقول أن الله سبحانه وتعالى هو الاشياء ، فتعالى الله عما يصفون ، ومن الخطأ أيضا أن نقول أن ذات الله خارجه عن الوجود فكيف يكون للوجود وجود منفصل ، فالوجود لايقوم بنفسه !!!

وإذا أردنا القول المنطقى ،تقول « إن اللانهائى هو عين وجوهر الوجود » أو هو « دعامة الكون ، اللانهائى الابعاد ، الغير محدود. »«وسع كرسيه السماوات والأرض »فالغيب هو المطلق ،والشهادة هى الكون اللانهائى .

(اليوجا)

فالغيب هو الخالق ، والكون هو المخلوق ، أو فى قول آخر « الوجود المادى مظهر تعبير عن الحقيقة » « وانبثاق منها » « الظاهر آيات الباطن » « الظاهر مرآة الباطن » وبهذه المشاركة قامت الحياة الأبدية ، فى استمرارية مطلقة ، وترقى دائم طالبا للكمال ، منه وإليه ...

فقد جاء فى الحديث الشريف « تخلقوا بأخلاق الله » « الكمال » وأختتم هذا الفصل بأبيات من شعر العارف بالله السيد عبد الكريم إبراهيم الجيلانى :

« فيا أحدى الذات فى عين كثرة   ويا واحد الأشياء ذاتك شائع
تجليت فى الأشياء حين خلقتها   فها هى هبطت عنك فيها البراقع
فأنت الورا حقا ، وأنت أمامنا   وأنك مايعلو ، وماهو واضع
وما الخلق فى التمثال الا كثلجة   وأنت بها الماء الذى هو نابع

فهل عرف الإنسان نفسه ؟

هل عرفت وحدانية الخلق فى أحدية الخالق !!!

هل تأملت فى قوله تعالى « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق .

« وماقدروا الله حق قدره » !!

هل قدرت أيها الإنسان ، عظمة هذا الخالق وقدرته ، فخشعت وسجدت ، وسلمت وأسلمت ...

الباب السابع

فن معرفة النفس

الفصل الأول

فن معرفة النفس

كلما بحث الانسان وتعمق فى الطريق الروحى، كلما عرف ذاته وتنبه لمكوناته وزاد وعيه .

فعندما يبدأ الوعى الروحى فى إنسان ما ، يدخل فى خضم من التساؤلات

ماذا وراء هذا الكون ؟

من أين يبدأ وأين ينتهى ؟

من أنا ؟

من أين أتيت وإلى أين المصير ؟؟

من هو الخالق ؟؟؟

ماهى صفاته ؟

كيف يكون شكله ؟

وأين هو ؟

وأين عرشه ؟

ولماذا جاءت الرسل ؟

وأى الرسل يجب أن يتبع ؟

ولماذا تتابعت الرسل على مدى الدهر ؟

وماهى الجنة وأين هى ؟

وما هى حقيقة النار وأين هى ؟

إلى غير ذلك من تساؤلات ...

وهكذا ، يدخل الانسان فى الطريق الروحى صفر اليدين ، ثم يقرأ ويتعلم ، ويتفقه على يد معلم ، حتى يضع قدمه على أول الطريق ، ثم يبدأ بنفسه ...

فيعرف أن الكون ليس له حدود ، وانه مجرات وسماوات طبقات فوق طبقات وفى كل سماء مكوناتها من كواكب وشموس ونجوم ومخلوقات ، وان هذه الأكوان سابحة ن الفضاء اللانهائى ، وإنها تدور حول محور لها ، كمايدور الحجيج حول البيت العتيق ، وكل مجموعة شمسية تدور حول اكبر لها ، وكلما كبر يدور حول شمس اكبر له ، وهكذا فى كل سماء الأصغر يحوم ويلتف حول اكبر له ، أنها أمومة الحياة أو أبوه الحياة ، ويظل الرضيع فى فلك الأم حتى ينضج ويتحرر ، ويستقل بذاته ، ورغم استقلاله ، فهو دائما فى ظل الأكبر يستمد منه المعرفة ، كما سبق واستمد منه الحياة .

بعد هذا يعود الانسان إلى نفسه ، فيرى ان فى كيانه طاقة وقوة محركة ، وان الجسم بغير هذه الطاقة ، لاحول له ولاقوة ، ثم يرى ان الذى يحركه هو العقل ولكن إذاتعمق اكثر وجد ان العقل مجموعة افكار تذهب وتجىء وانهاتابعة لارادة اخرى ، فى مقدورها ان تقول للعقل قف مكانك . إذاً فالعقل تابع أيضا ، كالجسم تماما ، ثم يرى الانسان ان فى اعماقه قوة محركة لكل خلية فى جسمه ، ويرى ان هذه القدرة تحرك القلب ، وتحرك الأنفاس ، وتحرك الدماء ، ليل نهار دون توقف ودون وعى منه !!!

إذا ماهذه القدرة ؟؟

فإذا تأمل فيما هو حوله ، وجدان هذه القدرة فاعله فى كل شىء فى عالم النبات وفى عالم الحيوان ، وفى حركة الكواكب وفى حركة النجوم ، وفى كل كائن حى مهما دق حجمه او مهما عظم جسمه ، إنها قدرة متخلله كل الكائنات ، تعطى كل كائن القدر المناسب ، فكل شىء بمقدار ، منها مايتناسب تناسبا طرديا ، ومنها مايتناسب تناسبا عكسيا ، فنجد النملة بالقياس إلى حجم الفيل لديها من هذه القدرة طاقة تتضاعف بالقياس مع الطاقة التى فى الفيل وهكذا ..

ثم يعود الانسان إلى نفسه ، يبحث فى اعماقه ، فيعرف ان له ذات حقيقية مستقلة هى مركز وجوده المسيطر على جسمه وعقله وكيانه ، وان هذه الذات ثابته مع الزمن وانها مستقلة عن الجسم ، وان لها صفات ربانية فهى نوارنية ، وذات علم ومعرفة ، وهى حصينة لاتقهر ، ودائمة الوجود سواء فى حياة الجسم او بعد زوال الجسم فهى قائمة نوارنية ، قبس من النور الكلى ، فى ذاتها المعرفة ، وفى ذاتها القدرة ، وفى ذاتها تكمن السعادة ويكمن السلام والحكمة ...

فإذا عرف الانسان ذاته وأنه مركز وجود ، وانه عالم قائم بذاته ككل ماحوله من عوالم ، وعرف أن له ارتباطات بما حوله من عوالم ، وان وسيلته إلى الاتصال بهذا العالم المادى هو النفس ، وان النفس تملك العقل والجسم ، وان وسيلة النفس إلى التعرف بالعالم المحيط بها هو الحواس الخمس .

هنا يبدأ وعى الانسان عن ذاته فاذا عرف أن هذه الذات هى الروح ، وركز على هذه الروح فى مدى الأربع وعشرين ساعة كل يوم ، فسوف يزداد وعيه كل يوم حتى يشعر ويحس ويعى انه روح منفصل عن جسمه ، ومن خلال هذا التركيز الارادى ، سوف يتمكن من الخروج أراديا من الجسم لبضع دقائق ثم يعود إلى جسمه بدون خوف ، وبعد بضع شهور سوف يتمكن من مغادرة الجسم لبضع ساعات ثم يعود إليه ، ومع التدريب المستمر ، سوف يتمكن من الخروج من الجسم ويعرج فى السماء ليرى ملكوت الله ، او [illegible] لاماكن التى يريدها ، ليرى ،

ملكوت الله ، أو يسرى فى الأماكن التى يريدها ليرى مايشاء، وهذا مافعله الأولياء والأتقياء والأنبياء ، والصالحين من اليوجين ، وهذا مافعله سيدنا على كرم الله وجهه ، كما جاء ذكره فى خطبة الكوفه ، ومافعله سيدنا عمر عندما نادى « ياسارية الجبل » حيث رأى ميدان الحرب فنادى على القائد ليتخذ من الجبل موقعا حصينا ينقض منه على الأعداء .

أن فى قدرة الروح الإنطلاق والإسراء والمعراج، أما الجسد فلاحول له ولاقوة الا فى المحيط المادى من الحياة ، مثله كمثل الرداء للروح ، أو هو الحجاب الذى تحتجب فيه الروح ، أو الهيكل الذى تعمل من خلاله ..

فإذا جلست وحدك فى هدوء وخلوة ، وراقبت عقلك ، ومايدور فيه من أفكار لعرفت أنك الرقيب ؛ ولسموت عن مستوى الجسم والعقل ، واكتشفت النفس النقيه التى هى ذاتك الحقيقية ، التى هى روحك، ولعرفت من هو صاحب السيادة ومن هو المتبوع ، من هو الجوهر ومن هو الشبح ، من هو الناظر ومن هو المنظور. ومن هذا المنطلق ستحرر نفسك ، وتصبح أنت الرقيب للشبح وللعقل ، وأنه لافناء للنفس الكاملة ، فالفناء للشبح المادى ، أما الجوهر فله الدوام ، ومن ثم فالاتحاد مع الروح يعطيك الوعى والمعرفة والقوة ، وستعيد تقيم نفسك وتعرف أنك مركزا للاعلا .

ويتبع مراقبتك للعقل وأفكاره ، مراقبتك للنفس ، وهنا سوف تشعر بالتحرر من طغيان العقل ، ومن الأنانية البغيضة . وتتحكم فى مشاعرك ، وفى تصرفك وإذا علوت أو سموت فى معرفتك ، وعرفت الفارق بين الشاهد والمشهود ، أو بين الأصلى والظل ، فلن تدخل فى حالة الفناء . بل ستدخل فى حالة العارف ،وهى أنك مركز حى يعبر عن الحقيقة ، وأنك تملك الحرية الكاملة لتعمل بإرادتك ، فأنت جزء من المصدر الواهب للحياة ، وأن الحياة كل لايتجزأ .

وليس منى تحقيق الذات ، ومعرفة النفس النقية ، أن تفقد الرغبة فى الحياة ،

أو تزهد فيها كما يفعل البعض ، أو يعتقد البعض الآخر ، ولكن هذه المعرفة على العكس تجعلك راغبا فى الحياة ، محبا لها ، مقدرا لكل خطوة تخطوها فى سبيل الحياة ، فليس أمامك سبيل آخر غير هذه الحياة ، وليس لك الا الساعة التى أنت فيها .

فإذا كنت حيا فلماذا ترفض الحياة ؟؟؟

وكلما تغلب الإنسان على نفسه وحكم تصرفاتها ، وكلما أفرغ عقله من نزواته ، وراقب متطلباته ، وكثرة انحرافاته وحدد أهدافه ، كلما وضحت أمامه الحياة ، وبصفاء العقل تتضح الرؤية ، وبمراقبة النفس فى دوام ، يعرف الإنسان ماهو الأصيل فى الحياة وماهو الزائف . فيسلك سبيل المعرفة ، ويتبع الصراط المستقيم ، وبذلك لايبطل نموه ونضوجه ، فى طريق الكمال .

فالإنسان الناضج لايتقوقع فى ذاته ، ولايتحجر فى صفاته ، ولايختال بمجد آبائه ، أو يبقى فى حالة سرور زائف ، وتعالى على الناس لأنه من أصل عريق أو من سلالة الفراعنة العظام ، أو سليل كسرى ملك الفرس ، ويملأ الدنيا كلاما عن أصله وفصله وما كان .

هذا الانسان سيبقى فى مكانه من المجتمع الانسانى فى غفله الماضى « محلك سر » مثله كالجندى يرفع قدما ويخفض الأخرى فى ضجيج ، وهو لايتقدم خطوة واحدة إلى الأمام .

ولكن الانسان الناضج الذى عرف نفسه ، وعرف أنه ترس عامل فى عجلة الحياة ، تراه دائب العمل والانتاج . والخلق المستمر ، لتجديد الحياة إلى الأفضل فقد إدراك أنه كل يوم فى شأن جديد ، أنهما الارادة العليا البقاء الأصلح ، وللتحسين والتجديد ، إنهـــا سنة الحياة فى بلوغ الكمال ، فى النشوء والارتقاء والكمال

ليس له حدود . فالتطور ليس له حدود . أو فى كلمة أوقع «دائم وأبدى» ...

فهل عرفت نفسك أيها الانسان ؟؟

إعرف دائما أن الحياة تلفظ الضعيف . والمريض . والخامل . والنائم . وثاقل العقل . وعديم الحركة . والذى لا يجدد نفسه كل يوم ويثبت وجوده فى الحياة . فالبقاء للاصلح . فى الفرد . وفى الجماعة . وفى الأمم . فكم من أمم ضاعت وزالت بضعف عناصرها ومقوماتها ...

الفصل الثانى

حرية الفكر فى البحث الروحى

إذا أردت أن تسلك طريق المعرفة الغيبية ، وجب عليك أن تتحرر أولا من كل أفكارك الخاصة ، ومن تلك الأفكار التى علقت فى ذهنك منذ طفولتك ، من القصص القديم ..

وأن تعطى لعقلك المرونة والحرية، والاستعداد التام ، لتقبل الحقائق الجديدة مهما كانت تخالف مارسخ فى عقلك من معلومات جامدة متحجرة ، فقديما قيل أن الأرض مسطحة ، وأن الشمس تدور حول الأرض ... !!

ولهذا وجب على السالك فى طريق المعرفة ، أن ينمى فى نفسه عادة تقبل المعلومات بعقل متفتح ، ودون التمسك بأفكار قد بليت أو عفا عليها الزمان ، أو التحامل على المعلم ، لأن أفكاره تخالف ما يركز فى عقولنا منذ الصغر من تخيل ، أو ميل أو هوى ، فكثيراً ما ينشأ الإنسان فى بلد أو بيئة لها أفكارها الخاصة وتحفظاتها وكثيراً ما يضع الآباء والأهل فى عقولنا أفكارا ما أنزل الله بها من سلطان ، وقد نقع فى حبائل شيخ أو شخص سطحى المعرفة ، فيزرع فى عقولنا ما نتوهم أنه الحق والمجتمع مليء بثقافات وأفكار لا حدود لها ، أوقد نستمع إلى متهوس دينى ،أو متحجر العقل فيلزمنا بالتمسك بسطحيات أو شكليات لا تسمن ولا تشبع من جوع ، إستنادا إلى أنها كانت قائمة منذ آلاف السنين أو أنها سنة من سنن الأولين ....

فالعقل المتحرر ، هو العقل المتفتح لقبول البحث فى عمق الحقيقة ، ومن خلال

المشاهدة لأنفسنا ، والمشاهدة للوجود ، والتفكر فى آيات الكون وفى أنفسنا ، وفى الحياة ، وأن نحكم العقل فى اليقين ، وأغوار اللب ، وإلا نأخذ كل مايقال على عواهنه ، أو نكون متصلبى الفكر ، أو شديدى التعصب والإلتزام الجامد أو الأعمى !!..

والإنسان التزمت الجامد العقل ، يظل طوال حياته متقوقعا ، مغلفاً نفسه فى ستر الماضى ، وفى تشدده يزعم لنفسه أنه على حق ، ويفرض مزاعمه على الغير دون مناقشة ودون تطور ، ودون تفكر وتأمل عميق .

فإذا أردت السلوك فى طريق المعرفه ، أخرج من جمودك وتعصبك دون هياب فلن تخسر شيئاً ، فإن تجددت كسبت المزيد ، وإن تعثرت فعد إلى ما أنت فيه واستغفر ربك حتى يأتيك اليقين .

ولكى تنجح فى بحثك ، يجب عليك أن تتابع الفكر الجديد ، الذى عرض عليك فى تمهل ، حتى تنتهى إلى نتيجة مقبولة ، ولا تكن كالصد أو الحائط كلما ألقيت إليه الكرة ردها إلى حيث كانت ، تمهل واستمع إلى النهاية ، ولا تقاطع المتحدث حتى ينتهى من الحديث ، فللحديث أداب ...

فإذا استمعت جيدا ، وتأملت فيما يقال ، وتفكرت فى نفسك بشجاعة ، فسوف تصل سفينتك إلى المرفأ ، أما إذا تعاليت بأفكارك ، ورفضت البحث ، وتجمدت فى قديمك ، فلن تبرح مكانك ، ولا تلومن إلا نفسك !!

ونصيحتى لك ، أنك إذا استمعت إلى حديث فوق مستواك الفكرى ، أو قرأت عن الحقيقة ، فاذهب إلى ركن هادىء فى منزلك ، أو حديقة وارفة الظلال ، وتفكر فيما سمعته أو فيما قرأته ، وأدخل بكليتك قلبا وعقلا ، واغمض عينيك واستغرق فى تأملك ، حتى تشعر أنك فى حضرة الله ، أو أنك فى حضرة الروح الدائمة للحياة ....

وكلما رو ادتك أفكار بالية ، أو أفكار دنيوية ، فنحها بهدوء ، وعد إلى استغراقك ، وعش فى الأنوار الجديدة حتى تحقق ذاتك ، أنك روح دائم الحياة .

إن كل الأفكار الجديدة فى العالم ، تحتاج إلى البحث والتقصى ، والعقل وحده لا يمكنه الحكم على الجديد من خلال أفكاره القديمة ، فالصالح والطالح وجهة نظر ، والعالم مليء ، بعادات وأفكار يعتبرها الغرب حسنات ويعتبرها الشرق سيئات ، ونحن فى عالم من النسبيات !!

وكلما مرن الإنسان نفسه على الدخول إلى أعماق ذاته ، واسترشد بما فيه من قبس نورانى ، أسعفه عقله بفكرة جديدة نابعة من أعماقه ، ترشده إلى الطريق ، وعلى الحكيم أن يتبع ما يصدر عن أعماقه ، وفى هذا المجال قال الرسول عليه الصلاة والسلام « أستفتى قلبك ولو أفتوك ، ولو أفتوك ، ولو أفتوك .!!

ومعنى هذا أنه ليس للانسان إلا ما سعى ، مسترشدا بالاستضواء الداخلى ، وبعين البصيرة ، وهذا أمر يحتاج إلى الأمانة مع النفس ، وإلى الاستبصار الداخلى وكلما عرضت عليك أفكار من الغير ، أو توجيهات ، وجب عليك دراستها جيدا مع نفسك ، ثم الرجوع إلى أحوالك الخاصة ثم الاسترشاد بديهتك ، ثم الاستماع إلى صوت القلب الصادر من الإعماق ، ثم الاعتماد على النفس بهمة وإخلاص ، فلا تركن فى أمورك إلى الغير ، أو تتواكل على الله ، والله وضع القانون والميزان ، وقال « اعملوا فسيرى الله عملكم » ولم يقل اتركوا أموركم وأنا أنزل دنياكم لأعملها لكم ؟؟

ولتكن عندك الشجاعة التامة لتقول لنفسك « أنا لا أقبل أى رأى ، أو فكر ، أو قول ، مهما كان صادرا عن شخصية تاريخيه ، أو قول مأثور عن فيلسوف كأفلاطون ، أو فرعون ، أو كاتب مرموق ، أو صاحب نظرية معروفة كفرسيل ، أو سارتر ، أو هيجل ، أو هوجو ، أو مارتن هيدجر ، أو هنرى لوفافو ، أو شكسبير ، أو الشيخ فلان ، أو تفسير الطبرى ، أو قال الحلاج ، وقال .. المقريزى الخ .

وإنما تقول ، سوف أحكم عقلى بعمق ، ثم استفق قلبى ، ثم أتأمل ، وأستبصر فإن وجدت ضوءا يسترشد به عقلى ثم نورا أحسه فى قلبى ، فأنا من المصدقين ، وإذا تغلغل فى أعماقى فأنا من المؤمنين ، لقد زالت الغشاوة عن بصرى ، وقد قالها الرسول عليه السلام « العقل أصل دينى » .

فلا تكن مسلما لأنك ولدت مسلما ، ولا تكن مسيحيا لأنك ولدت مسيحيا ولا تكن يهوديا لأنك ولدت يهوديا ، ولا تكن بوذيا لأنك ولدت هكذا ، والأصح أن تبحث بعمق ، وتتفكر ، وتتأمل ، ثم تؤمن عن عقيده حاضرة، وعن مشاهدة صحيحة ، واقتناع قلبى ، وهذا هو معنى الإسلام ، أى الإسلام لما حققته والإيمان بما رأيته حقا ، وقد جاء فى الكتاب الحكيم « قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا ، ولم يدخل الأيمان فى قلوبكم »« إنما المؤمنون الذين آمنو بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ..

وهكذا يجب أن يكون الإنسان ، مفكرا ، متفحصا ، مدققا ، متأملا ، مسترشدا بأغوار عقله ، وأعماق نفسه ، وأنوار قلبه ، متحررا من قضبان القديم، وإملاء الغير ، وقد خلق الله لنا عقولا يجب أن نستخدمها ، والبابا يجب أن نحركها ومنحنا أمانة البحث والإختيار ، فإن تبلدت عقولنا فنحن من الكافرين بنعمة الله .. !!

وحذار أن يركبك الغرور النفسى ، وأنت مازلت فى أول الطريق الفكرى والبحث العقلى ، فتقيم لنفسك وزنا أثقل من وزنها ، وأنت مازلت تحبو داخل النفس ، فتضع عقائد جديدة ، أو تكذب عقائد صادقة قائمة ، فإن حكمت فأحكم بالعدل ....

وأعرف أن فوق كل ذى علم عليم ، والعلم ميدان واسع لا يثير غوره ، فالعلوم القديمة كانت جديدة فى يوم ما ، والجديد اليوم سوف يصبح قديما بعد غد ، وسيأتى نهر فياض من علم الله بلا نهاية ، وإلى مالا نهاية ....

ومن أوتى الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ، ومع هذا فالحقيقة الكلية لم تزل مجهولة . وما أوتيتم من العلم إلا قليلا .... !!!

فإذا أردت أن تسير فى طريق المعرفة ، فاقرأ ما تشاء من كتب الحكمة ، ومن الكتب المنزلة والأحاديث (وإن كنت مسلما فلا تكتفى بالقرآن وقراءة الأحاديث ولكن لا بأس من أن تقرأ الإنجيل والتوراة والابانيشاد ، والجيتا ، والتلمود وتعرف عن فلسفة الزن ، وراما كرشنا ، وزارودستا ؛ وإن كنت مسيحيا فاقرأ القرآن والسنة والأحاديث ، وإن كنت يهوديا كذلك ، وإن كنت هندوكيا فاقرأ الفلسفات الأخرى ، وإن كنت وجوديا فاقرأ فى غير الوجودية ، وهكذا عليك أن تأخذ العلم ولو فى الصين كما قال الرسول ، ومن خلال هذه القراءات ، تأمل فى كل ما يشدك ، لا تكن سطحيا ، سريع القراءة ، فلن تخرج منها بحصيلة ، ولكن أثير أغوارها ، وأدخل فى الأعماق ، إقرأ أية وتأمل فيها ، وقارن بين كل ما قرأت أو سمعت ، وأخرج بالدرر النفيسة ، قارن وأشبك وأفصل ، ثم استنتج ، وكن متحررا من القديم ، ومما هو راسب فى عقلك من دين أو فكر أو قصص ، وكلنا يعرف قصة النبى موسى ، وكيف أرسله الله إلى معلم حكيم ، حيث قال له المعلم « إنك لن تستطيع معى صبرا ، وكيف تستطيع المعرفة مادمت تعتقد أنك نبى وتعرف كل شيء ، « كيف تصبر على ما لم تحط به خبرا ، » قال موسى « ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا » ، فراغب المعرفة يجب أن يكون صابرا ، ومستمعاً جيدا إلى المعلم ، والاستماع الجيد يحتاج إلى التركيز ثم التأمل فيما قيل ، فالحياة مدرسة ، يجب أن نفتح فيها أذاننا ، ونفتح عيوننا جيدا ، ولا نسير فى الحياة صم بكم عمى (كأننا خشب مسندة ، أو أعجاز نخل خاوية ..)

يجب أن يكون لنا استقلالنا الفكرى ، وحرية البحث ، والتأويل والتفسير والمقارنة ، فلا نقرأ كتابا أو مقالا ، ونؤمن به فورا ، لأن كاتبه مرموق أو معروف أو ذائع الصيت ، ولا نصدق خطبة خطيب مهما كان زعيما أو رئيسا ، أو ذو سلطان ، حتى نتحقق مما يقال لنا ، وقد أمرنا الرسول إلا نكون إمعة ، وألا نسير فى الركب كالأغنام .

فإذا أردت البحث فى طريق المعرفة ، استمع جيداً ، وأقرأ جيداً دون إهمال أو عدم إكتراث ، وأفهم جيدا ، ثم أهضم ، ثم دون نقاط من هنا وهناك ، وقارن وابحث حتى تقف على أرض صلبة ، وتكون لك رأياً حراً ، أو توافق على رأى ما ، أو تكون مصدقا ، بعد نمو إدراكك الباطن ، أو بعد تفتح بصيرتك ، وكلما عودت نفسك على البحث ، وكلما زاد إدراكك ، زادت قدرتك على التقدير ، وزاد إحساسك بالجمال الحسى ، والجمال الفكرى ، والتذوق التسامى ، ونبع من أعماقك أفكار براقة ، وصور ذهنية خلاقة ، واهتمامات جديدة من المستوى الرفيع ، وسوف تشعر بالتغير ، والتجديد فى خططك ومشروعاتك ، وسيعرف عنك الناس قدرة الإقدام ، وقوة العزيمة ، وسوف تقدم على الحياة بجهد ، وكأن فى أعماقك نبع من قوة الله العظيمة ، يوجهك . ويأخذ بيدك ، وكأنك تسير فى الحياة بنور من عند الله ، ففى حديثك بيان ، وفى بيانك حلاوة ، وفى عزمك مضاء وجلاء ، وصلابة .

الفصل الثالث

التأمل والعمل الجاد

قد يعتقد البعض أن التأمل عمل سلبي يجلس فيه الإنسان ،منزويا ، أو متكاسلا أو زاهدا ، أو سلبيا أو حالما ..

ولكن التأمل فى صورته الحقيقيه ، هو التبصر ، والتفكر ، والذى وضعه القران الكريم فى قول الله سبحانه وتعالى ، « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا ، سبحانك فقنا عذاب النار » . « الله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والإفئدة لعلكم تشكرون » . «ومن كان فى هذه أعمى ، فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا « وقل ربى زدنى علما ».

« أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، وأذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » « أو لم يتفكروا فى أنفسهم ، ما خلق الله السماوات والأرض ، وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى » « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » :

إذا فالتأمل هو جهاد مع الفكر والنفس ، وإيقاظ للقلوب المغلقة ، ورفع الغشارة عن الأبصار ، واستبصار من الباطن ،وسير فى الأرض ،للبحث والمشاهدة واستماع إلى المعلم والمربى ، والبحث فى أغوار النفس وإيقاظ الهمم ، ورؤية آيات الله فى الآفاق وفى أنفسنا حتى يتبين لنا الحق من الباطل ، والنور من الظلام ..

فالحياة الدنيوية ،والتأمل هما طريقا الحياة ، فالدنيا مزرعة الآخرة ، والتأمل

هو ماء الحياة ، كلاهما لازما لزوم الشهيق والزفير للقلب وللحياة ، والدنيا فيها ساعات بسط وساعات قبض ، وبالتأمل يمكننا تحويل القبض إلى بسط ، أو تبسيط حالات القبض .

فبالتأمل يعرف الإنسان نفسه ، ويعرف أنه لكى يأخذ نصيبه من الدنيا، يجب أن يعطى أولا نصيب اوفر ، فكلما أجزل الإنسان فى الجهد والعمل ، كلما كان له نصيب اوفر فى الدنيا والآخرة .

وبالتأمل يتسع الأفق ، ويستضيء القلب بنور الله، ويغمر القلب ثقة لاحد لها ويعرف الإنسان كيف يكون شفوقا فى معاملته للناس ، رحيما للفقير والمحتاج ، خادما للبشرية ، وهذه هى حياة التصوف الحقيقى .

وكلما سلكنا طريق الروحية ، كلما زاد مفهوم الإنسان عن واجباته الدنيوية وعرف أن له قدرات لا حدود لها ، وأنه طاقة فاعلة فى الوجود ، وطاقة محققة خلاقه ، وكلما تعمقنا فى تأملاتنا ، أزدادت مفاهيمنا ، وأشرقت قلوبنا ، وتبدلت صفاتنا الامارة بالسوء ، إلى صفات أكرم وأنبل ، وعرفنا أننا خلفاء لله فى الأرض وأنه واجب علينا ، أن نسلك السبيل للعمل الجاد ، لتحقيق إرادة الله ، فى تطوير العالم إلى غايته من الكمال.

وبالتأمل يعرف الإنسان أنه عبد الله وخليفته فى الأرض وأنه وحدة فاعلة من وحدات الوجود ، وأنه غير منفصل عن الكل ، وأن الانعزال عن الوجود هو الموت والبلادة ، وأن الإنسان المنعزل ، مخلوق ممل وغير محبوب، ويعرف أنه كروح لها قوة مستمدة من روح الله ، وأن الله قوى يحب الأقوياء فى الحق ، الأقوياء فى العمل البناء ، الأقوياء فى مكارم الأخلاق ، الذين يحبون ويتحابون ، والذين يبذلون فى سبيل الغير ولو بهم خصاصة ، والذين يألفون ويؤلفون ، والذين لا يأكلون أموال الناس بالباطل ، ولا يتغالون فى أرباحهم ، أو فى أجورهم .

فبالتأمل يعرف الإنسان أن الله معه فى كل مكان ، يراه ويشهده ، وأنه لا هروب من هذه المعية ، وأن الله قادر على أن يسلبه نعمة الحياة ، أو يسلبه من نعم كثيرة ، فيبقى وحيدا ضعيفا مريضا ذليلا منكسرا فكم من طاغ أصبح فى خبر كان ، وكم من ملوك تهاوت عروشهـــا ، وكم من غنى سلبت أمواله ، وتبدلت أحواله .

إذاً فالتأمل ليس بالأمر السلبى أو الانعزالى ، إنما هو الأمر اليقينى فالصوفى هو إنسان الحياة ، الباحث عن الحق والحقيقة ، المنفذ للعدالة فى تفاعلة مع المجتمع ، الباحث عن السلام ، والباحث للحب أينما تواجد ، إنها صفاته النابعة من خلال تأملاته .

وسواء كان هذا النوع من الإنسان ، مهندسا أو طبيبا أو ميكانيكيا ، أو مدرسا ، أو ممرضا ، او موسيقيا او فنانا او فيلسوفا ، او صاحب صناعة ما او حرفه ، او جامع قمامة ، تراه صاحب عقيدة ومبدأ ، فهو يرعى الله فى كل خطوة يخطوها ، وفى كل عمل يسند إليه ، ويعطى أكثر مما يأخذ ويبذل نفسه فى سبيل عمله وفى سبيل قريته ، وسبيل بلاده ، بل وفى سبيل الصالح العالمى ، والبشرية فى أى مكان ، وفى المعنى الإسمى ، فى سبيل الله ..

والصوفى يعرف من خلال تأملاته ، ما هى نوازعه وما هى قدراته ، فيبذل أقصى الجهد فى محيط عمله ومعرفته ، لصالح الإنسانية وتقدمها ، وفى نمو الإنسانية نمو له ، وفى صلاح الإنسانية صلاحه ، كما أن فى صلاحه صلاح الإنسانية .

والتأملى يرى نفسة قبل أن يرى الناس ، وينتقد نفسه قبل أن ينقد الناس ، ويصلح من أمر نفسه قبل أن يحاول إصلاح الغير ، فهو يبدأ بنفسه أولا ، يقومها ويحيها ، ويلاحظ تصرفاته مع الغير ، هل هى فى حدود اللائق ، وهل قدم من الجهد ما يجب عليه أن يقدمه ، وهل ثار فى وجه الغير لكلمة عابرة ، أو هل لفظ

لفظا يسقم الغير ويضنيه ، أو تدخل فيما لا يعنيه ، سواء كان ذلك بين الأصدقاء أو الأعداء، وهل هب غاضبا لنقده ، أو للدفاع عن قضية خاسرة ، وهل يحكم على الأمور من زاويته الخاصة ، أو من خلال تحيزه لصديق أو قريب ، وهل ما يقوم به أحيانا من عمل فيه شذوذ عن واقع المجتمع ، أو عن عدم ادراك ، أو عن تزمت ، وعنصرية .

وهناك أشخاص فى المجتمع تراهم دائما يلومون الغير ، ويلقون فى كل أخطائهم على الغير ، وإذا فشلوا فى أمورهم الخاصة حاولوا تبرير فشلهم بسبب نابع من الغير أو الظروف أو المجتمع ، أو حسد الحاسدين ، او الحظ اللعين ، او غير ذلك من الأسباب ، ومثل هؤلاء الناس ، تراهم دائما ضعاف النفس ، ضعاف الشخصية ، إنهم رجال عديمى البلوغ ، أو اطفال فى صورة الرجال ، وترى هذه الصفات بكثرة فى عالم النساء ، لا يعترفن مطلقا بأخطائهن .

ولكن بالتأمل السليم ، ومراقبة النفس ، ومحاسبة النفس ، والرجوع إلى الحق تتغير الأحوال ، وتنمو الشخصية وتسير فى طريق الكمال ...

وكلما وجهنا جهودنا فى سبيل خدمة المجتمع ، وفى سبيل خدمة الله فى خلق الله ، وفى سبيل تقدم الإنسانية وسلامها ، كلما تقاربنا مع الله ، ودخلنا صراطه المستقيم من أقرب الطريق ..

إن المشاركة والتعاون فى معناه الصحيح ، وكما تم فى صدر الإسلام من بذل وعطاء بين المهاجرين والأنصار ، ثم بين عامة المسلمين ، ماهو إلا تكريس الخلق للخالق ، واهداء ونحر الأنفس الشح ، حتى يتم عتق الرقاب ، وعودة النفس المطمئنة إلى ربها راضية مرضية لتدخل الجنة .

إن اهتمام الانسان بالناس ، ومساعدة المحتاج والمعوج ، وخلق المجتمعات المتعاونة ، يعطى الإنسان راحة نفسية وشعورا بآدميته ، ويصهر ارواحنا المتناقلة

بماديات الحياة ، ويخفف عن كواهلنا متاعب الحياة ، ويعطى عقولنا الاسترخاء والصفاء.

وفى خدمة الضعيف ، ومساعدة المعوق ، والطفل ، والمريض ، والفقير ، والمحتاج والمأوم ، والجائع ، وطالب العلم ، والذى فى حاجة إلى العمل والمساعدة ، كلها خدمة لله وفى سبيل الله ، وهى الحسنات التى تذهب السيئات ، والتى يثاب عليها الإنسان ، بشرط ان تكون النية خالصة فى الخدمة من أجل الخدمة وخالصة لله ، وليست للمظاهر ، او الشهرة ، أو السلطان ، او الكبر ، او الكسب السياسى والمادى ، او التفاخر والتباهى .

وبالتأمل نعرف ان هناك قوة غيبية ترانا ، وتحسب علينا كل همسة ، فنعمل جهد طاقتنا وبكل ما اوتينا من قوة فى خدمة المجتمع ، وخدمة الإنسانية ، بل وخدمة الحياة فى كل مظاهرها ، من إنسان وحيوان ونبات ، ووجود ، وكون وما ظهر من الوجود وما خفى وغاب .. !!

الفصل الرابع

الكمال فى الروحية

كلما تأملنا الحياة منذ العصور القديمة حتى اليوم ، تكشف لنا دوام التطور لكل ما فوق تراب الأرض .

وقد صاحب التطور فى المظهر تطور فى المفهوم العقلى،وتطور فىالعمق الروحى وبمرور الأيام عرف الإنسان ان التطور الروحى او الداخلى ، اهم بكثير من التطور الظاهر فوق الأرض ه

وبعد ان كان الفكر مقيداً اصبح لينا طيعا ، وذو مناهج واوجه مختلفة فى البحث والاستقصاء . وبعد ان كان يسكن الإنسان الغاب ويرتع فى الجهل ، ويؤمن بنظريات جامدة وخرافات ما انزل الله بها من سلطان ، تغير وجه الحياة .

وقد صاحب هذا التطور الفكرى ، إنقلاب عظيم فى السياسة والإقتصاد، وفى مناهج الحياة المختلفة .

ونتج عن هذا الإنقلاب السريع ، ظهور متاعب نفسية ، وهزات عصبية ، وثورات . وبقيت الأفكار الدينية ثابتة جامدة فى عقول البشر ، وبخاصةفىالدول الفقيرة والنامية ، ودول الشرق ، مع التمسك بقشور الدين ، ومسمياته ، دون التعمق والفهم السليم لما يرمى إليه الدين من إخاء ، وحب ، ومعاملة ، واجتهاد فى العمل ، وخلق كريم وتضحية وفهم للحياة فى معناها الصحيح الأسمى .

ومن واجب اصحاب القلم والفكر ، ان يوجهوا هذه الشعوب ، إلى الإدراك

والفهم السليم لمعانى الحياة ، فى الظاهر وفى اعماق القلوب ، حتى يحدث الوئام بين الدين والدنيا .

فمن ناحية المفهوم القديم اننا العوبة فى يد القدر ، او اننا اجهزة مسخرة : يجب ان نفهم حقيقة انفسنا ، واننا نملك حق الاختيار ، وهذه هى الأمانة التى وضعها الله فى انفسنا ، فنحن لسنا كالصخر والجلمود ، إننا نملك طاقات فاعلة وقدرات عظيمة وهبها لنا الخالق ، لو فهمناها وتاملنا فى اعماقنا ، وتأملنا فى الحياة ، لعرفنا كيف ننمى هذه القوى ونستخدمها إلى ما فيه صالح البشرية ، وتقدمها .

وعلى كل إنسان ان يركز علي ما فيه من قدرة ، وان يتفهم عناصره ومميزاته ويخلق من هذه العناصر والمميزات شخصية قادرة بناءة ، ودائمة التطور إلى الأحسن وكما قال الله سبحانه وتعالى « كل ميسر لما خلق له » .

فهل كشفت عن نفسك الغطاء ، وعرفت ما انت ميسر له ؟!

فإن كنت غافلا ، فأبدا الكشف ، واستخدم التأمل والتركيز ، واستخرج كنوزك المدفونة ، ولا تهمل او تتوان ، او تتواكل ، فليس للانسان إلا ماسعى .

وقوى شخصيتك ، واجمع شتات فكرك ، وغص فى الأعماق واكشف قواك الجسمانية ، والعقلية ، والمعنوية ومشاعرك ، وصفاتك المتعددة ، حتى تتفتح نفسك وتشرق ، وكلما كسبت خطوة ، اعمل بقوة لكسب الخطوة التالية .

فالدنيا مباراة ، والبقاء للاصلح والاقوى ، ولا مكان للضعيف فى هذه الحياة .

ولكن افهم جيدا ، انه ليس معنى الأقوى ، ان تبطش بالأضعف ، او تأكل لقمته ، او تأخذ ما فى جيبه ، او تنهش عرضه ، فللحياة قانون وضعى ، وقانون إلهى . فإن افلت من القانون الوضعى فلن تفلت من القانون الإلاهى « من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

« تلك أعمالكم ترد إليكم » . فافهم !!

والحياة متنوعة الأشكال ، ففيها الخير وفيها الشر ، وفيها الظلم وفيها العدل ، وفيها الحب والكراهية ، والجريمة والعقاب ، والحرب والسلام ، والموت والحياة ، ليبلوكم الله أيكم أحسن عملا ....

وعلى الإنسان أن يقيم موقفه فى الحياة ، من الناحية الشخصية والإجتماعية ، والسياسية ، والدينية ، والثقافية ، حتى يعرف كيف يلعب دوره البناء على مسرح الحياة ، ويوازن بين الفشل والنجاح ، والمرض والصحة ، والفقر والغنى ، إلى غير ذلك من تعاقب كما يتعاقب الليل والنهار .

ولهذا التقلب ، وجب علينا أن نحمى ظهورنا ، باللجوء إلى الروحية ، وأن نعطى كل يوم فترة مسائية للتأمل ، لطرح ما هو فاسد من أفعال اليوم ، وزيادة حصيلتنا من العمل الجاد والعمل الصالح ، والفهم السليم .

وإذا أردت أن تسلك هذا السبيل ، فعليك أن تتخذ نظاما يوميا للعمل ، وبرنامجا للتأمل كما يلى :

حالما تستقيظ من نومك ، إبدأ بعمل جاد نحو هذا اليوم ، فبعد قضاء حاجتك توضأ وصلى صلاتك المتادة ، ثم اجلس فى هدوء لمدة عشرين دقيقة ، وأشعر انك جالس فى حضرة الله ، واقرأ بعض آيات من كتابك المقدس ، ثم تأمل فى معناها وفى حكمتها بعقل متفتح ، ثم ركز على معنى الله فى قلبك ، وفى كل ذرة من ذرات الوجود .

فى اليوم التالى ركز على صفه من صفات الخالق ، أو على اسم من اسمائه الحسنى وتفهم المعنى والحكمة لتقوم فيه .

وفى صباح كل يوم اتخذ اسما آخر وتفهم معانيه وقدراته . ثم قم إلى عملك

وأنت فى نشاط تام وسرور ، مصمما فى قلبك على مواجهة اليوم بكل أمانه وإخلاص وبذل أقصى جهد فى أداء عملك ، وفى خدمة الناس إن كان عملك ذو صلة بالناس .

وفى المساء بعد استجمامك وراحتك ، وقبل النوم بوقت كاف ، أغتسل أو توضأ وإجلس وحدك بعد أداء الصلاة ، وتفكر فيما انجزته فى يومك من أعمال ، وهل أنت قانع وراض عما قمت به من جهد وإنجاز ؟

ثم إجلس على مقعد أو فوق الفراش جلسة مستقيمة ، واسترخى تماما ، وخذ بضع تنفسات ، ثم فكر فى كلمة الله وفى معانيها العظيمة ، وقدرات الله ، وعظمته .

ثم عد إلى نفسك وتفكر فى أنك جزء من الوجود ، وانك قائم بروح الله ، وقوى بروح الله .

وفى أثناء اليوم ، كن دائما حاضر الذهن ، ولا تكن مشوشا ، ورتب أعمالك حسب الاهمية ، حتى تنجز الأهم فالمهم ، دون تكاسل أو تقاعس ، واضعا نصب عينيك بلوغ حد الكمال .

وكلما فرغت بين إنجاز عمل وآخر ، فكر لمدة بضع ثوان أو دقائق فى الله وفى قدرته وفضله ، وأنك قادر على العمل بما أودعه الله فيك من قوة وجهد ، ولا تجعل اليوم يمر دون تفكر فى خالقك ، فالدنيا غروره ، وقد تسرق منك اليوم فى لهو أو غفلة ، فتقعد ملوما محسورا .

فكلما تذكرت الله ، كلما قويت روحك ، وقويت عزيمتك ، وذهب عنك الحزن والخوف ، واستقمت فى العمل .

إن اللحظات القليلة التى تذكر فيها الله ، سند قوى لك ، يمنع عنك السوء ،

ويمنح نفسك الاستقرار ، ويقوى روحك ، ويقدرك على متابعة العمل بأمانه .

نظف عقلك من الهموم والمشاعر السوداء ، وانظر إلى الحياة بمنظار أخضر أو وردى ، وأعرف انك سيد العقل ، وكيفما تفكر تكون ، فكن سيدا سعيداً ، وأفعل الخير تجد الخير ، فكيتما تزرع تحصد ، وهذا هو قانون الحياة ، تلك أعمالكم ترد إليكم ...

الفصل الخامس

التصوف وطريق الكمال

لو نظرنا إلى جوهر التصوف ، لوجدناه أكمل صورة ينهجها السالك لتحقيق مبادىء الإسلام من حيث إلتقاء الخالص ، وجلائل الأعمال، والتطبيق الحق للحياة من حيث ماديتها ومن حيث روحانيتها ، نبعا من الكتاب والسنة .

وقد يرى البعض أن التصوف هو الزهد فى الحياة ، أو الهروب من الواقع أو السلبية والتواكل ، ولكن هذه النظرة هى سوء فهم للتصوف الحقيقى ، نتيجة لما قام به البعض « من لتملية » المسلمين ، أو غيرهم .

ولكن التصوف الحقيقى ، هو نهج فى الحياة الكريمة ، وثقة كاملة فى الحياة الجادة ، واعتماد أصيل على ما فى الإنسان من قوة نابعة من الأصل القائم على كل إنسان .

ويجب أن يفهم الناس معنى القول المأثور « اسقاط التدبير » وفى هذا المجال كان الرسول عليه الصلاة والسلام يشاور صحابته فى الرأى ، ويتخذ القرارات الحاسمة فى الحرب والسلام ، وكان يدبر أمور المسلمين ، تدبيرا سليما حسبما يتطلبه الموقف، ولم يترك صلى الله عليه وسلم الأمور تسير على هواها ، ولم يكن كالريشة فى مهب الرياح ، تدفع بها حسب الأهواء . بل كان ذو رأى حكيم نابع من أعماق بصيرته ، وفحصه الدقيق للأمور ، ولم يكن يعطى جوابا للناس إلا بعد أن يطرق برأسه قليلا ليتبصر فيما عرض عليه ، أو كان يرجىء الأمور بعض الوقت حتى يبحثها بحثا مستفيضا ثم يدلى برأيه .

ومن قوله المأثور « أنتم أعلم بأمور دنياكم » .

وهذه هى الحقيقة التى يجب أن ينهج عليها كل مسلم أو كل متصوف ، فكل إنسان أعلم بأموره من الغير ، ولن يدبر الغير أمورك ، فأنت أعلم بكل ظروفك وإمكانياتك ، وفى قوله المأثور أيضاً « استفى قلبك ولو افتوك ، ولو افتوك ، ولو أفتوك .. !!!

فأنت أعلم بتدبير أمورك ، فدبر أو تحمل كل المسئولية ، لتذوق حلاوة النجاح ..

ويجب أن لا نخلط بين مفهوم إسقاط التدبير ومفهوم القدر ، فعلينا أن ندبر أمورنا ونسعى لتحقيقها . فى قوله تعالى « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم » « وليس للانسان إلا ما سعى » وقد أعطانا الله عقلا لكى نستعمله بحذق، لتصريف أمور دنيانا . وأعطانا قلباً خاشعاً لله لكى نستضيء به ، فى التميز بين الحلال والحرام ، من خلال الرؤية الكشفية .

والصوفية يلقبون القلب بالعرش ، لأنه موضع الخشوع ، ومنه يهيمن الله على المؤمنين ، وذلك استلهاما من الحديث الشريف « أن قلب الإنسان بين أصبعين من أصابع الرحمن » .

وعلى هذا يجب أن يلتقى الفكر مع العمل ، والنظر مع السلوك . وإن نظرة متفحصة لحياة الرسول ولحياه أصحابه ، ولحياة الخلفاء الراشدين ، لرأينا جدية العمل الدنيوى ، فى صدر الإسلام ، يسير جنبا إلى جنب ، مع المفهوم السليم للدين والتشريع والسنه، والعمل الجاد المخلص الذى دفع بالإسلام دفعته العظيمة . فظهرت العلوم والمعارف العلمانية ، فى ظل العلوم والمعارف الغيبية ، حتى انتشر الإسلام من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب .

إن الانسان وهو قمة المخلوقات فى هذه الأرض ، لم يبلغ بعد حد الكمال سواء فى صفاته الخلقية أو الخلقية ، فمازال يحبو نحو كمال الخلق ، ومازال فى عهد التطور

الفسيولوجى فكثيرا ماتنتابه الأمراض ، منها ماتمكن من القضاء عليها ، ومنها ماهوة تحت رحمتها يقف حائرا أمامها .

فالإنسان مخلوق ضعيف بالرغم من تقدمه العلمى الكبير ، فمازال يتأثر بالبرودة والحرارة ، وتتلف أحشاؤه ، ويتلف كبده ، وتقف كليتيه عن العمل ، ويتوقف البنكرياس عن نشاطه ، وتتصلب شرايينه ، فيصاب بشتى الأمراض ، حتى تنتهى حياة الهيكل . . .

أما الروح فتخرج بحصيلة كبيرة من المعرفة ، ومن يدرى كيف ستكون صورة الإنسان وإمكانياته بعد مليون عام ؟؟

وهكذا عالم النبات ، كل يوم فى تطور ، تختفى ثمار وتظهر ثمار جديدة ، تختفى أنواع من الزهور وتظهر أشكال جديدة ، تختفى غابات وتظهر زراعات ، تختفى خضروات وتظهر زراعات

كذلك الكون ، تختفى الحياة من كواكب وشموس ، وتظهر أكوان جديدة تختفى الحياة من كوكب وتظهر حياة أخرى من نوع جديد فى كوكب آخر ..

إنها سنة الحياة ، سنة الله فى خلقه ، وفى إبداعه ، لبلوغ الكمال ، وعندما خلق الله الإنسان ونفخ فيه من روحه ، قالت الملائكة ، أتخلق فيها من يسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ، فقال للملائكة ، « إنى أعلم وأنتم لاتعلمون » ، لاتعلمون ماسوف تأتى به الأيام ...

هذه سنة الله ، كل يوم هو فى شأن جديد .

فسبحانه وتعالى مطلق الإبداع ، سرمدى ، دائم ، بلانهاية .

الحياة والكمال

إذا تكلمنا عن الكمال فلن نسبر غوره . . . .

فمن منا الكامل الذى يعرف الكمال ؟

فكلمة الكمال كلمة عامة نستعملها لغويا فى التعبير عن صفات نراها من وجهة نظرنا أنها كاملة .

وفى رأى أن الكمال نسبى ، فنحن ننسب الكمال إلى شىء بالنسبة لشىء آخر وإذا تعمقنا أكثر فى البحث لوجدنا أن ما هو منسوب إليه ، أصبح منسوبا إلى شىء آخر أكمل منه وهكذا بغير حدود . . .

وإذا عدنا فى بحثنا إلى فجر التاريخ لرأينا دوام التغير فى كل شىء ، فما من شىء ثابت فى الوجود ، بلغ قمة الكمال !!! .

فالعلوم القديمة أصبحت بدائية فى زماننا وقد كانت فى نظر القدماء هى أقصى المعرفة ، وسوف تصبح جميع العلوم التى نعتقدها اليوم أنها قمة المعرفة ، علوما بدائية . . . .

وهكذا سوف يستمر الحال مدى الحياة ، بغير نهاية ، فكلما بلغ الإنسان درجة من المعرفة ، عرف أنه كان جاهلا .

وإذا تمسك الإنسان بعلم قديم مهما كان مصدره ، فسوف يقف مكتوفا جامدا متجمدا . .

ولقد ظهرت مخلوقات فى بدأ الحياة واختفت .

وتطورت الحياة تطورا عظيما من الخلية إلى جميع ما نراه اليوم من اشكال عجيبة ، وكانت فى البدء مظهرا للكمال ، فهل هى اليوم كاملة ؟

والتطور لايحدث فى لحظة أو ليلة من ليالى الأرض ، وكانا نعرف قصة هل الكهف ، عندما استيقظوا ظنوا أنهم لبسوا يوما ، أو بعض يوم بينما هم لبسو سنين عدداً ، وقد تغير المجتمع وتطور . . .

إننا نشاهد فقط مايحدث فى هيا كلنا من تغيروتطور ، فى مدى سنوات العمر . وذاتنا الحقيقية صامدة لاتتأثر بهذا الإضمحلال ، بل تكسب حصيلة مشاهداتها ومعارفها ، وأخطائها ، ومكاسبها المسطورة فى لوحها المحفوظ معها فى معراجها الدائم إلى الأعلى ، بعد التخلص من أشباحها الثقيلة .

إنها سنة الله فى التغير والتبديل إلى مالانهاية ، فى أى صورة ماشاء ركبك .

فهل عرفنا للكمال نهاية ، إن كلمة الكمال عاجزة عن التعبير ،بالمعنى الصحيح والكمال ليس له حدود ، فالعلوم الأرضية ليس لها حصر وليست لها نهاية ،والعلوم الكونية بعيدة النور ، وليس لها نهاية ، وكمال الأخلاق ليس له نهاية ، ونحن لاندرى أى الأفعال خير وايها الشر ، وفى قصة النبي موسى وسيدنا الخضر أمثلة واضحة ، لما اعتقده موسى أنه شر ، وظهر أنه من أفعال الخير ، ومصائب قوم عند قوم آخر فوائد ...

وكل مايدخل تحت دائرة الكمال ، ماهو الا طموح من الإنسان لكى يسمو ويعلو إلى غير نهاية ، وكلما قطع شوطا فى سبيل المعرفة ، عرف أنه فى بداية الطريق وأنه يحبو فى طريق المعرفة فى الدين والدنيا ...

والتطور معراج مستمر بلانهاية ...

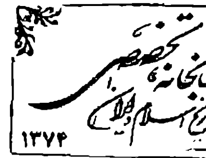
فالإنسان والله والحياة ، ارتباط دائم ، وظهور دائم ، وغيب دائم ، واستمرار دائم ، بل هى ديمومة الحياة فى شقيها الظاهر والباطن .

وصدق الله العظيم فى قوله الكريم « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا !!!

وفى كتيب قادم إن شاء الله سوف توضح طرق التأمل التى إذا اتبعها الإنسان بعزم وصدق فتحت له طريق المعرفة فى السير إلى الله .

تم بعون الله تعالى

محتويات الكتاب



الباب الثالث

الباب الرابع

الباب الخامس

الباب السادس

الباب السابع

للمؤلف

١ — اليوجا والشباب الدائم

٢ — اليوجا علاج وشفاء

٣ — اليوجا ينبوع السعادة

٤ — العقل المتحرر

٥ — اليوجا والتصوف والرهبانية بحث وتحليل .

٦ — اليوجا والعلاج النفسي (تحت الإعداد) .

عنوان المؤلف ٢٦ شارع أمين الخولي بمصر الجديدة ت/٨٧٤٠٨٣